الإبحار فى الرمــل

رواية

عبد الفتاح مرسى

"طبعة أولــى"

طبع بدار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
ت: ٥٣٥٤٤٣٨ - اسكندريـــــة

الإبحار فى الرمل

عبد الفتاح مرسى

كمبيوتر: (دار الوفاء)
الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد
بجوار مساكن دربالة بلوك رقم (٣)
الرقم البريدى: ٢١٤١١ – اسكندرية
رقم الإيداع: ٩٩٧٦/ ٢٠٠٠
الترقيم الدولى: 3 - 079 - 327 - 977

إهــداء ..

الى الصديق حسين عبد الوهاب شاهين .. الذى سبقنا – وهو كعادته دائما سباق – ورحل .. !

ومنذ الصبا كان يحيطنى بصداقة ترتكز على العقل والقلب فكان صديقى الأول والأخير ..

ثم ترك لى فى السنوات الأخيرة مساحة استقبل عليها أصدقاء جدد ، وبقى يرعانى عن بعد ..!

ولما رحل فجأة .. تبين لى ، أن كل الذين استقبلتهم فى حياتى بعده ، تآلفت مع بعضهم بالعقل ، وتآلفت مع بعضهم بالقلب ..

أما هو، فكان العقل والقلب معا ..

« وهنا وأنا أصور شخصية – محمود الرملى – فى رواية الإبحار فى الرمل – كان فى ذهنى ، عقل وقلب..حسين شاهين والذى كان يملأ (رمل الإسكندرية) حركة ووعيا ... »

فإلى حسين .. ومحمود .. الواقع والرمز ..

أهــدى الرواية ..

عبدالفتاح مرسي

لوحة الغلاف مهداة من الفنان عصمت داوستاشى



الفصل الاول

الأصل والفصل

ازدهرت روحى - عدت شابا ممتلئا بالحماس والدفق الداخلى ، فى الواقع كنت أبا لثلاثة أولاد وزوجا لشطفة ، امرأة مكتملة الأنوثة ، أرى ذلك فى عيون الآخرين ، تزوجتها بناء على رغبة والدى التاجر ، ومنذ وفاته انقلبت شطفة إلى "إرهابى" تسلحت (سرًا) بكافة الأسلحة الفتاكة ، وكأنها عملت لهذا ، منذ وطأت قدمها دارنا ، نظمت كتائبها و وُدها طابورها الخامس بكل أسرارى ، توصلت إلى نقاط الضعف والإثارة فى استحكامات (أمى) وحصلت على (هفوات) شقيقتى ، وبقيت ساكنة ، كالتنظيمات السرية فى أزمنة الطغاة " ثم هبت فجأة -ولا بديل عن السيطرة الكاملة ، اقتحمت قلاع (آمى) واسقطتها فى عدة أسابيع ، كانت أمى عضدنا وقلب قوتنا ، ثم استدارت بكل " خبثها " وقبل تجميع أى احتياطات يمكن حشدها للمقاومة وأطلقت كافة أسلحتها نحوى ، ليلا ونهارا ، حتى بات التسليم من أجل إسكات (ضجيجها) وانقاذ ما يمكن إنقاذه ، أمرا ..أرغمت على قبوله ، ربما أحد غيرى لا يفكر فى التسليم ويناضل حتى آخر (طلقة) لكن لكل إمرئ طبيعته وظروفه الخاصة به " لا تعتقدوا أنى ضابط فى القوات المسلحة" ..

أنا سرحان عبدالعال الحاجولى ..من أهالى باكوس .

(سندع سرحان يواصل الفضفضة..كان يمكن أن اتحدث نيابة عنه ، فأنا اعرف عنه كل شئ من الخارج ، ولكنه بلا شك يعرف عن نفسه ، أكثر من أى روائى محترف .)

•••

شطفة جاءت الى بيتنا فتاة ممصوصة ، خفيضة الصوت ، سريعة الحركة والإستجابة ، خاصة لإشارات ورغبات والدى - الذى كان فى أيامه الأخيرة مريضا - يجدها دائما تحت يده فيتوكأ عليها ،هى التى تحثه على الحركة وتعاونه على عدم نسيان موعد الدواء ، والطعام .

أمى على الدقة القديمة ، كانت مشغولة لشوشتها بأعمال البيت والتى تتجدد مع مشرق كل شمس.و فى خيرنا تبغددت شطفة ..ظهر عليها العز فى بيتنا وكأن البلوغ قد أدركها بعد الزواج فخرطها خراط البنات، هكذا كانت تقول أمى عنها بإعجاب(ألم أقل لك يا ولدى أن عينى فرازة ، وشطفة ستكون سيدة جميلة لولا ظروف والدها المتعثرة التى جعلتها تعيش فى حرمان) .

" كلامك صحيح يا أمى ، شطفة استدارت ولفتت إليها الأنظار ، الأقارب والجيران يتكلمون عنها بإعجاب، وإذا تحدثوا عن امرأة جميلة ملفوفة القوام تتمتع بالصحة والعافية ، قالوا (جميلة مثل شطفة"..) .

•••

ولما كانت شطفة تبكى، كان وجهها يصير ورديا وعيناها تلمعان وجسمها المدملج الذى يمتلئ بالإستدارات ،الصدر والأرداف وسمانتى الساقين ، حتى الكف وعقل الأصابع والشفاه والخدود، أنا الذى احتضنتها جافة ويابسة ورائحة إبطيها نفاذة ، لم تكن تعرف كيف تغسل أسنانها,تزوجت منها وهى مصابة بنوبة برد، تسعل وصدرها يخشخش ، بقى السعال يلازمها عدة أسابيع، فكان لإنطباعى الأول عنها أثره على رغبتى فيها ..وبعدها خلقت شطفة"كل هذا وعبرت إلى شكلها الجديد، عطور وملابس ، عياقة وزواق ، ولكنها بقيت بداخلى شطفة القديمة الناشفة ذات الرائحة النفاذة.

وعندما تهيأت لإستقبالها فى شكلها الجديد ، كانت قد اعلنت علينا الحرب ، لا مناص من فرض إرادتها كاملة ، صعب على أن أبتلع الموقف وأرضخ صعب على خيالى التخلص من الصورة القديمة ، بل إن صورتها ورائحتها القديمة استفحلتا فى ذهنى، انتقاما - سلبيا - لفرض نفوذها بالقوة على بيتنا ، وناس باكوس يحسدوننى على أن شطفة (لهطة القشدة) هى زوجتى ، ربما أرضى ذلك غرورى فى حينه ، ولكن، لأنها فرضت على سلفا ، فى وقت كان وجدانى محتلا من قبل (فؤادة) فى مرحلة الصبا والمراهقة ... (وبنوال) فى مرحلة الشباب ..(نوال) كان منتهى أملى الزواج منها ،لذلك فقد تعاملت مع شطفة" - كسلعة إضافية فى (المحل) إن لم يكن من ورائها كسب ، فهى من مستلزمات (الجدك) !

•••

كما أنى وقد نشأت فى طبقة متوسطة (محمود الرملى، صاحبى ورفيق طفولتى يطلق على طبقتى (البرجوازية الصغيرة) أو الفئة ذات التقاليد المتحجرة" - واذا ما تطرق إلى أن كل رزقنا واعتمادنا على التجارة ،أضاف سلسلة من الأوصاف والنعوت التى قد تغضب التجار لدرجة الحنق عليه .

فمن تقاليد التجار فى هذا الموقع الطبقى المحافظ، أن يشكل الأب ابنه على شاكلته، صورة طبق الأصل منه - الحاج محمد عثمان جارنا، يتاجر فى البذور - خطب لولده البكر،أبنة أحد أصدقائه بعد أن شاهدها وأعجبه بها، وعندما رفض(جمال) الزواج منها وخالف نصائح أبيه المقدسة ، لم يتوان الحاج محمد فى أخذها لنفسه وطرده من البيت ، وجعل الطرد يشتمل على قطع المصروف عنه. ولأن جمال لم يتقن شيئا سوى أن يكون ابن صاحب المحل - فقد داخ السبع دوخات وساق على أبيه طوب الأرض ، لكن الحاج

محمد عثمان ، أصر على أن يبقى جمال خارج بيته متعللا بأن زوجته شابة صغيرة وابنه شاب طائش ، مرددا الكلمة المأثورة (احترس ولا تخون) وأنه لن يسمح بوضع النار بجانب صفيحة الجاز ، حدث هذا قبيل أن يفاتحنى والدى بالزواج من شطفة ابنة السياجى الصانت ..شقيق فرهود الصانت رجل باكوس المشار اليه بالبنان.

شطفة على جوادها الجامح وخلفها تشكيل من أولادى ، تسلمت مفاتيح مدينتى واخضعتنى عنوة لإرادتها.. عمدت إلى إظهارى فى مظهر الرجل غير الحضارى ، عاملتنى أمام أمى والأقارب برفق ظاهرى ، وطاعة مفتعلة ، فتحولت إلى خليفة فى زمن سيطرة الوزراء الأتراك ، يقدمون له مظاهر الولاء العلنى، ثم يصفع خلف رأسه من حين إلى آخر ، حتى لا ينسى نفسه ويخطو بعيدا عن الحدود التى حددت له !

•••

شطفة كانت كثيرا ما توجه لى - التأنيب - تحاسبنى على كل بادرة، ثم تمنحنى عفو الأقوياء الذى يكسر الهمم ، وضعت على لسانى فرماناتها ، صادرة جميعها ضد أهلى ، ادعت أن ذلك لتشذيب أخلاقهم وتبجحهم القديم على أهلها . !

كنت أحيانا أفكر فى التمرد ، حتى لو حبست فى سجن (العزوبية) إلا أن الرباط الحريرى كان ثلاثيا و مجدولا بتلك العاطفة الأبوية ، وعاطفتى الغائرة فى نفسى مع طفولة أولادى ، بالإضافة إلى استمراء العادة وسطوتها الدفينة ، وصعوبة استبدال ما اعتدنا عليه .

ولكن ما كان يؤلمنى أشد الألم - أنى كنت الأداة التى تنفذ (سياستها) ضد أمى. كنت المكلف بالتنكيل بأمى فى الظاهر - أمى التى كان همها الأول

الحفاظ على البيت والتجارة ورعاية العائلة فى حياة والدى ،وبعد مماته. وبذلت كثيرا من التضحيات،

لا أدرى كيف جعلتنى شطفة (الأمية) ،أقيد إرادة أمى بإحكام فى برذعة جوادها ، بحبل من عاطفتها نحوى ونحو أولادى ،إذا ما لكزتْ جوادها بمهمازها انطلق يجر خلفه (حماتها) تسحلها كما تشاء، تدور بها فى باحتها أمام الأقارب والمعارف من باب (مرمطة الكرامة) وتسلية عدد من أقاربها ، ثم تتوقف لتمصمص الشفاه متأسية على السيدة العجوز وأفعال ابنها فيها، وأمى تتوسل إليها أن تترفق بى ،لم تكن تتوسل إليها أن تترفق بها – ولكن شطفة متباهية بذلك القلب العطوف الذى لا يقابل منا إلا بالنكران ، تردد :

-هكذا يفعل من لا أصل ولا فصل لهم، ضد أبناء الأصول (وإشى جاب لجاب) .. !

***

عينا أمى كانت ترتفعان إلى وجهى « هل تدرك براءتى ؟" ولكنها تريد – باستماتة – أن تنظر إلى عينى ، كنت لاأستطيع أن ألتقى بنظراتها المعاتبة أمى لا تريد أن تسلم بأننا خسرنا المعركة ، وعلينا تدبير الأمر الواقع ، الأمر لن يكلفنا سوى قليل من القناعة والرضا بما هو مقسوم !

فى حالتى،وأنا على باب الثلاثين،كان يمكن أن أنصرف إلى العبادة ويكون لى جلابيبى البيضاء وطاقية ومسبحة وألضم صلاة الظهر بالعصر والمغرب بالعشاء ويا دار ما دخلك شر .. المهزومون يبحثون عن مشجب يعلقون فيه خيبتهم الثقيلة ، وليس أفضل من (المسجد) مكانا ، أهرب بداخله .هناك الصفاء النفسى وإلقاء الحمول والهموم على القدير ، ثم سكينة الصبر !!

لكن أمي لا تزال ترنو إلى بعيد ، أرى ذلك في إصرارها على النظر في نافذتي ، ماذا تريدين أن ترى يا أمي بداخلي ، لن تشاهدي إلا ركام ، وانقاض، تدعوني إلى البكاء والولولة على أطلالها ، ولكن لن يشعر أحد ببكائي -أنا التاجر- لي دنياي خارج البيت - ألوذ بها - ولا أستطيع أن أتحالف معك لأعبر عن أحزانك. أعرف أن (شطفة) جاءت لخدمتك ، "سامحك الله يا والدي" وقد تقوت من ضعفنا ، لا تطلب منا سوى الإعتراف بهزيمتنا والإقرار بأن لا نتدخل في شئونها ونترك لها إدارة أحوالنا ، كما يتراءى لها ، وهي في كل الأحوال - زوجتي وأم أولادي ..

دعك يا أمي من الماضي الذي ولى وراح ، نحن نعيش في زمن "الفنط ..عمها فرهود ...!"

إلا أن أمي كانت - كما أعرفها دائما ،عنيدة ، حتى وهي في أشد حالات ضعفها ، كانت تتمسك بعدم الإعتراف بشطفة ، تعلم أن هذا يعكر صفوها ، وإن لزمت عدم الفعل ، وكان هذا في حد ذاته يقلب انتصارات شطفة إلى حالة من الهزيان واستمرار التنكيل بأمي وبي !

نظراتك يا أمي تحرك الحجر ، تذيب الصخر ، إلا أني قد تحركت بعيداً، لا تؤاخذيني - لقد أجبرت على الحركة بعيدا عن تأثير تلك النظرات ، وقد أجدت ممارسة نفاق الضعفاء ، وتلك العمالة المزدوجة الوجه .

" كنت قد وازنت (الصفقة) وجدت أن بيتي مفتوحاً لاستقبال ما تبقى مني - وأنني احيانا، أضمد جراحي في عيادة أولادي ، كما أنه كان يتعذر علي لظروف خاصة بالتجارة، إمكان فتح بيت جديد !

-وكم تمنيت أن أتزوج من (نوال) لكن شطفة كان لها ميزة، أنها تجيد بخبرة مكتسبة من أيام القحط فى بيتهم - عمليات الإحلال والتبديل - ذلك كان يساعدنى على أن اتغلب على العقبات التى تصادف تجارتى.

(كانت الثورة فى بدايتها ،وأحوال تجارة الغلال قد اضطربت بالنسبة للوسطاء والموردين الكبار) و كانت شطفة هىالتى تسيطر على مملكتها، تتركنى أنصرف إلى متعتى الشخصية، التى أجدها فى السهر خارج البيت

أنت يا أمى سيدة كبيرة ، آجلا أو عاجلا .. ستفقدين دورك .فحركة الحياة إلى الأمام ،تخلف الدقة القديمة، وقانون تسليم الراية، يلوى أعناق من يتباطئون ، لماذا لا تسلمين بذلك وتنفضى يديك من الأمر كله ؟ العبادة واجبة، وثوابها ينتظرك بعد عمر طويل!

ولم يكن أمام أمى سوى الصبر ، ولكنها قد تلجأ فى أمسيات الشتاء الطويلة إلى فيض الذكريات ،تقلب بها المواجع ، تتحدث عن قانون عبدالعال الحاجولى - أبى - وهذا الذى كان يفعله ، وهذا الذى كان لا يفعله. تستغرقها الذكريات وتنسى (أننا الآن نعيش فى ظل قانون شطفة السياجى).

تقول أمى :

هل كانت شطفة تدير بيتها مثلى ؟ لم يكن لدى الغسالة ولا فرن البوتاجاز أو المكنسة الكهربائية،والمياه لم تكن قد وصلت إلى كل ركن فى البيت ، كنت استيقظ مع آذان الفجر .، أعجن وأخبز ، أطبخ و أنظف البيت وأهوى الفرش، وقبل أن يأتى - الحاج - أكون قد اغتسلت وبدلت ثيابى وتكحلت وتعطرت ، يأتى سى عبده ليجد عروسته فى انتظاره ،تعاونه فى خلع ملابسه ، تغسل له قدميه بالماء الدافئ المملح.وتعمل على راحته ،وفوق ذلك ،كنت أرعاكما.أنت وأختك.واحضكما على استذكار دروسكما ، شطفة،علم

الله سهل لها كل شئ ولكنها لا تعتنى بك ، ولا تعتنى بأولادها ، لولا وجودى بجانبها لكان البيت قد تحول إلى مقلب زبالة ، شطفة تنام حتى آذان الظهر ، شطفة تملأ البيت بأقاربها وجيرانها وتسهر حتى بعد منتصف الليل أمام التليفزيون ، كيف يا سرحان - عندما تقوم وتذهب إلى سريرك تبقى هى جالسة ببجاحة مع أولادها ، يملأن البيت ضجيجا ، كيف لا تتبعك الله سبحانه سيحاسبها على عدم اللحاق بك فى سريرك، ذنوبك خارج بيتك ستعلق فى رقبتها هى، وأنت كيف ترضى بذلك ؟ .

أقول فى نفسى(لا تحرضينى يا أمى على فعل قد أندم عليه ..) وأقول لها : الدنيا تغيرت يا أمى وأنا أحمد الله لوجود مايلهيها عنى ..وهى إذاتبعتنى إلى السرير ، تملأ آذانى بنميمتها عن الجيران والتى تنتهى عادة بالشجار بيننا !

تغتصب أمى ابتسامة باكية ، تجمع جسمها الضئيل فى ملابسها السوداء وتثبت الطرحة على رأسها وتقوم إلى الصلاة . وأحيانا كانت شطفة تراقب أمى وهى تصلى حتى تتأكد أنها لا تشكو إلى الله، حالها !

•••

كانت أيامى فى بيتى كمن يجلس القرفصاء دافنا رأسه بين ركبتيه، بينما أيامى خارج بيتى يدب فيها النشاط ، تطرب وترقص حولى ، وقد نشأت مطيعا لوالدى أنفذ رغباته دون نقاش ،وأمارس ما يحلو لى فى الخفاء ، الأمر بالنسبة لى لم يختلف كثيرا ، وقد تتذكر شطفة، عندما لا أسعى إليها، أنها أنثى فتتزين ، تستلقى على سريرها فى قميصها الحريرى الأحمر، تتقلب على الفراش ، تتأوه وتنادينى...

تتعمد أن يصل فعلها الأنثوى إلى مسامع السيدة العجوز - وخاصة ضحكاتها الممطوطة ذات الذيل الطويل، والتى تطلقها بلا مناسبة ، ثم بعدها قد

تكف عن الإستجابة ولا تعطينى ما أبغيه ، وإن أعطت فهىتعطى فى عجالة من يحصلون على الثمن .لكن لا يزال لشطفة فى أنفى رائحة اللحم الضأن ، تقتحمنى هذه الرائحة فتزهق روحى ، تحبط نفسى وتحبط أعضائى ، إلا أننى قد أواصل لعب الدور المحفوظ ، تحت وقع استبداد الواجب ، وقد تتمنع على ، فأفرح بداخلى ، ولكنى أواصل تمثيل اللهفة عليها - باقتدار - تهمد، استدير بعيدا لأغرق فى النوم ، وفى بؤبؤ العين صورة قديمة. أبيض وأسود، لفؤادة ، وصورة لنوال بالألوان ..!

•••

ثمة أيام كنت أطأها بقدمى وأيام كانت تطئنى تحت نعلها. إذ كنت ألحظ اننى اتمادى فى الكذب دون مبرر ، قد أوجه لنفسى بعض اللوم والتأنيب لكن الإستمرار فى لعب الأدوار المزدوجة جعلنى فيما بعد أهز كتفى غير مبال وانصرف لأداء أعمالى المعتادة، اقنع نفسى ، أنه كذب لن يكشف بسهولة وبعضه من النوع الأبيض !

فقد اعتقل محمود الرملى ، كنت قد حذرته أن لا يتمادى فى اظهار ميولة وأن لا يفصح عن آراءه بصراحته المعهودة ، حتى مع أعضاء الفرقةالذين يمثلون إحدى مسرحياته "

كان محمود الرملى يؤيد عودة الضباط إلى ثكناتهم ، ويعتقد أن حركة الجيش قد قطعت الطريق على نمو الديمقراطية التى كان ضحاياها سيوسعون بتضحياتهم رقعتها ، وأن تسليم الحكم فى انتخابات نزيهة - لحزب الأغلبية - حتى لو كان حزب الثورة - سيحمى الثورة نفسها من جحافل الإنتهازيين !

علمنى محمود ..الجدل .فمن الطبيعى أن يكون هو نفسه أول من أجادله ..

قلت له : الطول مثل العرض ، وقد وعد قادة الثورة بالديمقراطية ، ولكنها مسألة وقت فهم لم يحصلوا على فرصتهم بعد والرجعية لا تهمد ، وكنت أفضل محمود عندما يتحدث عن أشعاره ومسرحياته ،ومن خلاله أفضل السيدات اللاتى يمثلن فى هذه المسرحيات.وأفضل اختلاف وجهات النظر بينه وبين المخرج عندما يتحدث عن الفن !

ولكنه فى تلك الأيام كان يتحدث عن الإعتصامات والمظاهرات ، كعادتى استمعت اليه بنصف وعى ، عندما استمع إلى ما لا أميل إليه، استمع بنصف وعى، وأبدو أمام المتحدث أنى فى أشد حالات الإنتباه والتركيز ، لكن عقلى ينصرف إلى شئ آخر ، شئ لا أهمية له ، محمود قال كلاما كثيرا عن رجال الثورة ورجال الأحزاب وعرض على مسامعى كثيراً من التفاصيل وكأنه يعيش معهم جميعا ، أو كأنهم يقيمون فى بيته ولا ينامون قبل أن يقدموا له تقاريرهم اليومية ، محمود قارئ نهم وأستطيع أن أؤكد أنه لا يكذب مطلقا، ولكنه يغرم بكسو العظام لحما من تحليلاته ، وهو صديقى الحميم ، كما أنه صديق حميم لعدد كبير من معارفه ، لم يتيسر لى إحصاؤهم ، كنت فى معظم الأحيان أبدو كعاشق لا يريد أن يفكر فيمن يحبون حبيبته.!

•••

عندما بلغنى نبأ اعتقاله وأنا فى (المحل) ارتعدت فرائصى ، شعرت بالهلع وحاولت تذكر ما كان يقوله لى ويسقط فى نصف اللاوعى وكيف أتصرف؟ هل سيأتى الدور على ؟ على الفور توجهت إلى منزلى ، ولزمت الفراش ، كنت ارتعد ، وأسنانى تصطك ، جاء الطبيب ، وجلست أمى

بجانب رأسى ، وتظاهرت (شطفة) بالإهتمام الزائد ، امتلأ بيتى بالزوار ، قال الطبيب: اطمئنوا حرارتة عادية إنه لا يعانى من شئ محدد.

سألنى الطبيب: بماذا تشعر يا سيد سرحان؟

كنت أشعر بالخوف ..ابلغته بهمود فى كل أعضاء جسمى ، كتب فى الروشتة أسماء بعض المقويات والفيتامينات ، مكثت أسبوعا لا أغادر الفراش ، أشرب الدواء وتنغرس الإبر فى عضلاتى مستمتعا باهتمام زوجتى وأمى وشقيقتى وزوجها ،وبعض الأقارب والجيران حتى (المعلم فرهود) . جاءنى وحمل إلى أكياس الفاكهة وكان معه عبدالحميد البهتيمى وسلامة البحطيطى ، سر بهما زوج شقيقتى يونس حسان .

المحل أبيع فيه العلافة بالجملة، بالإضافة إلى البلح الجاف والفول السودانى والخروب فى المناسبات" .

توكأت على هذا المرض أمام من يعرفون علاقتى الوطيدة بمحمود الرملى – حتى عاد محمود بعد تسعة أشهر – تقبل عذرى ، استشهدت بالعمال الثلاثة الذين يعملون فى المحل.وذكرت جيران العمل والمنزل ، بأننى كنت مريضا وملازما للفراش(أليس كذلك يا فلان) كنت أريد أن أثبت عكس ما فعلت .

ومحمود لا يعلق،وقلت: ولكن ماكدت أشفى حتى علمت أنهم رحلوك إلى (المعتقل) وخشيت الإتصال بأحد ، أو الذهاب إلى أهلك لمواساتهم ، لإحساسى بأنهم مراقبون – أنت تقدر الظروف بالطبع يا محمود ..

وأكد عم برهوم تلك الأقوال – وهو رجل تجاوز الستين وكان يعمل منذ زمن طويل مع والدى – وقد جعلته يقسم – أننى كنت مريضا بالفعل ، ثم أضفت فوق ذلك.بأن المدة التى لزمت فيها الفراش ولم أغادر حجرة النوم

تزيد عن شهر ونصف - عم برهوم حدجنى بنظرة طويلة ، ولكنه لم يقل شيئا- كذبة لونتها باللون الأبيض - لم يدقق محمود ، كما أنه لم يطلب منى تحديد مدة المرض. وبعدها ، خشيت أن يكتشف أننى لم أمكث فى البيت إلا أسبوعا واحداً، لماذا أضفت هذه الإضافة ؟ هل كنت لا أزال هاربا فى الداخل ، ولماذا أواصل الهروب ، رغم أنه لا يوجد ما يهددنى ؟ يعلم الجميع بمن فيهم رجال الأمن الأفاضل ، بأن محمود الرملى (سياسى) وأنا وإن كنت صديقه- فهم، يعرفون قطعا أنى - أغرق فى شبر ماء -إذا ما احتدمت المناقشات بينه وبين زملائه ،حتى أننى وقد لازمته فى كثير من المناقشات لم ينعكس على تفكيرى شئ منها ذو بال ،كانوا يحتدمون، وأنا بينهم أتساءل فى نفسى ، لماذا يتنازعون ؟ لماذا يتحدثون بهذا الحماس الذى يتخلله تدخين عشرات اللفافات أو الشيشات بالإضافة إلى فناجين القهوة وأكواب الشاى ، ولاهم باشوات كانوا يحكمون ، ولا هم ضباط سيطروا على الأوضاع ليلة ٢٣ يوليو، وخرجت المظاهرات لتأييدهم ، حارقين قلوبهم وواجعين حلوقهم لماذا؟ - لكن الأمر كان لا يخلو من متعة بالنسبة لى.كان يملأ الخواء فى حياتى، وصرت استمتع بأن أرى محمود - وكأنى أشارك فى إحدى المباريات - يكتسح المعارضين ويلقمهم ألسنتهم وأن أكون أنا السبورة التى يعيد عليها تشكيل وترتيب أفكاره، وأشعر بالزهو، إذ يقال محمود وسرحان كانوا هنا .وقالوا كذا .وعملوا كيت، ومن يطلب محمود يدق تليفونى، أو يأتى لمقابلتى فى المحل ، "تجارة العلافة بالجملة بها وقت فراغ طويل، العمال يغربلون الغلال ، أو يحملون العربات بالأجولة مرة أو مرتين فى اليوم ، ماذا أفعل وليس لى هواية القراءة ،أو أى هواية أخرى إلا مشاهدة الأفلام . إنها ثقافتى السماعية .كما أننى لا أتقن مثله كتابة

المسرحيات والمذكرات والإنشغال مع الفنانين، وكنت إذا ذهبت معه إلى بروفات الفرقة، أنشغل بالتطلع المختلس إلى سيقان البنات والسيدات أو إلى وجوههن وصدروهن وتسريحاتهن ، أطلق نظرات طويلة ساهمة، يعتقدون لطول صمتى ،أنى فنان مثلهم ، يرحبون بى ، على مدد أبو حنفى ، ويحدثوننى عن مدارس الفن ، واكتفى بالإبتسام وهز الرأس ، وربما قلت (معقول ... ياسلام شئ رائع) حتى يتدخل صاحبى...

لذا فقد كان محمود بالنسبة لى - اللحظات التى ترقص وتتوثب - الساعات التى تمسح آلام نفسى وتشعرنى بكيانى ، رغم أنى كنت أعرف موقعى من المجال الثقافى، ولكنى كنت سعيداً بأننى موجود بنفس الصفحة التى بها محمود ومعارفه !

وبقيت سعيدا لفترة طويلة - فيما بعد زاد غضبى على نفسى لذلك الكذب الذى أهرب به من التزاماتى، نقود - أدفع أجور الثلاثة من العمال لهم أولاد فى المدارس ، مشاركة لم أفعل ، والجميع يروننا دائما معا ويعاملوننا على اننا صديقيين حميمين برغم أننى ، لا أحمل آراء سياسية ، وليس لى موقف محدد من شئ- ومعاركى الشخصية ،أسويها سلميا بشروط شطفة زوجتى ... !

لماذا أزيد الطين بلة-وأدعى أن مرضى استغرق شهرا ونصف ، وأنا كالحصان أمامه وهو الصديق الذى يتسم بالصراحة والوضوح ؟

أخضعت نفسى لمحاكمة ذات جلسات متعددة ، ووجهت لنفسى الإتهامات وبرغم أننى حاولت أن أتعاطف مع الدفاع ، إلا أن الدفاع فى النهاية اعتمد على مادة (الرأفه بالمتهم) ومراعاة ظروفه الشخصية . و ممثل الإدعاء

كان بليغا وهو يؤكد على تضحيات محمود، وإنكار ذاته دائما، وصدره الواسع الذى يتسع لكل هذه التفاهات ..!

قال:بما أنه الصديق الذى يجده اصدقاءه ساعة الشدة، يقضى شئونهم، ويفكر فى حلول لمشاكلهم، حتى أصبحت العادة أن يأخذوا منه بصفة دائمة ويوأجهوا له اللوم إذا قصر فى الإستجابة لهم بسرعته المعهودة" !!

"اعتمد دفاعى على ذلك العطاء الذى بلا حدود و طالب بأن يستمر هذا العطاء الذى أمسى واجبا على (محمود الرملى) نحو أصدقائه ، متعللا ، بأن محمود ذاته هو السبب ، هو الذى ، عوّد الأصدقاء على العطاء ولابد أن يقوم بتنفيذ شروط الصداقة" ، كما يجب، فى زمن لا يعرف الواجب، فحق عليه الإستمرار فى الطريق الذى اختار السير فيه بمحض إرادته . وحكمت المحكمة ،بأن أعوضه عن هذا التقصير، وأن اتمثل أعماله،وأحاول تقليده ، إن أمكن (ومن الحيثيات) فقرة تقول (:من النادر العثور على صديق مخلص بين أكوام المعارف والزملاء والجيران . ولكل مصالحة التى تجعله كالوتد لا يمكن نزعه منها بسهولة .)

***

اقتربت من محمود اكثر ، ولاحقته بالسؤال عن أحواله الشخصية.تلك الاحوال الذى لا يتحدث عنها كثيراً.وإذا بى أفاجأ بأن (محمود) يكاد يكون شبه عاطل عن العمل ، بعد استبعاده من التعامل مع الجمهور بوزارة القوى العاملة على أثر حبسه والإفراج عنه وتم وضعه على الرف بالإدارة العامة ، وعندما احتج، تم وقفه لحين انتهاء التحقيق معه مع صرف نصف راتب ، ولم يعجلوا بإنهاء التحقيق ، وأن شقيقه الكبير قد تزوج بعد وفاة والدته فى نفس مسكن العائلة.وجعل عمه الذى أشرف على تربيتهما.يحدثه

عن ضيق المسكن وما يسببه وجوده من إحراج لزوجة شقيقه ، وذلك ، بناء على شكوى من أهلها ، وأنه من الضرورى أن يبحث لنفسه عن مسكن يناسبه.فأقام مع زميل له فى منزل قديم بشارع صريع الغوانى خلف سينما باكوس، واطلعت على تطور علاقته بزميلته (فتحية) الموظفة معه بوزارة العمل ، ولماذا لا يفكر فى الزواج منها وقد تعثرت أحوالهولعله صرف النظر عن ذلك. ولكنها كانت لا تزال تطلب لقاءه ، وعندما استمر فى التهرب ،حضرت إلى (المحل) وبالمصادفة،كان محمود متواجدا معى وأتحت لهما فرصة للحديث والعتاب، وتصفية ما بينهما ، فتحية من أسرة ميسورة الحال ، لها شقيق يعمل مهندس ديكور فى إيطاليا ، أما هى، فتعيش مع والدتها فى (ڤيلا راجى) بجليم، ڤيلا تتسم بالعز القديم ، ولوالدتها معاش والدها الذى كان يعمل بالسلك الدبلوماسى وتجارة القطن . (توحة)على قسط وافر من الجمال واللباقة مثل محمود ، وتقدر ظروفه.وتحاول أن تدفعه للتغلب عليها ، ولكنه كان يرى (أن الذى يحب لا يجب أن يكون أنانيا ومستقبله غير مضمون ولو يحاول تعميق العاطفة،حتى لا يجذب حبيبته إلى التعاسة) .

قلت منفعلا : مغفل ..الحب هو الأنانية ذاتها ، والمستقبل فى علم الغيب ، ولن يعقلك سوى الزواج .

قال مازحا : لأجل ذلك أنا لا أريد الزواج فى الوقت الراهن.

قلت له وأنا أحسده على حب (توحة) .

- بصراحة : خسارة أن ترتبط فتاة شيك وذوق مثل فتحية راجى بشخص مثلك ، عين الحب عمياء!

وكنت أريد أن أقول : كم أتمنى أن تكون لى فتاة مهذبة وأنيقة مثلها .

وقلت: هذه الفتاة إذا طلبت مني لبن العصفور لسافرت وراء الشمس لإحضاره لها .. !

قال محمود: اسكت يا حسان ،الحيطة لها آذان ، لابد وأن زوجتك قد جندت أحد عمالك تستقى منه أخبارك، وعندما يبلغها أن – أمرأة جميلة قد زارتك فى المحل ، سأنكر أنها فتحية صديقتى.

و محمود يعرف أن شطفة تعمل من الحبة قبة ، إلا أن ثقتى فى محمود أنه لن يفعل ذلك حتى من باب الهزل !

ضغطت عليه أن يوافق (فتحية) على مقترحاتها ..قال :

– ياسيدنا .. انها تطلب إعلان الخطوبة .ومقابلة أمها وخالها ..أنت لاتعرف السيدة والدتها، إنها سيدة أعمال ،ستكتشف من النظرة الأولى أن لا و رائى ولا أمامى ، وأننى يارب كما خلقتنى ، حتى ملابسى تركتها لأخى ...و....

كان يقاوم، وأنا أعلم مقدار حبه لفتحية . وفى حالة كرم أثناء لقاء آخر ،لعلها موروثة من والدتى ،أو والدى الذى لم يكن تاجرا شاطرا ..قلت : لا تعقد المسائل يامحمود ..أنا على أتم استعداد لأن أقرضك خمسمائة جنيه

صدرت آهة من (فتحية) وأخذت تنظر إلى محمود الذى فغر فاه وصفر بفمه وقال.

– هذا مبلغ جسيم يا سرحان ...كيف أسدده لك ؟

كان المبلغ جسيما بالفعل . فقد كان الشائع فى باكوس أن (مهر)العروسة من أربعين إلى خمسين جنيها فى ذلك الوقت.و قلت وأنا تحت تأثير حالة خاصة:

- أنا لست فى حاجة إلى هذه النقود الآن ، سنة، اثنين. ثلاث ، نحن أصدقاء ،وهذا واجبى نحو صديق منحنى ثقته دائما..

قال: ولكنها ثروة يا سرحان وأنا أعرف ظروفك .

قلت: لاتعرف كل شئ عنى ، لى أسرارى ،التى أحفظها بعيدا عن شطفة وأولادها.

قال: ولكنى لا استطيع أن أقترض نصف رأسمالك لأتزوج به :

قلت: هذه نقود زائدة عن حاجتى الآن ، وعندما تنتظم فى عملك تسدد لى قسطا شهريا تستطيع أن تقتطعه من راتبك وراتب فتحية .

قال بعد تردد: ... يا سرحان ..أنت الآن من المؤكد سرحان ، أرجو أن تفيق وأنت تعرض هذا العرض.

قلت : اشتر الشبكة بمائة جنيه وادفع مهرا مائتان- يتبقى ما ئتان ترصدها لمصاريف الفرح، ومصاريف شهر العسل،ما رأيك ؟

قال: الذى يرفض هذا العرض سيندم عليه طوال عمره ، ولكنى لا استطيع قبوله ،ففى الوقت الذى ستندم فيه أنت .لن يكون باستطاعتى أن أرد لك مليما واحدا من هذا المبلغ!

قلت فى إصرار: لن أندم ..

وجلس محمود يفكر قليلاووضعت فتحية يدها على ظهر يده -ولكنه بعد تفكير سألنى :

- والمقابل ياسرحان .. إذا كنت لم تفكر فى المقابل .فقد أشك فى (تحليلاتى) السابقة واللاحقة. قلت على الفور :

- المقابل ..أن نبقى أصدقاء ، دائما أصدقاء ..وتغفر لى هفواتى.

قال: وهل أنا قصرت ...هى الظروف الجبرية التى تبعدنا ؟

أمسكت يده ووضعت فيها رزمة النقود ، وضغطت على أصابعه بكلتا يدى أن يمسك بها وأنا أقول :

- أنت لم تقصر يامحمود ..ولكن أنا الذى قصرت .

تطلع إلى مستقهما فاستطردت قائلا :

- اعفنى من التفاصيل

قال : لا أسرار بين الأصدقاء ، حتى إذا أخطأ أحدهم ..هذا يعمق الصداقة ولا يقطعها.

قلت فى استحياء: أنا لم أكن مريضا لشهر ونصف ، أنا كنت مريضا لمدة أسبوع واحد ..فى الحقيقة ..كنت خائفا و أنا لم أتصور نفسى سجينا ، يغلق عليه باب زنزانة ضيقة ، مجرد التفكير فى هذا يجعلنى أشعر بالإختناق. أطرق محمود قليلا ، بينما كانت فتحية صامتة تتأمل الموقف الجديد ..ثم وضع محمود أمامى على سطح المكتب ،الأوراق النقدية، وقد أمسك بورقة يتأمل نقوشها ،وقال:

- كان يجب أن تقول هذا قبل أن تضع فى يدى هذه الاوراق.

قلت: ماذا كنت ستفعل ؟

قال وهو يضحك .

- كنت ضحكت منك يا مغفل ، هل تعتقد أنى سأكون مسرورا بالقبض على أصدقائى ، الدور الحقيقى للسياسى ليس فى السجن ، والأصدقاء الذين يرتبط بهم يجب أن يكونوا أحرارا خارج الأسوار وليس بداخله ،حتى يكونوا نافعين له ..من حقك أن تختبئ ..ومن حقك أن تنكر علاقتك بى . بعض الذين يعانون من المراهقة اليسارية ، هم الذين يسعون إلى السجون والمعتقلات، فى ظنهم أنهم يكتبون بذلك تاريخهم. وهم فى الواقع

يحرقون ذلك التاريخ ، فى بلدنا ينفر البسطاء من المسجونين ،ولا يفرقون بين جريمة عادية وسياسية ، السياسى إذا فقد مجاله بين الناس البسطاء، ليس أمامه سوى المثقفين ، وهم ليسوا فى حاجة ماسة إلى (فلسفته) ..أنت لم تفعل شيئا يستحق تأنيب الضمير ، ثم تقدر ماحدث بخمسمائة جنيه، يابلاش ،تترك نقودك لتسقط فى بئر دون قرار ،راجع نفسك تستطيع الآن أن تسترد نقودك وأنت مرتاح الضمير ..فما رأيك ؟

وأزاح النقود نحوى . ترددت فى تناولها من فوق المكتب فقال :

– هذه صفقة ..أنت الخاسر فيها .خذ نقودك ولا تتردد . لن يغير هذا من الأمر شيئا.أنا أعرفك تمام المعرفة ياسرحان – حتى أنى أعرف الآن فيما تفكر .

قلت على الفور :

حسنا ..فيما أفكر الآن يا محمود ؟

قال ضاحكا :

– إنك تفكر الآن فى اقتسام المبلغ .تعطينى مائتين وخمسين وتشترط سدادها على خمسة وعشرين قسطا ويكون الضامن لى (فتحية) بصفتها الوظيفية ، وقد تقترح كتابة كمبيالات ، وسوف تذكر عدة مرات . أنك لم تضف الفوائد . لصداقتنا الوطيدة، على أساس أن تعاوننى فى الزواج وندبر أنفسنا فى باقى المصاريف.

ضربت كفا بكف وأنا أدير وجهى بعيدا ، حتى لا يواصل قراءة ما فى ذهنى، كان ذلك قد دار فى رأسى دورة سريعة خاطفة كالبرق ، عندما فرغ محمود من حديثه الذى نزح به رواسب كانت فى نفسى ،وألقى بها بعيدا

كنت أفكر ، كيف فكك هذه اللمحة الخاطفة التى لم أقبض عليها عند مرورها السريع، إلى هذا المقال ؟

أقتسمنا الخمسمائة جنيه .الآنسة فتحيـة أخذت تشكرنى وتتعهد بدفع القسط فى حينه ،وذكرت بأن أهلها يهتمون بالبداية وأن تكون الخطبة لائقة، ثم بعد ذلك سيختلف الوضع - وعادت وأكدت أنها اعتبارا من الشهر التالى بعد الزواج سوف ...

وأفلت لسانى ..إذ قلت بدون إرادة منى :

-الفوائد ستكون هدية منى لكما . .

فأنفجرا ضاحكين ..احتضن كل منهما الآخر من شدة الضحك ، فوقفت مشدوها وأنا أهفو إلى أن يلامس صدرى صدرها ، وأملأ أنفى بعطرها الياسمينى . . . (لك الله يا والدى ، شطفة السياجى ، السمك المشوى وسلطة بالبصل وعندما تضع رأسها على الوسادة ، شخيرها يبدد النعاس من جفونى وعمها فتوة باكوس فرهود الصانت ،انظر يا أبى - يامن كنت معجبا بشطفة السياجى - من عالمك - إلى نوع النساء الرقيقات الجميلات فتحية أخوها مهندس فى ايطاليا والأب كان دبلوماسيا ، من ذلك الصنف الذى يتكلم همسا ..لا يشج رؤوس الناس بالنبوت فى باكوس ، ثم يضرب رأسه فى الجدار ويشجه ويجرى إلى نقطة البوليس ،هل استطيع مهما فعلت أن أتخلص منها - الذباب الأزرق سيتوه عن العثور على مكانى ، تهمة وألبستنى إياها.، لو كنت بالفعل قد ارتكبت التهمة لأفرجوا عنى بمناسبة أعياد الثورة..!"

كنت اعطلهما فى المحل ، بحجة أن المشروب البارد فى الطريق ، لأطول فترة ممكنة ، وأنا أشعر بابتهاج شديد ، لوجود الآنسة فتحية راجى ، سلمت

علىَ بحرارة ، وامسكت يدى بكلتا يديها تشكرنى ، فوضعت يدى الأخرى على ظهر يدها الحريرية ، رقيقة وناعمة ، دافئة وطرية ، ولما مشيا شممت يدى ،كانت عطرة ، وليس بها أثر للثوم أو رائحة صابون المواعين ،بقيت فترة طويلة أشعر بلمس يديها ليدى ، وهى تضغط ممتنة . !

•••

ليلة الخطوبة أحضرت معى شطفة والأولاد ، ذوق شطفة كان صارخا فى انتقاء ألوان ملابس الأولاد ، كما أنها ارتدت فستانها القطيفة المنقوش بالورد الأحمر ، ووضعت كل مصاغها فى يديها وعنقها وصدرها ، لو كنت مكان سائق التاكسى الذى نقلنا من باكوس إلى جليم، لفكرت فى خطفها للإستيلاء على هذا الكنز الذى جاء معظمه من (الجمعيات) التى أرغم على دفع أقساطها ،

وجلست شطفة بين المعازيم فى ردهة الفيلا : المعازيم يتبارون فى الأناقة والبساطة ، فكانت محط أنظار الجميع ، وظهر الفارق واضحا بين باكوس وجليمونوبولو ..الأنسه فتحية برغم أنها تجاوزت الثامنة والعشرين يخال لمن يراها أنها توا قفزت من (غلاف) مجلة باريسية تعنى بالجمال والموضة (شطفة) شعرت بالفرق فازداد انتفاخ أوداجها ، كما أن وجهها ازداد حمرة .وفتحية ووالدتها وكذلك محمود وخال العروس يرحبون بنا بصفة خاصة ويقدمنى محمود إلى أهل العروس على أنى ولى أمره،وصديقه الحميم،ويترك لى هذا الدور، فيغرقوننا فى كلمات الترحيب،وشطفة ترد من أنفها . تعتقد أن هكذا يتكلم أولاد الذوات، فجأة اخنفت بدون مبرر.

عندما عزفت موسيقى الأسطوانة، سبق العروس عطرها ،وهى تأتى إلينا فى قمة نشوتها وسعادتها،و قالت لى بدلال وهى تضحك فى وجه زوجتى :

-أستاذ سرحان، اسمح لك بالرقصة الأولى بصفتك ولى أمر خطيبى .

دمدمت شطفة وتعكر مزاجها ..بخبرتى استطيع أن أشعر بحالتها ، وهى تنظر إلى وقد ابتلعت شفتيها ، قمت مسحورا ، وأنا لا أعرف كيف يرقصون ، ولكنى كنت انساب معها كأنى ريشة فى مهب الريح ، كل ما كنت احفظه من الأفلام حاولت تطبيقه، يد خلف الظهر، واليد الأخرى كانت فى كفها المعلق ،وبينى وبينها المسافة الواجبة ، ورحنا نتحرك ببطء ، ثلاث دقائق أو أكثر وتوقفت عندما أحاط بى الراقصون ، ثم جاء العريس وتسلم عروسه ، فاذا بى ، برغبة داخلية عارمة ، اميل عل جبهتها وأطبع قبلة ، عندما رفعت وجهها فجأة استقرت على وجنتها ، شفتى لمست خدها الحريرى، وتضاحكنا .وعدت إلى مكانى متراجعا ، جذبتنى شطفة من ذيل الجاكتة فأجلستنى على المقعد دفعة واحدة ، ثم هبت واقفة وقالت وهى تجمع عيالها :

- انا تعبانة ، رجعنى البيت ..

بدأت المتاعب فقلت همسا :

- عيب يا شطفة ، نكون نحن أول من يغادر الحفل الذى بدأ منذ قليل ..محمود صديقى، وأهل العروس ، والعروس ، يتمسكون ببقائنا .

ولكنها كانت لا تزال تدمدم .. حاولت بقدر ما أستطيع أن أجعل الأمر يبدو عاديا ،وهى قد بدأت تدفع الأولاد فى ظهورهم ، وغادرنا الحفل ، عدنا من جليم الى باكوس ..!

ماكادت شطفة تدلف من باب البيت حتى دفعتنى أمامها وأطلقت العنان للسانها ، لم يكن عتابا ، كان شجارا وصراخا ، وقفت أمى بيننا تحاول تهدئتها ، بلا جدوى ، وهبطت روحية شقيقتى وزوجها من الدور العلوى

يحاولان معرفة أسباب ثورة شطفة ، نهرتهم جميعا ،ولم تصرح بأى (سبب) لثورتها ، واقسمت برأس عمها فرهود (أن الصباح رباح) وفى حدة طلبت من الذين حضروا.أن ينصرفوا ،كل منهم إلى حال سبيله ، فأطاعوا بلا جدال .

بينما يونس حسان زوج شقيقتى ، ضغط على ساعدى ، بمعنى امسك اعصابك ، وروحية غمزت لى بعينها وبرمت اصابعها عند صدغها. بمعنى (امرأتك مجنونة .. تحمل) وامى ارسلت إلىّ بتلك النظرات المحملة، وقالت وهى تمشى إلى غرفتها فى بطء وكأنها تمشى فى جنازة .

- تصبحوا على خير ..

وكأن(تصبحوا على خير)هى كلمة السر ، لتضغط شطفة زر المفجر..

" من أين يأتى الخير يا أم سرحان، هل يأتى من العين الفارغة ..أم يأتى من الذى جعلنى مُسخة بين المعازيم .."

وسحبتها إلى حجرة نومنا ،فقاومت مقاومة شكلية ... !

***

وعندما أصبحنا وحدنا، اندفعت إلى غرفة النوم ، دخلتها واغلقت الباب بشدة خلفها دونى، وهى تواصل إطلاق موشحاتها .. .

"وتضحك علىّ وتقول فرَح صاحبى محمود ، وتقعدنى قرد قاطع ، ولا حته جاتوه ولا كباية مية ساقعة ، ولا أحد بيغنى ولا عوالم ترقص - فالحين تحضنو فى بعض ..ناس دمهم بارد ..ساقع، كيف يترك خطيبته لصاحبه يحضن فيها ..! " واقول لها من خلف الباب :

-كانوا عاملين بوفيه .. انت الذى ركبك عفريت ولم تصبرى

ترد: ياشيخ بلا نيله عليك وعلى أصحابك ، وكمان البنت قليلة الادب ، تاخذك من ايدك – وانت زى الشخشيخة فى ايدها، وتحضنك قدام عريسها ،دم ايه دا يا أخواتى ..هى جوازة شرك؟ طيب يا سرحان ،إن ما طلعت هذا كله على جتتك بلاء أزرق ..!

أحاول أن أجعلها تهدأ فأتحدث اليها بصوت خفيض

-ياشيخة حرام عليك. كفوى فضائح .. !

يزداد صوتها احتداماً

– ما الذى يعجبك فى المفاعيص، الواحدة ممصوصة و مروهقة وروحها ستطلع من عينها، الواحدة منهم حاطة على رأسها كوم شعر ..كله عيرة ..حاكم فيه ناس عينهم فارغة ، و......

اخذت تلعن اليوم الذى جاء بها الى هذا البيت ، الذى لم تر فيه يوم يسعدها كنت قد اعتدت على ثوراتها ..وكنت منذ عدة سنوات لا أنام قبل أن اصالحها وأطيب خاطرها – وربما جمعنا الفراش إلى ساعة متأخرة من الليل ..ولكن فى الآونة الأخيرة اعتدت أن أتجاهلها .. وأنام فى الصالون.

ولكنى انشغلت بالتفكير فى المعلم فرهود الصانت (فتوة) باكوس الذى اتجنبه ولا ارغب أن يناقشنى فى أى شئ ..معه اشعر بأننى سوف أقف فى الجانب المضاد، حتى إذا انتقل هو إلى صفى وغلبنى النعاس بعد أن اشعلت عدد من اللفافات وشربت كوب شاى صنعته لنفسى ، وهدأ البيت واستمعت إلى أذان الفجر

زينب أكبر العيالى فى الثامنة ..خرجت من غرفتها وبين يديها ملاءة غطتنى بها، كنت مستيقظا ومع ذلك تناومت ولم احرك ساكناً ,

قالت : إنت نمت يا بابا ... ؟

لم أرد ..انسحبت إلى غرفتها ..بعـد أن ربتت علـى كتفـى. تنـازعتنى عـدة مشاعر متناقضة . وعندمـا تذكـرت (فرهـود) شـعرت بـالضيق حتـى غلبنـى النعاس. . .

•••

نوال .. الحب الحقيقى فى حياتى .. الكيـان المجسـم للرقـة دائمـا تخطـر فـى خيالى، استدعيها عند الضرورة لتخفف ضيقى. كانت تلميذة فى المدرسـة الثانويـة،وكـانت تحمـل حقيبتهـا علـى صدرهـا ،وشـعرها فـى ضفـيرتين قصيرتين معقودتين بشريط أبيض، لم تكن مثيرة،ولكن كانت لهـا تلك الرقـة الملائكية، معها، كنـت أشـعر بقوتـى ورجولتـى ، تمنيتهـا لنفسـى،وسـهرت الليالى أفكر فيها، ولمْ أحصل عليهـا ، فاختزنتهـا بداخلـى ، كنـا نتقـابل فـى المواعيد المضروبة على محطة ترام (صفر) نمشى متجاورين حتى محطـة (شدس) أحيانا نمشى ولا نتحدث. كـانت تملأنـى بالبهجـة، وتحكـى لـى عن قصص الحب التـى تقرأهـا، والأفـلام التـى تشـاهدها، ويومـا طلبـت منـى أن أكتب لها رسالة غرام ..!

قلت لها : لكن ماذا أكتب ، ونحن نتقابل وقتما نشاء..؟

قالت : حدثنى عن مشاعرك نحوى .. بماذا تشعر ؟

قلت : أحبك ، .يا نوال تعرفين ذلك . سأكتب هذه العبارة وتنتهى الرسالة .

قالت : قل هذا فى الخطاب ..!

قلت : وهل ستردين على برسالة ؟

هزت رأسها بالموافقة، وأسـرعت تسـبقنى بعـدة خطـوات ،لا تريـد أن أشـاهد عينيها. ولكنى كنت أخشى أن يقع الخطاب الذى سـأكتبه فـى يـد والـدى كمـا

أننى لم أكن متفرغا حتى أجلس وأكتب .والدى كان يرسلنى لقضاء أعماله فأقابل نوال، وعندما يسألنى عن سبب التأخير ، أختلق له حكاية

" الحاج جوده ..كان يصلى وانتظرته "

– يصلى ، ماذا يصلى ..الحاج جودة عمره ما ركعها ..إنه لا يعرف قراءة الفاتحة .

– كان يصلى المغرب

–أى مغرب هذا ياولد ..هل أصابك خبل، .. العصر فات منذ قليل

–أقصد العصر يا أبى

مع نوال أنسى نفسى – يعود والدى يعاتبنى فأقول :

– أصل بطنى فركت على وانعطفت على البيت أقضى حاجتى

يقول والدى – لكن أنا قادم حالا من البيت، قل كلام غير هذا ؟!

أقصد بيت (الأدب) فى الجامع·أى والله يا أبى ..فى الجامع .."

و جلست لأكتب لنوال رسالة غرام ، مكثت ساعة أفكر·ومزقت عشرات الرسائل·حتى فتح الله على بخمسة أسطر، قلت فيهم بعد الإعتراف بحبى لها، أنا فى غاية الشوق لمقابلتك يوم الخميس الساعة خمسة.

فَرِحت نوال برسالتى لها وقرأتها عدة مرات ثم سألتنى – لماذا يوم الخميس الساعة الخامسة بالذات ؟

قلت لها،هكذا يكون موعد المحبين.وأبلغتنى أنها لا تستطيع لقائى إلا بعد مواعيد المدرسة فى حدود الساعة الثانية ، أما يوم الخميس فهى تعود بسرعة لأنه يوم الذهاب إلى السينما مع والدها، شعرت بالإكتئاب،وقد فشلت فى الحصول على الموعد كما جاء فى أغنية ليلى مراد، لكنها وعدتنى بلقاء الساعة الخامسة ..يوم الإثنين .. ووافقت على الفور •

مع نوال كان قلبى يتلعثم، وفمى يطبق على نبضاته التى تدوى بداخلى.وانا أسير بجانبها على مبعده نصف متر ، نرقب المارين حولنا حتى لا يرانا من يعرفنا ،واذا مررنا بالقرب من (المحل) يركبنى عفريت، وعندما اعود يصيح والدى فى وجهى"ماذا بك يا ولد لنسيت على بعضك ؟

أقول :المغص يا أبى ؟

-ما حكاية المغص هذا ،لابد وأن تعرض على طبيب ..

ويأخذنى من يدى ويذهب بى إلى طبيب أجزاخانة الإنسانية، الصيدلى أجبرنى على تجرع فنجان من خرج النعناع ، وتركنى أذهب إلى البيت لأكون بجانب دورة المياه..!

ولكنى ذهبت أبحث عن نوال فى السوق.وأحمل عنها شنطة الخضار.وكنت أتمنى الزواج من نوال، كان هذا حلمى الذىأستعيده طوال الوقت ،ولم أتصور يوما أنى سأتزوج غيرها ،وتزوجتها مرارا.وأنجبت منها جيشا من البنات والصبيان.وغنت لى أغانى شادية لكمال الشناوىوليلى مراد لأنور وجدى، ورغم أن روحى كانت تتعلق بنوال.لم اتصورها معى عارية فى الفراش، خيالى لم يكن يسمح بهذا مطلقاً.وكنت أحسد الذين يعيشون معها ، وكنت أحبهم بشدة ، أمها التى كانت نوال صورة طبق الأصل منها ، كنت أراها فيها عندما تمر السنوات ويشيب شعرها ، والدها- عم حلمى - موظف الشئون الإجتماعية.الذى يتحدث مع الناس همسا ، وعندما يسلم على أحد الجيران يحنى رأسه ويقوس ظهره كأنه على وشك تقبيل اليد الممدودة إليه، رغم أدبه الجم ، لم يسلم من جبروت والدى (عبدالعال الحاجولى) ، طاله يوما ، وكال له الشتائم بالكيلة ، كان لوالدى - رحمه الله - تلك الإندفاعة المتهورة لأولاد البلد الذين يدورون فى دائرة الحياة المغلقة ،

يتصارعون تحت ضغط الظروف والجهل من الباب للطاق ، عندما يريد فرض سيادته أو كلمته على الآخر ، يتشاجر أولا ، ثم يبحث بعد ذلك عن السبب ، وبعد تحطيم وتهشيم كرامة الذى أوقعه سوء طالعه أمامه، يحاول جمع الأجزاء التى تناثرت و يحاول أن يصحح ما تكسر بأى طريقة!.

انكمش (عم حلمى) مذعورًا ، أمام هجوم والدى المباغت ، تفتت وأخذ يجمع فتات كرامته ويتساءل عن سبب غضب الحاج عبدالعال العلاف عليه، دون أن يدوس له على طرف ، كان والدى قد تشكك بأن الرجل الوافد على (الحتة) لا يعرف قدره ، أو يستهين به، هكذا خيل له !

أخذت صف عم حلمى دون أن أغادر مكانى داخل المحل ، لم يستطع الحاج عبدالعال ضربه ، عندما رفع أصبعه النحيل فى وجه والدى وصاح فيه - عيب ياحاج ..البلد فيها حكومة والدنيا ليست سائبة - وكأن الدنيا انطبقت على رأس الحاج عبدالعال .. ركبه العصبى ..وعدد من الجيران يهدئون ثائرته ، خشيت أن قلت شيئا فى صف أبو نوال ..يحط جام غضبه المكبوت فى جسدى ." ما عليك ياأبو نوال .دائما الطوبة تعثر فى المعطوبة ، والدى لا يعرفك ، كما أعرفك أنا ، وفيما بعد ، طيب والدى خاطره بكلمتين وتقبل عم حلمى الكلمتين على أنهما اعتذار ، ولما شرع والدى ، فى خطوبة شطفة لى لأجل خاطر - صاحبه فرهود - تجرأت وتحدثت مع أمى عن نوال ،كنت أقاوم وأنا أتمثل ما حدث لجمال ابن عم محمد عثمان.

قلت : أنا احب نوال يا أمى

قالت: يانهار أزرق، لكن الحاج خطب لك شطفة وتكلم عليها خلاص.

قلت : انا لا أرغب فى الزواج من شطفة ، شباب الحتة يعاكسونها وهى تقف وتردح لهم وتتبادل معهم القافية ..!

قالت: أيم كان زمان ...صغيرة وعقلت !

قلت: لكن يا أمي ..عمرى ما فكرت فيها ..

قالت : شطفة فرز عينى ، وبكره تربرب وتبقى ست جميلة وحلوة ..انظر إلى كعبيها مثل الريال السلطانى!

قلت : أنا أحب نوال بنت عم حلمى وهى تحبنى .

دبت على صدرها الصغير .بيدها البيضاء الصغيرة ..وقالت :

– هذه قلة أدب ياسرحان ..وبعد ..أبوك أعطى كلمة خلاص .هل تكسر كلامه من أجل بنت حلمى ..الذى لا نعرف له أصل ولا فصل – إنهم من بتوع (البلد) ياضنايا ، وتقليد الخواجات على الموضة ..كما أن حلمى هذا ..وقف فى صدر والدك وتشاجر معه وفرج عليه الدنيا !

قلت: الرجل لم يكن مخطئا ، لم ينطق بكلمة قبيحة وأنا كنت موجود من أول إلى آخر العركة!

قالت: أليس هذا هو حلمى ..الذى جعل والدك .ليلة بطولها يغلى ؟

قلت: والله العظيم، الحاج .. كان .وكان..

قالت: اسكت ياسرحان .. والدك يسمعك يقطع لسانك ، إن كنت تريد أن تصغره قدام الناس، افعل ما بدالك ...

•••

كان جمال ابن عم محمد عتمان – قد بدأ رحلة الصعلكة خالى الوفاض، ولم أشأ أن أقلده ،كما أننى لم أقدر على مخالفة الحاج الحاجولى ..فكان الفراق بينى وبين نوال وكتبوا كتابى على شطفة ،وجمع والدى فى ليلة الحِنْة – النقوط – الحفل كان متواضعا ، كان الناس فى (فرحنا) يتحدثون عن فرح أقامه القنط (المعلم فرهود) لطهور ابنه – كانت النقود التى جمعها والدى

- كما سمعت - آخر ما له عند الناس ، وكأن الناس قد دفعوا له ثمن أياديه البيضاء عليهم - فحرروا رقابهم منه، منذ ذلك (القَرح) ، لم يعد الحاج عبد العال الحاجولى (سَيد الحتة) ، وانتقل ولاء الناس الى (فرهود الصانت) الذى جعل من مقهاه فى قلب سوق باكوس ، ملتقى رجال (الحتة) يشاركهم أحزانهم ومسراتهم ويفض منازعاتهم ويجتمع بطالبى الصلح والتفاوض مع الخصوم.. وما أكثر مشاكل الناس فى باكوس ..

***

(عندما يفلس الخواجة ينظر فى دفاتره القديمة)، يسخرون من والدى وقد فتح دفاتره القديمة، أما (فرهود) فقد كان يعطى بلا حساب ، ويفض المنازعات من حسابه الخاص ، كان يسعى إلى أن يكون (سيد الحتة) بينما (الحاجولى) لم يعد فى استطاعته أن يصرف على أعوان.أو يتحرك لخدمة أهالى الحى والسعى لهم عند الحكامَ ، فالسعى لدى الحكام له تكاليفه - كما أن الخصام فى زمن المعلم فرهود ،صارت تكاليفه فوق الطاقة .إذ قاموا بالمغالاه ووضع الأسعار بأنفسهم.وعقب الحروب ، تتبدل كثير من الأحوال ، ناس تصعد ، وناس تنزل ..!

هل خطط - الذى كان لا يملك إلا عربة كارو وزوج من البغال، وأفلح ؟ فرهود - منذ كان يركبنى بجانبه أو يضعنى فى حجره، ويجعلنى أمسك بلجام البغال ، وأنا أخافه ..كان يهبط بسرعة من العربة الكارو، والبغال مندفعة ، ليقف أمامها ، ويلجمها ، كان يضرب البغال ضربا قاسيا ، حتى أن لوح الخشب كان يُكسر على ظهر البغل، فكانت البغال إذا ما شاهدته تجفل!

وكان حفل زواجى من (شطفة) هو حفل صعود المعلم فرهود ، وبداية مرض الحاج عبدالعال الحاجولى ، فيما بعد، رأيت والدى يقف - لفرهود -

ويخاطبه بإضافة لقب(المعلم) على أسمه، ويتمادى فى الترحيب به ، وفرهود كان ينتفخ زهوا.كان فرهود قد اشترى بيت قديم آخر يطل على شريط الترام ، بالإضافة إلى البيت الذى رفعه خمسة طوابق فى قلب سوق باكوس.وأنشأ تحته المقهى.الذى جعل بداخلها (الديوان) ومقعده المذهب - ملتصقا بالجدار ..وفوق الجدار .صورته بجانب صورة رئيس الجمهورية وبنفس الحجم !

***

نوال حلمى، تزوجت من (عباس) المدرس الإلزامى ، كنت أتجنب رؤيته وفى نفس الوقت اتتبع أخباره، سررت أن العام قد مر دون أن تحمل منه. شطفة أرضها خصبة، بذرة واحدة تسقط سهوا تنبت بقليل من الماء الشارد كنت أصعد تلالها لألتقى بنوال ،حتى بعد أن رحل عباس بها من باكوس الى(الحَضرة القبلية).

و كنت أسعى الى رؤية (عم حلمى) يستهوينى الحديث معه ،وأتمادى فى الأحاديث ، ثم أضع بين كل عبارة . الخرزة الوردية. يقول لى فى أسى - " فى الحقيقة ياسرحان يا أبنى ، أنا رجل عجوز والمشوار لبيت عباس أفندى يهد الحيل ..! " أقول لنفسى

" لماذا يا عم حلمى لا تخبرنى عنها شيئا ؟ هل كنت تعرف أنى كنت مغرما بإبنتك ؟ "

" وهل تعرف بأنى مازلت مغرما بها ؟ "

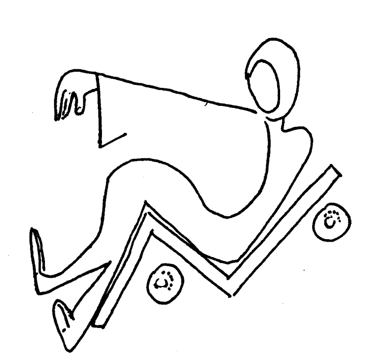
" من يدرى والناس أسرار ..! "

كان قد مضت بضع سنوات - وأنا فى صداقة وطيدة مع محمود الرملى - وكان طبيعيا - وقد امتلكت كثيرا من الطموح والرغبة فى الإستزاده والتشبه

بمحمود الرملى أن أشعر بأننى صرت صورة منه .لكنه كان الأصل ..وكـان دائما يبتكر الجديد.. يخلعه فأرتديه،فلا يعرف أحد أنه ليس ملكى.!!

(ونحن لازلنا نسمح لسرحان الحاجولى - أن يواصـل (السـرد) فـلا نندهـش لارتقاء أسلوبه إلى حد ما -ومن لا يعرفه،قد يعتقد أن محمود الرملى بثقافتـه المتشعبة هو الذى يتحدث)

- - - -



الفصل الثانى

تتويج الملك

" محمود الرملى " من وجه الفجر نسج لى ثوبا ، ومن خيوط الشمس أهدانى عباءة وفى أيام وليال ليس لها عدد أقام لعقلى يوم تتويج ، فجلست على دست نفسى ملكا،وحاكما،تحيط بى حاشيتى ، وبعدها وجدت أن قصرى من الضخامة والإتساع.حتى أنه أمسى مبعث رهبتى وخوفى ، إذ وجدت الليل راقدا بداخلى،متأهبا لاحتوائى !

قال لى الملك المتوج :

الليل لا يخيف ،ما يخيفك حقا، هذا . . .

" ونفض فى رأسى كثير من الأوهام ، عندما تأملتها،وجدت فيها أنواعا من الأزمنة الغابرة ، وأصدافا ، وأساطير ..فقدت دوافعها "..

صفقت أطلب الطعام الجيد والشراب اللذيذ !

واذا بالليل يمشى كالنادل ، يأتى بالى بما أطلبه،ويبقى منتبها لإشاراتى،!

" ها أنت قد ولدت ملكا ..هل تود أن ترسل خطبة العرش؟

للجدران شفاه تخاطب ترددى المقيت ، لازلت أغفو متعمدا ، تذوب أجنحتى كشمع تحت لهيب الأفكار التى تجتاحنى، تتساقط تحت أقدامى العادات والتقاليد القديمة ، أخطو فوقها وابتعد..أسحق بعضها كما تسحق الصراصير والحشرات . ثم أعود أبحث عنها لأمسح عنها التراب !

[اذا عجزت عن نقل الخُطى حاول أن تحل عن قدميك القيود ، ولكن لا ترقد فى تابوتك محنطا منزوع الأحشاء ، قل ما تشاء ..ووقع ']

– أين خاتمى ، هل أبصم بإبهامى ؟

- لن تكون فى حاجة لإبهام لتبصم به ، فقد أزال شقاؤك الطويل البقع السوداء من كل الدوائر والخطوط التى لم تنمُ عن شخصيتك المتفردة ، وأمسى التوقيع على الوثائق بالدماء وبالعرق الذى يتغصد من الجباه !
الجباه التى تضوى بالذكاء والفراسة، وتتبع كل الآثار السابقة لتنتقى ما يصلح،ثم تزيل ما فسد !

استدير لأجمع الإيماءات المعكوسة ، فأجدها جميعها كانت (نعم)وتعنى(لا) .
قال الملك الذى أمتلأت به هامتى:

- لن تستطيع الإفلات من الآخرين و هم فى حاشيتك ، يلتصقون بعينيك وأذنيك يملأون الفراغ المتاح من رأسك ، لن يزاحمهم سوى (العِلم)، فلا تتوكأ على الجدران التى نخرها السوس، والتى نخرت بالخرافات،والتى تقطر فى الرؤوس خمرا معتقة كريهة الرائحة !

ونصحنى إذا ما جلست لا أجلس تحت الجدران الهرمة القديمة ،خشية أن تتهدم فوقى،وإذا ما سطع ضوء العقل،وهدرت الأفكار الجديدة ..أنتبه ..
" محمود ..كيف أقدم الولاء للملك ، وإقامتى فى تجويف القلب مزمنة؟ "

***

قال محمود :

- إذا ما أبحرت مع ذاتك فلا تتجاهل ذوات من حولك ، هم الصخور المرجانية المدببة التى يمكن أن تشطر سفينتك إلى نصفين ..!
وقال : اقرأ باسم الحروف والمدن والأزمنة ..

فقرأت الحروف والمدن والأزمنة، كان ذلك بحكم تجارتى ورواج مادى طارئ رعته الثورة لأنصاف الميسورين أمثالى ،لقد تخلصت الثورة من ثقل المدعين،وبدأت فى تكوين أنصارها ..أنصاف الميسورين - إنها تتدرج كما

اعتادت ،ورحلتُ إلى الجنوب والشمال ، عايشت القدماء ، فرأيت نفسي كبيرا وعملاقا !

•••

صحبني محمود من (طيبة)إلى أور .. وبابل وأشور ، وأجلسني في مجالس أثينا واسبرطه ، وسناتو روما ، ومجلس بلاط الإسكندرية، وجعلني أمشي في جند رمسيس إلى قادش ".كان محمود معي بثقافته .."

فشاهدنا الإنتصارات والهزائم ، ثم أبقاني زمنا في مضارب الصحراء العربية.نبحث عن بئر ماء ،عثرنا على (يوسف) وتبعناه حتى قصر العزيز ، صادفنا النبي موس وكدنا نغرق مع جند فرعون ، أعادنا إخناتون إلى أخيتاتون.ومنها إلى عاصمة الهكسوس في الشرق ، نزلنا ضيوفا على المعلم زقزوق ، ننتظر (عمروبن العاص) في الفرما وحصن بابليون ، ومشينا في ركابه إلى شط الاسكندرية. حل بي التعب ، ولكن محمود ..كان لي خير دليل ،عندما يطبق الظلام،ينير شمعة ، وعندما يدلهم الجد،يخفف وطأته بكثير من فكاهات عصور الضعف والهوان • كنت لا أزال أحن إلى تجاويف القلب ..وخلو البال.!

ولدت من جديد - بعملية قيصرية - وصارت لي قامة، تفوق (قوة) المعلم فرهود وركنيه ،عبد الحميد البهتيمي وسلامة البحطيطي !

كان يحلو للفتوة فرهود أن يطلق على من يطويهم تحت جناحه (الزغاليل) ..وكان لا يرغب في أن تشب الزغاليل عن الطوق،أو أن يتعلموا الطيران !

أعتقد معظم معارفى أنى أطلب إرثا وأنى سوف أصارعه لأحصل على تركة والدى، فى الواقع كنت قد تهيأت للنزال ،ولن يطيب لى العيش وهذه الخفافيش تفرض الظلام فوقنا، ليلحو لها الطيران فوق رؤوسنا.!

قال محمود :

مهلا ..لعلك تعلمت أن الذين انتصروا عبر التاريخ ، لم يكن انتصارهم مصادفة لكنه جاء لتطور فى الوسائل ، فمن ركب حصانا تغلب على المشاة ، ومن ركب العجلة تغلب على الفرسان ، ومن كان سيفه من حديد، حطم السيوف البرونزية!!

قلت : لقد طغى (فرهود) وتجبر، ويظهر للناس أنه فى ليونة ونعومة الحرير!

قال: يستطيع فرهود الآن، جعل الناس الذين تحبهم، يحطمونك فى غمضة عين ..!

قلت : لاتبعث فى نفسى اليأس،بعد أن شجعتنى ،فما العمل ؟

قال محمود : هذه هى القضية التى يجب أن تشغل بها ملَكك المتوج.وسريعا اكتشفت بأننى لم أعد فى حاجة ماسة للمعاونة.وقد بدأت فى استخدام (عقلى) .ومع ذلك.كنت أستأنس بمحمود وتعضيده لى. . .

(ومره آخرى يقبض عليه ويحبس ..)

ولكنى لم أشعر – كما حدث فى المرة الأولى – بأنى وحدى ..

للمرة الأولى لم يصبنى الرعب ، وإن مستنى التعاسة، وغرقت فى الحزن .

مثل هذا الصديق الذى يزامل المرتحلين ، كان من الطبيعى أن يذهب ويطول غيابه ..

•••

تجرأت وطرقت أبواب من يعرفهم لم أكن وجلا ..أنا هو وغيابه حاضر وعندما وضعت يدى فى يد رفيقه (عبدالعظيم) انصهرت كفى فى كفه وصار لنا ذراع واحدة،وصحبنى معه إلى عالم (الأدب) . . .

كانت الرشفة الأولى من رحيق رائع،و إذا بى أنهل من هذا البحر الزاخر ، أسبح بعيدا عن الشاطئ ، أخلف ورائى كل ما كان يشدنى إلى أسفل.

علمنى عبدالعظيم، كيف تكون لرحلاتى فى الزمان والمكان ،معنى خاص!

ثم قال : على أى موعد نلتقى ؟

قلت : على الموعد الذى تحدده أنت .

قال: على جناح قصيدة لم تكتب بعد !.

وصعدت إلى السماء مع قطرات الماء التى تتبخر،وسريت فى الأغصان التى تتحول إلى أوراق الشجر ، و بقيت معه هناك على أطراف نهاية آخر غصن، نتوقع عودة محمود ، لنتحول إلى هواء لندور فى كل الأماكن، نفرح بالذين يتنفسوننا فى عمق بعد عمل شاق ، نتبادل القبل فى صدور العاشقين وهم يشهقون بالحياة..!

وانبهرت بعبد العظيم الشاعر الأديب ،

قلت : من أين بدأت ياعبد العظيم ؟

قال: هل تعرف ؟

قلت : نعم ، من دورة السديم الأولى،منذ ميلاد الميلاد ، مع بداية أول حركة أميبا فى الحياة ، بل قد تعود إلى بداية أول حركة نبات فى سكون الحجر الظاهرى"كان إعجابى به مبهرا – فهو والأدب صنوان !"

من هنا كان قلبى يبدأ ينبض معك.وقد صرت (مادة) أصاب بالتمدد والإنكماش ، فى حرارة الحب الجديد.وبرودة الإنقطاع والهجر ..!
قال عبدالعظيم المبدع ...
- الله .. الله .. الله ..
قلت : انظر لقد رأيت ذلك فى الكلمات الطيبة ، إنه التواصل ..
قال : أيخفق قلبك بالحب ياسرحان ؟
قلت : الحب الآن (حياتى) ، قلبى باقة ورد لا أدرى لمن أعطيها، ومن أعشقهم لا أستطيع تعدادهم ..!
قال: دعنى أحصل على وردة لفادية حبيبتى - أنا حددت مصيرى - أما أنت - الذى تتجاهل زوجتك وأولادك ..كيف لم تفكر فى إحاطتهم برعايتك؟ ولكنى كنت لا أزال أكره رائحة الطباشير وأهرب من خيزرانة الشيخ (محسن) وظهر كف والدى الذى كان يلطمنى به إذا غضب ، حتى بعد أن مات. ..وقفت عند الباب الخارجى لحجرته ولم أستطع الإقتراب منه وهم يغسلونه ..!

•••

كانت "فادية" عشق عبد العظيم .ومع ذلك سعيت لأن أتعرف على (حبيبة) صاحبى " تعرفت على فادية عندما مرضت أمى وكتب لها الطبيب مجموعة من الحقن.واقترح عبدالعظيم - إرسال فادية إلى بيتنا لإجادتها التمريض وضرب الحقن - كانت تعمل فى صيدلية خالها، فقد حصلت على (بكالوريوس) العلوم عندما حال (المجموع) دخولها الطب أو الصيدلة - وعملت فى التدريس..

رأيتها تجمع بين جمال الوجه.وتناسق البدن الأنثوى فى حالته الرائعة من الإنسجام ،سقط بينى وبينها حاجز ، لم يستدعها خيالى إلى خليلاته ، كانت تبتسم دون أن يفتر ثغرها - ابتسامة جيوكمندية !

رأيت فيها كبرياء من يتوافق داخله مع خارجه.إذا تحدثت أزالت كل الحواجز بينها وبين الآخرين ، إلا حاجزى ، الذى كان شفافا، يتيح لى رؤيتها دون الإقتراب منها أو لمسها، رأيتها تجيد فنون الإنعاش بالمصطلحات العلمية وبصحيح اللغة العربية ،وقواعدها ثابتة ، مثل الشاعر الأديب عبدالعظيم مصطفى..

سألته : لماذا لم تعجل و تتزوج يا عبدالعظيم ؟

قال : سنتزوج بعد أن أفرغ من بناء شقة لى على سطح بيتنا ، سأتزوج بعد أن أجهز شقيقاتى ، سأتزوج بعد أن يستكمل أخى الصغير تعليمه المتوسط ، سأتزوج بعد أن ....

قلت : كفى بالله عليك ياعبدالعظيم ، من لها الصبر على كل ذلك ؟

قال :فادية عبدالرحيم .. !

قلت : أنت رجل.وإن كنت قد تخطيت الثلاثين فأمامك وقت ..ولكن وقوف الأنثى على أبواب الثلاثين شئ يزعجها،و أحلى الأيام تتسرب منكما!

قال : هذا قدرنا يا صاحبى ، لم نرث من أهلنا سوى المسئوليات .

قلت : أخشى، وهى تحلق،أن يصوب لها صائد اليمام سهامه فتسقط بعيدا عنك.

قال : صدقنى ياسرحان، ليس هناك أسوأ من أن تواجه الأعداء بصدرك عاريا،ليس فى يدك سلاح ، فى هذه الحالة، يتحول ضعفك إلى موت ، قد يخيل لك أنه موت نبيل من باب التسرية عن النفس ، إلا أنى فى الواقع ،

والحال هكذا ، أشعر بأنى عود فى مهب ريح صرصر ، عصفور فى مواجهة مساحات شاسعة من مياه المحيط ، ليس أمامى سوى الإستمرار فى ركوب الهواء وضرب الأجنحة بلا هوادة .

قلت: وعندما تلوح اليابسة ، لن تجد فى انتظارك سوى شباك الصيادين ، فهم يعرفون إنك ستصل منهكا غير قادر على الإرتفاع .

قال: أنا متيقن من النهاية ، لذلك أحول طيرانى اليائس إلى متعة ، وتصبح أمنيتى الطيران داخل سرب !

قلت : أنت تجمل اليأس بالأحلام يا عبدالعظيم .

قال: هذا كل ما يتاح لى الآن ..فلأعتصره ..!

لا أدرى لماذا اقترحت أن أقرضه بعض المال ليعلن خطوبته

قال : هى خطيبتى دون إعلان ، لإعفائى من تكاليف العادات .

(كنا قد انتقلنا إلى أيام جديدة، المائتان وخمسون جنيها التى جعلت محمود يبدو أمام أصهاره ثريا يوم خطوبته.لم تعد تكفى أجرا للكوافير أو الفستان والحذاء)

•••

قبيل عودة محمود لنا..

حدثت أزمة (عبدالعظيم) إذ انقلب حاله ، وأخبرنى بمأساته فقد حملت منه (فادية) دون زواج .. !

..وضعته المشكلة فى مفترق الطرق ، إما إعلان الزواج منها أو التخلص من الجنين ، مال عبدالعظيم إلى التقدم للزواج من فادية ووجد أن هذا يكون أفضل الحلول، وأخذ يعمل على تدبير أموره المالية ، وحبذت هذا الحل ، وفوجئنا جميعا بأن أم فادية ، وخالها الصيدلى ، يرفضان (العريس) رفضا

قاطعا ، اخذنا نقلب المشكلة من جديد- هذا هو أسلوب محمود الذى يتسم بالصراحة والمكاشفة وعدم الدوران، وكنا لا نريد أن نفشل فى استخدامه ، درسنا جوانب المشكلة وسعينا إلى عم فادية (كونستابل ترقى إلى ضابط) جعلنا فادية تطلب وساطته .

الرجل وقف فى صف (الحب) وقال: خذوهم فقراء يغنيهم الله،

ولكنه لم يكن متحمسا ، فهذا أول صدام له بعد موقعة الإرث والمطالبة بنصيبيه فى أملاك شقيقه الذى ليس له ابن ،فوجئنا بالرجل يتقهقر إلى الخلف ويلوذ بمنزله ، يؤيد ويبارك خطواتنا، ويشجب تصرفات أم فادية والدكتور الصيدلى، فى بيانات غاية فى البلاغة، وكانت له قدرته على تفهم أمور الحياة والحب ويتحدث معنا بالساعات.حتى أنه طبقا للإصطلاحات السائدة وصفهما "بالرجعية والعقول المتحجرة ! "

كان الجنين فى أحشاء فادية ينمو ولا صبر له على طول الحوار" وخذ وهات" والخال يرى أن ابنة أخته جديرة بصيدلانى مثله (على الأقل) ولا ترى الأم فى عبدالعظيم إلا طامع فى إرثها من والدها والذى يتمثل فى نصف بيت من ثلاثة طوابق بالإضافة إلى مرتبها كمعلمة ، ولم تصرح الأم - تأدبا منها بأن عبدالعظيم" فقير دقة" ولم تقل: لا يلزمنا هذا الفقير الذى يعيش فى الأوهام بأنه مبدع لاغبار عليه . !

أوصدت المرأة فى وجوهنا كل الطرق ..ولحسن الحظ ,, افرج عن محمود ..وبين الترحيب به ،احطناه بجوانب مشكلة عبدالعظيم وفادية، ودون حديث طويل ، صحبهما محمود إلى مكتب المأذون الشرعى - وطلب منى إحضار بطاقتى ، وعثرنا على شاهد آخروتم عقد القران .

وفى كازينو الفردوس الذى يطل على شاطئ جليم استضافهما ، وفى منزلى أعدت (شطفة) عشاءاً طيبا ، تناولناه معهما ، وفى اليوم التالى، كان محمود قد اتصل تليفونيا بزميل المعتقل (سالم الطنطاوى) ، فجهز لهما منزله بطنطا، بل جاء بسيارته وصحبناهما إلى هناك ، وكان الإحتفاء بالعروسين، وتركناهما لأسبوع العسل. وعدنا من طنطا مباشرة. إلى صيدلية خال فادية . وفى هدوء ورزانة أبلغه محمود بأن ابنة أخته فادية قد تزوجت من صديقه عبدالعظيم مصطفى سليمان ، وقدم له عنوانهما فى طنطا وقال وهو يهم بالرحيل : العنوان سهل الوصول إليه فى طنطا . إذا رغبت أمها فى زيارتها فعلى الرحب والسعة " .

تقبل الخال الأمر فى البداية مذهولا ، وعندما وصل الخبر لأمها لم تجد أمامها سوى أن تطلق الزغاريد ، لتعلن زواج ابنتها من رجل ميسور الحال بمدينة طنطا ، نكاية فى الجيران !

(شئ لله ياسيد يا بدوى) .

ثم تكلمت المرأة بصوت مبحوح والدموع تسح من عينيها .

- فادية حيلتى ، كان نفسى أفرح بها ..!

- قال محمود بثقة :

- فادية ليست صغيرة يا حاجة ، وعبدالعظيم رجل محترم، قلبه أخضر وإنسان طيب وأمامه مستقبل عظيم .

قال الخال :

- بحثنا حالته .. وجدناه فقيراً جدا .. يا أستاذ .

قال محمود الرملى فى ثقة:

- عبدالعظيم من أغنى أغنياء الإسكندرية !

تبادل الخال والأم النظرات المتسائلة .قالت الأم :

- هل تعرف عنه مالا نعرفه يا أستاذ ؟

وقال الخال :

- ابنتنا ربيناها على الغالى ، وهى جميلة ، يستحقها بالفعل رجل ثرى...

أكد لهما محمود : إن عبدالعظيم رجل ثرى بالفعل، ولديه عدد لا يحصى من البيوت ، ثراؤه حقيقى، وأمواله لا يمكن أن تتعرض لخسائر أو إفلاس..!

كان محمود يتكلم فى جدية ، وأنا أعلم صراحته، صدقت أنا الآخر مايقوله ورحت اسأل ؛ هل كان عبدالعظيم يدعى الفقر ليبحث عمن تحبه لذاته ؟

كنت متأثرا ببعض القصص الشعبية والروايات السينمائية.

سلمت الأم بما هو مكتوب ،وشرعت فى تجهيز ما ادخرته لإبنتها.

وأخذت تتأكد من العنوان ووسيلةالمواصلات التى تجعلها تصل إليها مباشرة ..سألت محمود أثناء عودتنا عن حقيقة ثراء عبدالعظيم ؟

ضحك من قلبه ، وأخذ يؤكد بأن أبيات الشعر التى تفرزها قريحته ،هى أفضل من كل بيوت العالم ..!

ولم اندهش، فقد كنت قد وصلت إلى نفس قناعة محمود ،بأن (عبدالعظيم) شخص يستحق فادية.كما أن فادية تستحق قلب عبدالعظيم الماسى الذى يشع إبداعا وإنسانية ، وكنت أثق مع محمود بأن عبدالعظيم -إذا ما انتهى من دراسته الجامعية بالإنتساب - وعمل فى مجال الأدب.للفت إليه الأنظار والقلوب معا..!

•••

وتحقق ما اقتنعنا به، ففى أثناء العدوان الثلاثى ، وبعده ،انتشرت أغنيات وأشعار عبدالعظيم سليمان وأصبح شخصية أدبية مرموقة ، واستكتب فى عدد من المجلات ، ثم اتجه إلى الدراما الإذاعية ،ومنها إلى الصحافة، وانتشرت كتاباته وأشعاره فى العالم العربى و كنت أفخر بين معارفى، عندما يتطلعون إلى صورة تجمعنا معا، ونحن عراة على شاطئ البحر .. وأقول لهم بكل فخر : نعم هذا عبدالعظيم سليمان الذى يغنى له عبدالحليم حافظ وفريد الأطرش وفايزة أحمد وسعاد محمد ويلحن أغانيه محمد الموجى والطويل ومحمد عبدالوهاب.

وكلما انتقل عبدالعظيم سليمان من نجاح إلى نجاح ..يقول محمود:

– جاءك كلامى يا سرحان؟ لقد بدأت (بيوت) عبدالعظيم تمنحه عوائدها ..!

وأم فادية انتقلت لتعيش مع إبنتها بالقاهرة– لترعى لها وليدها – وكانت فيما بعد.تظهر فى بعض الصور التى تنشرها أخبار الإجتماعيات – والتى يشرفها تتبع حياة الكاتب والشاعر الكبير عبدالعظيم سليمان ..

وفى(الصيف)كان يأتى إلينا، ثم صار مشغولا بمصايف لبنان وفرنسا وتركيا، ثم برحلاته إلى المغرب العربى. ومقالاته فى الصحف العربية التى تتحول إلى كتب فى الأدب والحياة ..

وكان عبدالعظيم كلما حقق نجاحا – يجئ إلينا يسألنا، ويجلس أمام محمود ينتظر رأيه باهتمام زائد ، ربما شعرت نحوه ببعض الغيرة وأوحيت إلى محمود.. بأنه أصبح فى واد غير وادينا...

لكن محمود كان يسارع ويقطع الطريق على ملاحظاتى قائلا :

فى نجاح أى زميل لنا ، إضافة حقيقية ، الأصدقاء العاطلون عبء على أكتاف أصحابهم ، من يحقق ذاته سيقف بجانبنا ليحمل معنا جزءا من المسئولية ،إذا اشترى صديق لك سيارة جديدة، يجب أن تسر لذلك ، فقد يصادفك يوما ماشيا ويدعوك للركوب معه . فى توصيلة لن تتحقق بدون مقابل.مجانا.إلا اذا كان هذا.صاحبك.. !

" كيف يكون لى هذا القلب يا محمود ، حتى وأنت تجرى لى هذه العمليات الجراحية لا تستعمل المشرط ولا تترك فى جسدى أثرا لجرح "

" وقبل أن يعتقل مرة أخرى "

ناقش معى ، ذات أمسية .. أن أحول (المغازة) الكبيرة التى استخدم واجهتها كمحل ،وعمقها كمخزن.بالإضافة إلى الفراغ خلفها،إلى مصنع لإنتاج وتغليف الموادا الغذائية".

فى أول الأمر قابلت الإقتراح بفتور ، ولكنه واصل تصوره للمشروع ، شركة توصية،بالأسهم.ويكون لى فيها أكثر من النصف بسهم واحد ، المال اللازم سيأتى سريعا ،والآلات المطلوبة ثمنها أقل من المساهمات ..

واقنعنى بأن الدولة تدعوا إلى تمصير كل شئ، ويجب أن يطرق رجال الأعمال المصريون أبواب الصناعة ، ولا يتركوا هذا المجال للخواجات مرة أخرى (هذه بلدنا نحن ياسرحان ، وهذا الدور متاح فيها لك ، لماذا لا تلعبه وأنت لديك الإمكانيات.بأن تكون رأسمالى وطنى !"

بمنطقه الهادئ، فتح لى الطريق وبدأنا فى دراسة المشروع وجاء إلى بشاب يعرفه (كمال نشأت) وأبلغنى أنه ، من المهندسين الشبان الطموحين - هكذا قدمه لى ، ووضع أمامى كافة التفاصيل ، كان خيالى قد تحرر على يد

(عبدالعظيم) وأفكارى تنوعت ، أدى ذلك إلى سرعة التصور واختصار الوقت، وعزمت ،وقلت: على بركة الله، وشرعنا فى التنفيذ.

(ثم ذهب محمود ..وبقينا كالعادة نتمثله وننتظره بفارغ الصبر)

•••

كانت فتحية قد أنجبت (خالد) وتقيم مع أمها فى (ڤيلا راجى) بجليم ، اعتقال زوجها المتكرر ، ضيق عليها فى عملها الوظيفى وعرضها لبعض المضايقات فحصلت على إجازة طويلة بدون أجر.بحجة تربية وليدها ، كان المشروع قد وضعت تفاصيله فى بعض الجلسات التى تمت فى بيتها بمشاركة المهندس كمال - ابن عمتها -وكان من الطبيعى ، عند بداية تنفيذ المشروع أن أطلب معاونتها ، بل هى التى كانت تبادر بتقديم المساعدات ، وعند بدء الإفتتاح والعمل ،تم تعيين خمسين عاملا و تعاقدت مع (كمال نشأت) ليكون المدير التنفيذى،وتعاقدت مع (فتحية) لتقوم بالأعمال الإدارية ، رفضت فى البداية ، اعتقدت أننى أفعل ذلك بسبب العلاقة التى بينى وبين(محمود) وحتى أمنحها أجراً .

وعندما تبينت حاجة المصنع الملحة لها - كمحاسبة وإدارية - وعلاقات عامة - طلبتْ أن أمهلها بعض الوقت للتفكير - خشيت أن تكون تصرفاتى السابقة التى تستشعرها الأنثى سببا للتأجيل .ولكنها كانت قد أرسلت خطابا لزوجها فى الواحات، جاءها الرد فى أربع صفحات من كراسة، مكتوبة بالقلم الرصاص، بالموافقة. وكان محمود يتحدث فيها عن كيفية إدارة المشروع، والخطوات التى يجب أن تراعى بدقة لتحقيق النجاح ،فتحية أحضرت لى الرسالة، ووقعت على العقد . . .

ولم أتوقع بأننى إذا سرت على نفس الخطوات التى أوردها (محمود) فى رسالته، أحقق تقدما سريعا ، ولكن خلال العام الأول من العمل بالمصنع تعرضنا لكبوة، عدم الخبرة فى التغليف وإهمال حملة الدعاية للمنتج ، على أثر ذلك انسحب بعض المساهمين • اشترت فتحية والمهندس كمال نصف الأسهم ، والباقى اشتريته لنفسى. رأيت المهندس (كمال) وفتحية، قد أقدما على الشراء فالمشروع من وجهة نظرهما متعثر، وليس فاشلا ، اشترينا آلة تغليف حديثة ، وتعاقدنا مع مطبعة جديدة لصناعة وطبع علب الكرتون والعبوات الورقية ، وكما أوصانى (محمود)، اتصلت بزميلنا عبدالعظيم ،ناقشته فى حملة دعاية بتكاليف مقدور عليها - ابتكر لى انواعا من الدعاية لم تكلفنى الكثير - وقد وضع علاقاته ببعض رجال الأعمال وأصحاب المصانع والتجار بالدول العربية فى خدمتى.وانهالت الطلبات على إنتاج المصنع من الحبوب السبعة ، ودقيق الهريسة، وعبوات العلافة والبقول المتنوعة ، والمجهزة ، طلبات تكفى لتشغيل المصنع عدة سنوات .." !

***

" ها قد جاء دور عبدالعظيم يا سرحان (ثق أنه سيقف لك بسيارته ويدعوك للركوب) أنت على حق يا محمود ، لقد زفنى بسيارته الجديدة وطاف بى فى أماكن لم ارتدها،و بالتخطيط السريع لحملة الدعاية جعل من تعاستى فرحا، وقد جعل رؤيتى للمصنع منتزها يزدهر بالآمال ،حتى أن من باعوا أسهمهم عادوا يلحون فى المساهمة بالتوسعات الجديدة،..

وكان عبدالعظيم قد استقبلنى فى منزلة بالقاهرة عدة مرات، واستخدم اتصالاته فى تسهيل كثير من الأمور التى تخص الصناعة والتجارة والتصدير .... •

(قال لى محمود ضمن وصاياه - اشتر سيارة واجعلها على حساب المصنع - هى جزء من مظهر رجل الاعمال - كما أنها تؤدى كثيرا من الخدمات بجانب سيارة نقل.حتى لا تتعطل مواد المصنع وحركة نقل البضائع منه وإليه..

اشتريت سيارة ،وجددت المنزل.وجعلت به حجرة للمكتب ..ازعجت - (شطفة).ولكن الأسورة الجديدة أوقفت اعتراضها ، لذلك - خطر لى أن أصنع مفاجأة لمحمود -إذ عاد وجدها فى انتظاره ، جعلت بعض الأسهم التى اشتريتها من المساهمين المنسحبين (بإسمه) وأودعتها البنك، على أن تسدد ثمنها من أرباحها.و فى ثلاثة أعوام ، سددت قيمتها ، ثم بدأت أضع فى رصيده ما تستحقه أسهمه من أرباح ، وضاعفت مصروف البيت لشطفة وتغاضيت عن أنها تدخر نصف ما اعطيه لها فى (الجمعيات) لتشترى ذهباً.وقد هدأت . وتركتنى لأعمالى.وإنْ كانت لا تزال تمارس ساديتها ضد أمى - التى شغلها نجاحى - عن مقاومة شطفة. كما أن أولادى وقد كبروا قليلا، أصبح لهم مواقف ضد تصرفات أمهم ،إذا ما حاولت تعكير صفو جدتهم ..

وكما يقول المثل(من جاور السعيد يسعد) فقد خصصت منحةً كل شهر (لروحية أختى) وكسوة لأولادها فى الأعياد.وبنيت شقة فى الدور الثانى العلوى،اثثتها بأثاث بسيط وجعلتها خاصة بوالدتى ، فكانت أمى أقرب إلى شقيقتى روحية من زوجتى شطفة .

وان كان الأمر لا يخلو من الإنفجارات التى تحدث من حين لآخر.على سبيل إثبات الذات بين الطرفين، فان وجود شطفة فى حياتى وتشذيب الفروع فى أدغالى ، جعلنى فى غابة شتوية عارية من الأوراق، وقد اعتادت (فتحية)

ـ وأنا أشاهدها يوميا تقريبا في العمل ـ أن تكون جميلة معتنية بهيئتها وهندامها. فهي وإن كانت تبقى فترة من الوقت عقب اعتقال زوجها في تأييراتها الداكنة. وذواقها الخفيف. الذى كان يبرز – مع مسحة الحزن – وبياض بشرتها، وبساطتها، أنواع من فتنتها. والتي تتغلب بها على ظروفها .

كان ذلك يتسرب داخلي. ويسري في شراييني ،حتى يصل إلى قلبي. ويصعد إلى دماغي. ليحجب كل (الأحوال) دونها ، فإذا بنوازعي تعود إلى دق طبولها في أعماقي.

وكل مرة. كنت أقتل الثعابين السامة في غابتي الشتوية ، حتى يمكنني السير في دروبها في مأمن الصداقة !

أفيق. ولكن أحراشي تكدست بجثث الثعابين، بعضها مقتول وبعضها يتماوت وذيله يتحرك...!

•••

ما تكاد نسائم ربيع (توحة) تهل على جدبي ، حتى أورق وازدهر وطيورها الجميلة تعشش في أوكاري ، وأنا أصيخ السمع إلى صرير داخلي عندما أغلق كافة الأبواب التي تطل منها نوازعي السامة. في مقاومة مستميتة. ولكن ما حيلتي .. وعذابي يتكرر في إلحاح يومي....!

عندما يهدأ مشوار النجاح. ويصل المتسابق إلى نهاية السباق. يتلاشى الخوف من الخسارة ، ولا يتبق في ذهن المتسابق إلا مهرجان الاستقبال. وقبلات الفوز ،هنا أقف وأبحث عمن أهديه هذا الفوز ، وانتظرمنه سماع عبارات التهنئة ، كنت أقف عند نهاية الخط ،وقد نسيت تماما دور المدرب الذى صنع هذا النجاح ، أرنو إلى متعتي الذاتية ، كانت (توحة) من بين العشرات ، هي وحدها التي يصلني هتافها وأسمع تصفيقها بوضوح. وكم كنت أود

أن أخلع مادليتى الذهبية وأضعها على صدرها.ثم اقبلها.قبلة الفوز.وكأنى فعلت كل هذا من أجلها وحدها.

إلا أنها – فى لقاءات العمل – كانت تنسى نفسها وتناديني (محمود..) ودون أن تعتذر تقول: أنت وهو..واحد ..

وخالد ابنه – يتعلق برقبتي.فأحمله على صدرى ، يطوقنى بذراعيه ويقول بلثغته:(بابا سرحان) وقد يتمادى – خيالى –أتوق – للقيام بدور الأب الفعلى لتوحة.وكبتي لهذه الرغبات بشدة سبب لى نوعا من الأرق.وقد توارت صورة (نوال).وتلاشت (شطفة).وامتلكتني (توحة) ،

كنت أهتم بها وبشئونها بصورة أعجز عن وقفها ،هل كانت ترى أن عمق الصداقة التى بينى وبين محمود هى دافعى إلى هذا ؟ حتى أنها كانت لا ترى فى ذلك غرابة ، وهل كانت استجابتها إلى إشاراتى ومراعاتها لى فى العمل ، والإهتمام الزائد بى عندما أزورهم فى (الفيلا) لإثبات أحقيتها بالوظيفة ؟

لقد أمست بيننا لغة خاصة ،مصطلحاتها الأجفان والنظرات ، ولا تجد حرجا أن تتعلق بذراعى ، أو تعد لى طعاما خاصا تحضره معها ، وربما تدعونى إلى (الفيلا) بحجة أن (الحاجة) والدتها، تريد رؤيتى لمناقشة (عرض ما) وتقول ببساطة (كما أنها تشتاق إليك) ، من يشتاق إلىّ .. هى أم والدتها..؟

وكنت فى كل مرة أنجح فى التغلب على (رغبتى) فيها . تلك الرغبة الحرام.أشعر بارتياح وندم فى نفس الوقت ،الإرتياح لأنى انتصرت على نفسى ،والندم لأنى لم أحاول، فأفلتت الفرصة وضاعت !

والأم كانت تتركنا لتضع خالد فى فراشه ..فتنام بجانبه ، وكانت الخادمة تتصرف ونبقى وحدنا ...

نتحدث حول العمل تارة، وحول شقاوة خالد والمقالب التى يضع جدته فيها ، وأنا أتجول فى غابتى الشتوية الجرداء بحثا عن مأوى دافئ يحمينى من ثعابينى وعندما أعود، أجد أنها قد انتقلت للحديث إلى فن لقاء العملاء وتتحدث عن (أمريكا) وكيف يدرسون العميل من جميع نواحيه، النفسية والإجتماعية، والبيولوجية – أذهب بعيدا مرة أخرى. وعندما تلمس يدى أو تربت على ساقى أسأل نفسى : لماذا لا أحاول تقبيلها ؟ غياب محمود ..ألم يوهن حصنها ؟ وماذا لوكانت هذه طبيعتها .....؟

ماذا تعرف (ياسرحان) عن سلوك سكان جليم، وأنت لم تفقه سلوك أهل باكوس...

إنها امرأة تتصرف ببساطة شديدة ووضوح ودون عقد ،وتتعامل معك – على أنك الصورة المشابهة لزوجها محمود ،صديقك الوفى ،كم مرة حدثها محمود عنك ؟ ماذا قال لها ؟ أى تصرف منك قد يحدث انفجارا ، لا يمكن حصر آثاره المدمرة ، وقد يصورلك خيالك أنها قد توقفت عن الحركة والكلام عندما أمسكت بذراعها. واحتويتها. فى صدرك ، ثم سلمت لك شفتيها ...

لماذا تنزعج ويسرى الحزن فى أعطافك ؟ هل لأنها لم تضعف وتخذل صاحبك محمود كما تصورت ذلك دائما ؟ أم لأنك فشلت فى القيام بدور الشيطان؟

– أووه .. أين ذهبت يا أستاذ سرحان ؟ أسألك ،فنجان القهوة أصبح باردا ..هل أصنع غيره..؟

تنبهت ،قمت على الفور واقفا وأنا اقول :

- الوقت تأخر .سَلمى على الحَاجة، وإذا رد عليها عاطف بيك بالقبول لعرضنا ، تتصل بى تليفونيا.."

وأغادر الفيلا ..وأسارع مهرولا.ولا أعطى أذنى إلى بقايا حديثها، وكلمات الشكر للزيارة ،وأبقى هائما لا اعرف كيف عدت بالسيارة من جليم الى باكوس.."

لا أجد عندى احساسا بالجوع..ومع ذلك آكل ما تقدمه لى أم محمد.التى خصصتها لخدمة الأولاد.. وأرفض أن تستدعى لى (المدام) أقول؛ دعيها نائمة، ولكن تأتى شطفة وتندهش لجلوسى وحدى.. تأتى إلى ببقايا نعاسها - وتقول :

- كنت فىالصحراء ..ألم يكن عند من كنت عندهم شيئا يؤكل !

أتغاضى عن اندفاعها.حتى لا يتحول النقار إلى شجار ,وأبتسم فىوجهها حتى تهدأ،وعندما تتوجه إلى غرفة النوم أتبعها ..ارتفع عاليا، وقبل أن أهوى، تختلط فى ذهنى الأمكنة والروائح والأشكال، وأردد اسمها مرة أو مرتين فى ذهنى ..بيد أن شطفة كانت هى الأخرى على نفس الإرتفاع .. فلا يُمكنها زئير الوجود، من تبيان الغمغمات الجانحة !

أذهب إلى الحمام و أعود ، وأقوم بتمشيط شعرى.وكأنى أستعد للخروج والوقت فجرا..

تقول لى شطفة وهى نصف نائمة:

-عمى فرهود ..أرسل فى طلبك ..

انزعج قليلا ،ولكنى أتماسك ..!

- ماذا يريد .. عمك فرهود؟ ، كل من يرسلهم لـى، يتم تعيينهم في المصنع ..هل يعتقد أن لدى الوقت لحكاويه؟!

- يريد مقابلتك غدا لأمر مهم وضرورى!

- لن أذهب إلى المقهى ..ولن أجلس فى ديوانـه لكى ينجعص ويثرثر فيما لا طائل وراءه .

- سيأتى إليك فى المصنع !

ألم تسأليه عن غرضه من المقابلة ؟ أشكوت له مرة أخرى ؟

قالت هازئة:

- و هل أنت تعيش معنا حتى أشكو منك ، أنت لا تتذكرنا إلا ...

- من فضلك ..نحن بعد منتصف الليل ..صوتك والأولاد..

هدأت وقالت:

لاعليك يا أبا زينب !

من المرات القليلة التى تنادينى فيها (أبو زينب) ..ولدينا (السياجى) الذى أطلقت عليه اسم والدها ، كما لدينا (عبدالعال) الذى أصرت أمى أن يحمل اسم والدى، وأخذت أفكر ... لماذا تذكرنى بزينب ؟ لقد أصبحت الآن فى نهاية المرحلة الإعدادية..وأشعر أحيانا بأننى مُقصر فى معايشتى مع الأولاد ، وخاصة زينب .. ويكون علىأن أغادر حجرة النوم إلى حجرة المكتب،أقول :

-ربما أكون مشغولا غدا ..ولا أبقى فى المصنع طويلا.

تقول وهى تسحب الغطاء على وجهها :

- أبيه .سنرى ماذا ستفعل بنا يا سرحان بيك، بعد أن تصبح عضوا فى مجلس الأمة !؟

تسمرت عند الباب ..يدى كانت على زر المصباح.. ولكنى لم أضغط عليه، كانت قد أعطتنى ظهرها فقلت :.

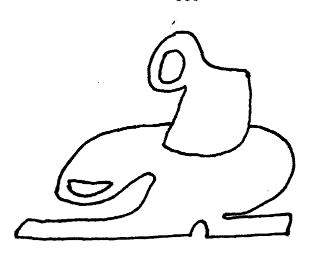
- هو الذى قال لك ذلك ..؟

أرسلت غطيطها المفتعل ..أطفأت النور ..ومشيت ببطء إلى حجرة المكتب أشعلت سيجارة ..لم أنجز أى عمل آخر ، طنين يتردد فى رأسى بصوت المعلم فرهود ..

(سرحان عبدالعال الحاجولى عضو مجلس الأمة) ..وجدت نفسى أتمتم فى فراغ الحجرة ..وأنا امتلئ بالزهو :

-أهلا بك .يا معلم فرهود ..سأنتظر قدومك إلى المصنع ،على أحرّ من الجمر. وقد أرسل فى طلبك إذا تأخرت ..لكن ياترى ..ماهو الثمن ..؟!

•••



الفصل الثالث

" نتوء صخرى"

" محمود الرملى" فى طرقاته المفعمة بالأشواق المحترقة، والأشواك تدمى قدميه إذا ما خطى إلى الأمام أو توقف عن السير ، القيد فى يديه وقدميه ولكنه كان يواصل القفز بضراوة !

الواحات والأحلام والرفاق ، نحتوا مجتمعا يتعايش مع الألم مواطنوه جميعهم مغتربون منفيون ، هوايتهم الفريدة محاسبة أنفسهم بلا رحمة ، عن أشياء قديمة ومهترئة، رققها الزمن،حتى صارت واهية،فى وهن خيوط العنكبوت، تخصصوا فى نقد ذواتهم حتى تهرأت قلوبهم ،وملأ الفراغ الرؤوس المزدحمة بالهواجس ،والصدور ضاقت بردود الأفعال ..مع الأوتار التى تضج بالمشاعر المتضاربة..

كل هذا..كان يلغم الطرق ..وبدون مقدمات، تتوالى الإنفجارات فى أجساد الرفاق،ويعقبها الإنقسامات ، ثم عتاب العتاب ، وإعادة إلقاء التهم ، وإعادة جمعها فى سلالهم الخوص ، ورفعها على الرؤوس كالباعة الجائلين .. يعرضونها للبيع جملة وقطاعى (والذى لا يشترى ، يتسلى !!) .

كانت هذه التقلبات تأكل قلوبهم فى الواحات ..

وتتغاضى عن أيامهم البطيئة الثقيلة ..فلا يتبق لهم إلا الأيام الرمادية والزرقاء ... !

•••

(محمود) كان قد نأى بنفسه.نحو نتوء صخرى.تسلقه ولاذ به من الغرق.

وأخذ يبحث حوله عن (مَرسى) لترسو عليه سفينته ..وقد تفاعلت النوات وازداد تلاطم الأمواج المتلاحقة حولها..!

عندما أعلنت فجأة(القرارات) التى كانت حلماً بعيد المنال ...
تضحيات جسيمة سفحت من أجلها ـ كيف واتته الشجاعة فى أن يسير بمفرده فى طريقهم الذى عبدوه بأظافرهم؟ ..طريقهم الذى يعرفون كم هو محفوف بالمخاطر والعقبات ؟!
غابة تعج بالوحوش الكاسرة(وهو) قد سار وحده بدون (حماية) ألم يكن من الأجدر به أن ينتظر ..حتى يأتلف مع حراس الأمانى.وصوبتهم تتحكم فيها درجات الحرارة، وتصد الريح والبرد عن الفسائل التى لم تتعمق جذورها بعد فى التربة الصلدة ! .
أم أنه قد زرع شيئا خاصا به ؟
..لقد احدثت المفاجأة .. **(فرقعة)** فعلها دونهم، فأربك الجميع...
وانقسم ..المنقسمون.المرة بعد المرة ..لتتضاعف غربة الواحات..وتجهض الأحلام.ويحبط الرفاق ... !

•••

لم يندهش محمود الرملى ..إذ رأى من يهتف باسم السجان ..ويبارك خطواته ، كذلك لم يؤيد من يشككون فى كل - فعل - حتى لو كان واقعيا ..تجمد فى مكانه المرتفع.عندما رأى- إشارات الخطر/تزال من الطريق الذى عبده السائرون نياما،وقد قاموا بصنع ..إشارات جديدة ..لها نفس المواصفات، ولكنها صنعت من فلين...ودون مصابيح،يمكن أن تشتعل !!
" أهى العادة القديمة ..قدم التاريخ الفرعونى .. أن يزيل الفرعون آثار السابقين ليفسح الجدران لآثاره .!؟

كان محمود يدرك نوع البحارة الذين يقودهم القبطان ، وإذا ، نشب نزاع فى عرض البحر، سيكون لهذا النزاع ضحاياه ، أراد أن يقف على رصيف الميناء فى انتظار عودة القبطان مظفرا.فيصفق له مع من يصفقون

كان اتخاذ القرار صعبا ، ودائما يقع اختياره بعيدا عن الموائد والمناصب والزحام.وكان يعرف أنه قد صار كنوع من الفاكهة،مر المذاق فى حلوق معظم الرفاق، فالمناقشات الطويلة حددت المواقف تحديدا قاطعا – تكتنف الجميع عصبية الموقف ذاته، ذلك الموقف الذى قد يستهلك العمر كله ، من يقطف فاكهة فى غير موسمها ويعرضها فى الأسواق للبيع ؟ من ذلك المعتوه ؟وَمَنْ مِنَ المعتوهين سيشترى !؟

بقى وحده فى عراء الحقول ، تلفحه الريح وتحيط به المخاطر ..!

الصدق ..حريف ..يقف فى الحلوق ..ولا يمكن بلعه بسهولة ويسر ، فلا يتناوله الكبار. بينما الأطفال بأصابعهم الطرية.وحلوقهم الغضة، لا يجدون فى تناوله غضاضة، ولا فى عصارته مرارة..من يأكل البلح أخضر؟ والبرتقال ليمونا ؟ إلا الأطفال ؟!

وربما ناقشه الأقرب إلى موقفه الثابت:

– هم لذلك أطفال لا يعقلون .

– سأكون عصفورا مثلهم ..وكفى العقلاء شر القتال ، سأغنى للأمل والحب أرجو لكم جميعا التوفيق ..!

– جميل أن تقول أغنيات الحب ، الأجمل أن تمارس الحب مثل الكبار.

عفوا ،سأبقى أردد أناشيدى للقلوب الخضراء !

– حى سى أبواب البستان !

– أدخلوه آمنين !

- لماذا جئت إلى هنا مع موقفك المثالى!
- لم يكن لى الخيار !
- أنت حالة شاذة ...
- قل حالة إنسانية ، لها أجنحة ، تحاول طيران ..!

وكما ذهب وحيدا.وبقى هناك بينهم وحده ..خرج وحيدا.ولم يودعه أحد ، قطع المسافة من الواحات إلى المدينة طائرا، ولم يدرك أنه كان فى الأصفاد إلا وهو يخرج من (قسم الرمل)..

•••

استقبله الشاطئ والبحر ،فى لقاء من اعتاد أن يفضى إليه بمكنونه ، وقف على حد الموج، بلل قدمه بماء ديسمبر البارد ، وفى عينيه نظرات عتاب ، كيف تتسانى يا بحر وأنا لم أنسك مطلقا ؟حتى، إذاعربدت فوقك النوات القادمة من الشمال ، وهدرت فوقك الرعود، وتمزقت سماؤك بشقوق البرق، كنت أنتظر موعد اللقاء بك.فى تلك الأوقات التى تصحومن يوم عاصف مطير ، ها أنا قد جئت إليك مرة أخرى (عمر الشقى بقى) تستقبلنى رمالك المغتسلة بالشتاء والمعبدة بثورة الموج !

وتلامسنى مياهك المتدفقة ، موجة إثر أخرى. خذنى بعيدا ، فتنزاح عنى الهموم.وتتخلص نفسى من أدرانها .. !

•••

كان يكفيه من مدينته استقبال البحر له.،ذلك السحر الذى يراه فى عمقه.وأفقه البعيد.وجلست (فتحية) فى السيارة ..أمام عجلة القيادة ..تنتظر ، هذا الذى أصر على أن لا يدخل البيت قبل لقاء البحر ، اشعلت سيجارة وفتحت جزءا يسيرا من النافذة ، عادت وأغلقتها وراحت ترسل البصر إليه ...

كان يقف وحده عند حد الموج ، والموج يأتى إليه موجة إثر أخرى .. تقبل ساقيه وقد خلع حذائه وشمر بنطاله،وكانت فتحية بداخل السيارة تسمع زئير الهواء ، وتشعر ببرودة الماء..

•••

" عندما تلامس أقدامى الشاطئ ، تتجدد داخلى الحياة فأمتلئ بالوجد - يتساقط صدأ نفسى ،أعود أضوى من جديد ،كم أتمنى لو أن لى مقاماً على تلك الجزيرة الصغيرة هناك ، أجمع عليه كل جنوحى مع وشيش الموج ، وأهذبه تحت شمس الشتاء الواهنة، لتكون بدايتى بدون أشواك "

(فتحية)أطلقت النفير عدة مرات ، استداروأتى إليها يخوض الرمال، كانت ترقب خطواته النشطة ، كم اشتاقت إلى أشيائه غير العادية ..!

استقبلته بجانبها من جديد ، كانت قد اسقطت الإيشارب فانجذبت خصلات الشعر الكستنائى إلى الأمام فى عفوية،تعربد على جبهتها . القت ببقية السيجارة ، ثم أحكمت اغلاق النافذة ، التفتت إليه بتلك النظرات التى تحضنه وقالت:

- الآن ..صرت بدون شوك ؟ ...دعنى أقطفك!

مال عليها وطبع على شفتيها قبلة ..

قالت : إلى أين ؟

قال : شقة خالك فى العجمى ، وحدنا ، انسب مكان .

قالت : يا خسارة ..خالى باع الشقة .

قال: ها قد انهار جزء من تصوراتى .

قالت: ولكنك اشتريت (شاليه) يطل على رمال شاطئ العجمى البيضاء وإن كنت لم أتمكن من تأثيثه كاملا .!

قال : أنا ، ومن أين ؟

قالت : سننطلق إلى هناك فورا ، أقسمت أن لا يطأ (الشاليه) أحد قبل صاحبه.. فى الصيف الماضى ، اقترحت والدتى أن نمضى فيه بضعة أيام ولكنى رفضت ..

قال: وهل هبطت عليك ثروة من السماء ..هل مات العم الذى هاجر إلى البرازيل فجأة !

قالت: منذ صدور (القرارات) وأنا أتوقع كل يوم وكل ليلة أنك ستطرق الباب وتدخل ، وسنكون فى حاجة إلى وحدتنا .

قال : من أجل بضعة أيام تنفقين ثروة .. ؟

قالت: أيامى معك أثمن من أى ثروة..

قال: يا لك من مسرفة ،أنا الآن ، كمن فقد النطق وفى حاجة إلى (خبيرة) تعلمه كيف يتحدث من جديد – وهذا قد يستغرق شهورا ..

– دع الأمر لى .. الدرس الأول ..لا تتحدث فى الماضى.. عقد الشقة باسمك*ستجده أول من يستقبلك هناك ..

– الشقة باسمى أنا ..لماذا ؟ وكيف؟

– أنا لم أدفع من مالى شيئا !

صمت قليلا . ثم أخذ يضرب براحتيه على ركبتيه ، وأخذ يهز رأسه رافضا.. قالت:

– ما بك ؟

– سيقولون أننى قبضت ثمن شرودى ..!

– لا أحد يبحث عن الفقر ليضع قدراته فى خدمته ..

– .. ماذا حدث فى غيابى ..؟

لم تجب على السؤال ..انتظرت قليلا ثم قالت :

- سرحان بيه .. جهز لك مفاجأة .

- سرحان بيه ؟ مفاجأة ؟ أعلم أن مشروعه حقق نجاحا.. لكن

- أووه. إنه يفكر في التوسعات الكبيرة.. ولم أكتشف المفاجأة الا مؤخرا..

- أرجو أن لا تكون سيئة ، أعطني فكرة عنها ، طبقا لمعلوماتي أن المصنع نجح..

- أسهمي مع أسهم المهندس كمال ، عشرين في المائة ..اشترى باسمك ١٥٪ ، قام بسداد ثمنها من أرباحك ، وفتح لك حسابا في البنك وضع فيه ما زاد عن ذلك ،وقد أقرضتك ثمن الشاليه ..!

- سرحان عبد العال ، فعل هذا من تلقاء نفسه ؟

" أشرق وجهه بالإبتهاج ، كان يعرفه جيدا ، ويعرف نوازعه ، سر بنجاحه الداخلي والخارجي ، ولكنه أخذ يتأمل فكرة ، أن يشترى بأسمه ١٥٪ من الأسهم ، ثم يقوم بسدادها.ويضع ما تبقى في حسابه ، اعتقدت (فتحية) أن ابتهاجه كان بالأسهم والأرباح ..قالت:

-أنا وأنت وكمال .. يصبح لنا ٣٥٪ من الأسهم ، إذا اقنعت صاحبك بأن يبيع لنا ١٦٪ من أسهمه بأى ثمن ، تصبح لنا اليد العليا في الإدارة .."

شعر بضربة شديدة تقع خلف الرأس ..نظر بشدة نحو (فتحية) التي كانت مشغولة بالقيادة تنظر في اتجاه الطريق " هل هذه فتحية التي أعرفها ..؟ إنها تدبر مؤامرة ضد صاحبي سرحان، وتسكب تفاصيلها في أذني ببساطة متناهية ، وقد فرغت تماما من تقييم موقفي،وقدمت لي الشاليه ليعبد لها الطريق إلى ضميرى ، حتى ينام ملء جفنيه ، كيف فكرت في ذلك ؟ وكيف ناقشت هذا الموضوع مع نفسها ؟ إنها تضمني إلى (عصابتها)

بقرار فوقى ! وكأنها قد ملأت يدها منى وقد صارت واثقة بأنى لن أعترض،وقد يسرنى ذلك المخطط السافل!

فى (اليوتوبيا) قد يعزلون إنسانا.. ويجعلونه ينتقد ذاته عدة مرات إذا - ما دخن سيجارة إضافية دون زملائه ، أو احتفظ بكسرة خبز زائدة عن حاجته دون الآخرين ، وها هى (فتحية راجى) تعود إلى وكرها فى أعلا الغصن من الشجرة..

وتقترح ببساطة - وقد فرغت من دك إنسانيتها - "هيا بنا نسرق صديقك ، الذى غامر بأمواله ، لننحيه عن مشروعه ، لأنه ، بطيبة قلبه حفظ لك الجميل ، ورأى إنك قد شاركت فى فكرته ، فمنحك جزءا من الأسهم ..كما أشركنى وأشرك ابن عمتى ..المتعجرف "

كيف تشاهديننى فى ذهنك يا فتحية راجى ، هل رأيت أن فترات الإعتقال جعلت منى وحشا ! وأن انتقامى لابد وأن يصب على رأس أصدقائى .

"أوه ياحودة ..إلى أين ذهبت ؟ ألم نقل لا تتذكر الماضى ."

"أناالآن لا أتذكر الماضى ، بل أتخيل المستقبل .."

جلجلت بضحكتها الفضية " ولا على بالِك - مبتهجة " وألقت بكفها على ساقة ...

الطريق الصحراوى فى هذه الأيام الشتوية يمتد فارغا أمامهما..و أبطأت من سرعة السيارة ، وتركت يدها الخالية ترقد هناك ، أمسك يدها برفق وأزاحها بعيدا فقالت فى دلال :

أرجوك، دع الخبيرة تبدأ عملها، سأجعلك تنطق بسرعة مذيع متمرس على الميكروفون ..!

كان ينظر إلى جانب وجهها ، شفتها السفلى التى تلمع ، مصبوغة ، لماذا يتذكر لون الدم، أعادت المحاولة ، غمزت له بعينها اليمنى ، عاد وقبض على أصابعها العابثة ،حتى استعانت بها لتدير عجلة القيادة فى أحد المنحنيات...

-أنت تشعر بالخجل ؟ تذكر ..أنا توحة زوجتك ؟

-لقد تبدلت كثيرا يا فتحية ، ارجعى بنا إلى جليم ..!

عاد وكرر الطلب بحزم ..توقفت السيارة .. وقال غاضبا:

-أشياء كثيرة يجب أن تحسم قبل أن نبدأ من جديد..

-يمكن حسم أى شئ فى الشاليه ..

لا يمكن.. الشاليه من المفروض أن يضم العشاق

وأصر على العودة ..فلم تجد مفرا من إدارة السيارة والرجوع بها إلى فيلا راجى بجليم .

-هل أستطيع أن أعرف سبب هذا التحول المفاجئ ؟

- كل هذه السنين ولم تعرفى محمود الرملى ؟!

على الفور أدركت أنها قد تسرعت فى طرح أفكارها،كانت من الذكاء أن تربط الكلمات القليلة التى قيلت وتدرك معانيها ، هى "الأسهم" وفكرة التكتل ضد سرحان قد أزعجته . شعرت بالندم،هى عادتها تلقى بما فى ذهنها أولا. ساد الصمت بينهما ، خيل لها أنه يقول (هل يستحق سرحان هذا ؟) وأنها لن تستطيع أن تجيب على هذا السؤال ، هى لا تدرى لماذا طرحت هذه الفكرة عليه بهذه الرعونة ، طرأت على ذهنها فألقت بها،وهى لم تفكر فيها من قبل ، كما أن سرحان .كان عزيزا عليها.وكان نعم الصديق فى غياب صاحبه،ساد بينهما الصمت....

انتظرت فتحية أن يتحدث محمود إليها كما كان ..لكنه لم يتحدث!

•••

"..تحبنى وأحبك ..ولكنك لا تؤمن بحريتى ، مثلهم ، توقع على اتفاقات دون الرجوع إلىّ ، محكومة بشرعيتك ، تضع فى معصمى قيودك المثالية ، تزج بى فى عالمك البعيد ، متى يتحطم مذبحك ؟ وتكف عن تقديمى قربانا لإلهك أنت – الرابض داخلك – حبى لك عظيم، دعنا ننسج فى عالمنا الأرضى دنيانا ، ابتعد بى عن عالمك (الفاضل)· أنت لا تشعر بتعاستى، وسنوات اعتقالك التى هدمت كل الخلايا،وخلقت خلايا جديدة أخرى،ربما أكون فتحية أخرى.التى معك الآن ،لماذا أنت كما أنت ..؟ "

كنت لى حلما مفتنا ، وحينما اكتمل رأيت حلمى روضة يلعب فى ساحتها الأطفال·أين طفلى؟ اشتهيتك لونا أخضر ، انثره على الوادى والصحراء فتكتسى بالخضرة والأشجار التى تضرب بين أغصانها الطيور ويتبادل العشاق فى أكمتها القبل .."

" كانت فتحية لا تزال صامتة..!"

" عندما طرحت اغنيتى عليك ، أضعف البعاد صوتها ، أنت لا تكف عن الإبتسام وفى قلبك كل هذا الشقاء ، وجهك المستدير ينضح بالحيوية ، ما الذى يجعلك تتقبل كل هذا العناء بصدر رحب ،تبتسم فتحفر الغمازتين فى وجنتيك بركتين يغمرهما الفرح ، أرى منك مالا يراه الناس. هل أنا بلهاء والى هذا الحد..؟

" كان محمود لا يزال صامتا ..! "

***

ومن ڤيلا جليم ..انتشر الخبر ، وتوافد إليه الأصدقاء والمعارف ، قبلوه كما يحلو لهم،وهى .. لم تحصل إلا على قبلة وحيدة ، قبل أن ينقلب حاله ..

وعندما أختليا كان الفجر .. يبدد ظلام الليل ، طلب منها فتح باب الشرفة..

قالت : لكن هواء الشتاء شديد البرودة ..

قال :افتحى ..ليدخل الهواء قويا ..حتى لا تشتعل بيننا النيران ..!

• حان وقت العتاب ، وكان يغالبها النعاس ، وتوقف عقلها عن التفكير ، وعندما تحدث ، اتبع منطقه القديم ، يمشى من مرحلة إلى مرحلة ، كانت متعبة ، وكانت قد قررت التسليم والإعتذار ، بينما هو يتدفق بالنشاط. سلمت كل الرايات والحصون .وأعلنت رغبتها فى السلام العادل.سألها (هل تقولين هذا تخلصا منى ، أم أن هذا القول بكامل إرادتك) هزت رأسها وألقت بها على كتفه ، وعندما احتواها بين ذراعيه ، ذهب عنها خمولها وانطلق معها دون تعثر فى النطق .إنه يتكلم الفصحى بطلاقة ..أين كان يتدرب على ذلك ؟!

قالت: كأنك شيشرون الخطيب الرومانى المفوه !

لم يجب..

قالت :أنا متيمة بك ...

رآها فى صورتها التى عشقها فيها دائما .وديعة ..أليفة.انسانية! .

كيف كنت رخاما باردا ، واليوم عدت إلىّ جسدا يمتلئ بالبهجة) عاد إليها محمود ، الذى عشقته وانتظرته .وانتظارها لم يذهب سدى...

همس فى أذنها :

" ما جعلنى أحذف سنوات البعاد وأسقطها من حساب أيامى ، الموعد المضروب دائما بيننا ، أن نلتقى ,.حقا .. انتظار الحبيب يطيل العمر .. يانوحة ... !

•••

أبلغه (سرحان) أن الاسهم ، ليست هبة منه "بل هى حقك ونصيبك فى المشروع الذى اقترحته والذى خططت له ، وأن ذلك فوق الصداقة ، عمرى كله تاجر وأبن تاجر . انظر أنا الذى فزت بالغنيمة، لقد صار لدينا الآن " ....

"واخذ يعدد ما يملكه" وانت يا محمود وقد أرسيت قواعد نجاح المصنع وأنت قريب ،وكذلك وأنت بعيد..وأنا كرجل أعمال شريف - كما اعتادت أن تقول عنى مدام (فتحية) وكما تريدنى أن أكون - فعلت ما فعلته برضاى ويخالجنى شعور بالفخر والإعتزاز..بأنى صديقك... "

لم يتصور محمود الرملى أنه سيصير يوما رأسماليا ، باسمه (أسهم) فى مصنع يحقق نجاحا ، وباسمه شاليه بالعجمى ، وبأسمه رصيد متواضع فى البنك .. أشياء استقبلها بالدهشة، ولكنها أحاطته بشعور الإمتنان والعرفان..

وقد أخضع - الموقف بكامله - للفحص والدراسة ، ولم يصل إلى حل عاجل ..عندما وجد نفسه داخل حلبة الصراع.وربما تساءل(هل فعلوا ذلك،حتى أتفرغ لهذا المشروع وأنصرف عن معركتى الأساسية ؟)

•••

كانت الأوضاع قد تبلورت دون جهد من أحد ،القوة التى يقف بينها محمود ، تتمثل فى سرحان عبدالعال (الجديد) الذى يجب أن لا يسلم بدوافعه كاملة ، فى منحه الأسهم - وفتحية راجى الشريكة الطموحة - والتى

ترى أنها خلقت لتكون(رأسمالية) تعيد أمجاد أسرتها التى انحدرت سريعا إلى الفئات الوسطى، والمهندس كمال نشأت ، الشريك الغامض.والمدير الحاذق ، ومعهم كمساعد معنوى (عبدالعظيم سليمان) الكاتب والأديب المعضد والمحكوم بالصداقة !

أما القوى الأخرى المواجهة ، فقد حصرها محمود فى (المعلم فرهود الصانت) وأركانه (سلامة البحطيطى وعبدالحميد البهتيمى ومعهم يونس حسان زوج روحية شقيقة سرحان،والذى كان يرى أن النقود (كالذباب) لا تذهب إلا للقاذورات، لذلك اغتنى (سرحان) سريعا !!

" ..لكن ..ما وجه الصراع ؟ "

هنا توقف فكر محمود أمام غموض .. الصراع بينهما...!!

لكن الصراع كان قائما ومستمرا.وكانت هذه الحقيقة التى يلمسها .. وكان من الضرورى أن يخضع تحليلاته لأوضاع كثيرة ..استجدت أثناء فترة إعتقاله،ليقترب من الأحداث ويتعرف عليها .. !

..وإن كان يتعجب أن يجد نفسه الآن مدافعا عن الرأسمالية (الوطنية) وهو الذى كان يتساءل دائما، هل هناك رأسمالية وطنية.وأخرى غير وطنية؟ . وكلاهما يبغيان الربح الوفير؟!

ومحمود لم يمخر عباب البحر جاهلا بشعابه..لابد له من دراسة الموقف بعض الوقت، ولكن سرعة الأحداث خلفت كثيرا من التفريعات ، كما كان يجب أن يأخذ فى الإعتبار..وجهات النظر لمن حوله ،والتى لا تتطابق واحدة مع الأخرى..!

***

" المصنع " بإضافة الآلات الجديدة ازداد عدد العاملين فيه إلى مائة وعشرين، وبإضافة ستة من الموظفين على رأسهم (المهندس كمال) المدير التنفيذى وسرحان الحاجولى، المدير العام ، والذى كان يعطى توقيعه على كافة المستندات المقدمة من (المهندس كمال) دون نقاش طويل (بصفته الرجل الذى قدمه له صديقه محمود، وأثبت فاعليته، إلا أن المهندس كمال لم يكن يقف على أرض محمود الرملى منذ البداية، وربما شعر (سرحان) بذلك، ولكنه فى نهاية كل فترة من العام المالى كان (كمال نشأت) يحقق له تقدما ملحوظا فى زيادة الأرباح ، وكان هذا يكفيه ،لأن يوقع له على كافة (توصياته) ويترك له الحبل على الغارب فى إدارة المصنع.واستنزاف طاقة العمال – بتشغيلهم ساعات عمل طويلة، مع إنتاج عالى الجودة، بأقل أجر ممكن، ولهذا الطريق تفريعاته، التى لا يخوض فيها، طالما كان (كمال نشأت) يحقق أرباح المشروع.وهو الهدف ،وقد يسلك للوصول إلى هذا الهدف.كافة الوسائل.لتحقيق المعادلة الطبيعية للربح،التى تتلخص فى (ساعات عمل أطول، وإنتاج أكثر، مقابل أجور أقل) لذلك قسم العمال إلى فئتين – فئة الأسطوات،وهم رؤساء الأقسام،وعددهم لا يزيد عن عشرة أفراد ، يمنحهم العلاوات المجزية،والمكافأت السخية بقدر ما يقومون بتنفيذ تعليماته بدقة – أما الفئة الأخرى فمعظمهم يعملون بعقود مؤقتة ، تقطع وتوصل،كل ستة شهور،مع تثبيت أجورهم المتدنية.أو إقلالها حسب ارتفاع وانخفاض سعر الطلبيات ، للإحتفاظ بهامش الربح المجزى.وتنفيذ التكلفة الفعلية ، والعمال المثبتون تزحف أجورهم ببطء السلحفاة،مع تشغيلهم ساعات إضافية.وعدم معارضتهم ، لحاجتهم الشديدة – وأن تكون حاجتهم

هذه دائمة - لعبور ثغرة احتياجاتهم ،بتلك الأجور الهزيلة،تحت دعوى أن العمال خبثاء ،إذا شبعوا تمردوا،وتفرغوا لمناكفة أصحاب المال !

وكمال نشأت،له سياسته - فهو لم يدع الأسطوات يهنأون بمزاياهم، إذ كان يدفع ببعض العمال الطموحين،لإلتقاط خبراتهم ، ثم يتربص لهم ومن حين لأخر - يطيح بأحدهم، حتى يضمن من الأخرين ولاءهم له،وخشيتهم منه، فىنفس الوقت ،.. كان يتفنن فى إيقاع الغرامات على معظم العمال - دون تقدير لأى ظرف - من يتأخر بضع دقائق فى الحضور،يخصم من راتبه أجر اليوم كاملا ، ويغالى فى تقدير عيوب الإنتاج،و يخصمها شاملة هامش الربح،وكافة الخصومات والجزاءات تعود إلى أصحاب المال ، ولا يخصص لها صندوق للصرف منها على أنشطة العاملين.. كما تقر اللوائح والإتفاقيات " !

وعندما تفاقمت مظالم(كمال نشأت) ورأى العمال استمرارة فى سياسة الشدة- والفصل،وتخفيض الأجر، كان من الطبيعى أن يتذمر العمال ..

قلة منهم جهروا، ومعظمهم،كانت شكواهم سرا ،ومع ذلك تشجع بعض العمال لطرح فكرة إنشاء (نقابة) ترعى مصالحهم.

وتبنى (صلاح عبدالقوى) وستة من أصدقائه فى المصنع تلك الفكرة،وأخذوا على عاتقهم إنشاء النقابة وتسجيلها - وحصلوا على توقيع أكثر من خمسين عاملا ، كما حصلوا على ترخيص بإنشاء (اللجنة).وأخطروا إدارة المصنع بأسماء الأعضاء الذين لهم حق تمثيل العمال فى تقديم مطالبهم، هنا ثارت ثائرة (الباشمهندس)واجتمع بالأسطوات ، وحثهم على ضرورة مضايقة هذه الجماعة والإستهانة بهم ، حتى يفقدو مراكزهم بين العمال،وأوصى بدقة التفتيش على الأبواب،والشدة فى توقيع الجزاءات عند التأخير،أو الغياب .

وعدم ترك (هؤلاء العمال)لأعمالهم،ومنع التحرك بين العمال،وإسناد أعمال معقدة لهم.بقدر الإمكان،مع توريطهم،وتوقيع العقوبات عليهم،وإدخال عقوبة تخفيض الأجر بنسب متدرجة ، وإذا تكرر (الإهمال) تقدم ضد المهمل مذكرة لأخذ قرار بإنهاء خدمته ..

وقال المهندس كمال - للأسطوات :

(فى كل الأحوال ،حتى ولو كان بعضهم صاحب حق-سنتخلص من اهتمامه بالآخرين ونجعله لا يهتم إلا بنفسه ، لابد وأن نجعلهم دائما فى موقف دفاع عن أنفسهم.وإذا رضخ أحدهم تكون - المكافأة - رفع كل الجزاءات عنه - فالهجوم خير وسيلة للدفاع يا أسطوات ، اجعلوهم دائما فى حالة قلق ، وعاملوا أنصارهم بنفس المعاملة، حتى ينفض الجميع عنهم ويشاع أن (النقابة) من أسباب غضب الإدارة على العمال ."

وعند ما بدأ رؤساء الأقسام فى تنفيذ توصياته - كان بعضهم يصرح فى الخفاء أمام العمال.بأنهم متبرئون من أفعاله، وأن ماعلى الرسول إلا البلاغ (أنا شخصيا لا أرغب فى ذلك ولكن ماباليد حيلة ، الباشمهندس بيده كل شئ ولا يوقف قراراته - حتى سرحان بيه نفسه .!)

ازداد تذمر العاملين ، وفى يوم ، لم يكن فى حسبان (صلاح عبدالقوى) أوقف العمال الآلات احتجاجا ، وخرجوا جميعا (معتصمين) فى حوش المصنع !

انزعج بعض رؤساء الأقسام عند حدوث (الإعتصام) وأخذوا ينصحون العمال بالعدول عن ذلك ،حتى لا يتورطوا فى مخالفة قرارات(مجلس قيادة الثورة) ويذكرونهم بأن(خميس والبقرى)أعدما فى عهد محمد نجيب باضراب مماثل !

إلا أن العمال الذين ضاقت صدورهم،وأرهقوا بالعمل الشاق،والجزاءات العديدة،صموا الآذان عن نصائح الأسطوات المتخاذلين.و الذين يخافون على (مزاياهم) (أين ضميرك يا أسطى ..وأنت ترى الظلم بعينك ولا تحرك ساكنا ، من يحجب شهادة حق فهو شيطان أخرس.وبذلك فقد - الأسطوات - سطوتهم - وصارت المواجهة بين العمال - والباشمهندس كمال .

***

كان (المهندس كمال) فى أشد حالات الهياج على أركانه من رؤساء الأقسام ، يصب جام غضبه عليهم، وقد استنفدوا جهودهم فى عدول العمال عن الإضراب دون جدوى، وعندما مرت ساعة ، تفاقم ضيقه، وأخذ يردد [كل ساعة معطلة لها ثمن ، أين تأثيركم يا أسطوات على من يعملون تحت إمرتكم ، أتعرفون عطل الساعة الواحدة كم تكلف المصنع؟!]

يعود الأسطوات إلى العمال.. يحثونهم على إنهاء الإضراب ويادار ما دخلك شر -و قبل أن يتصل الباشمهندس ويطلب البوليس ، وتدخلوا فى سين وجيم - والعمال وقد جلسوا أو وقفوا ، غير مبالين بالتهديدات، وعند نهاية السلم الذى يفضى إلى الإدارة ..التى كان (الباشمهندس) حبيسها ، يدور فى غرفته كحيوان حبيس ، كان يقف (صلاح عبدالقوى) وزملاؤه الستة - فى حالة استرخاء تام ، - لا يستطيع أى أسطى الإقتراب منهم ، وقد نصح أحد رؤساء الأقسام (المهندس كمال) بأن يستدعى (صلاح) ويتحدث معه، بصفته رئيس اللجنة النقابية ، لكن (المهندس) رفض.وخبط المكتب بيده ونهره بشدة لإبداء هذه الملحوظة - كان يود أن يفض العمال عن اللجنة ، ووسيلته فى هذا ، عدم الإعتراف مطلقا (بشوية العيال)والإقلال من شأنهم!

وخرج إلى بسطة السلم الذى يطل على الحوش ، وأخذ يرمق العمال فى غضب.كان قد أسند بعضهم ظهره على الجدران ومدوا سيقانهم على الأرض ، قشة يلوكها فم فى بطء،وحصاة تفركها أصابع خشنة،و قبضة تضم أصابعها ثم تعود وتبسطها ، وذبابة حائرة أمام أرنبة أنف،وعيون مغمضة نصف إغماضة ،و ساد الهدوء الثقيل حوش المصنع بعد أن كف اللغط ،فصاح المهندس كمال محتدا : أعرف المحرضين بالإسم ، سأتصل بالبوليس الآن ليرى شغله معكم ، العمال الذين يعملون بعقود،إذا لم يقوموا فورا ويدخلوا المصنع ويشتغلوا، ستنتهى عقودهم فورا ، امامكم خمس دقائق، إذا لم تدر الآلات بعد خمس دقائق - الذباب الأزرق لن يعرف لكم مكان جرة!!

لم يحرك أحد ساكناً..سوى أن أسطى من الأسطوات.. هبط درجات السلم ثم عاد و صعده مرة أخرى !

رفع ، أحمد موسى ، سكرتير اللجنة النقابية،وجهه نحو بسطة السلم.وقد وقف المدير - لكن زميله صلاح عبدالقوى،كان يقف هادئا،وهنا تحرك "أحمد" حتى ظهر بكامله للمهندس،وصاح نحوه :

- اسمع يا باشمهندس - كل العمال فوضوا الأخ صلاح لمقابلة سرحان بيه ، ولن يدخل أحد، من العمال المصنع،لأن آلات المصنع وماكيناته من الآن أصبحت فى عهدتنا ، ولن نسمح لأحد أن يقوم بتخريبها ،والإضراب مستمر حتى يأتى سرحان بيه بنفسه.ويتفاوض معنا . بلغ سرحان بيه بالحضور .. عندك التليفون!

وانتفض السيد البرس (عضو اللجنة) كان عصبيا.ونحيفا.وقد انتفخت عروق رقبته وصاح :

- إذا كان سرحان بيه كما تدعى في جيب بنطلونك يا باشمهندس، طلعه لنتحدث معه !

دمدم (كمال) وهو يضرب درابزين السلم بيده ، وصاح موجها حديثه للعمال:

- أنا سأعطيكم آخر فرصة ..من لم يدخل للعمل فوراً .. ذنبه على جنبه

استدار في عصبية،ودخل باب مكتبه ،وخبط الباب في غضب،وسارع إلى جهاز التليفون، كان يقف عند النافذة ، وأخذ يصيح متعمدا أن يسمعه العمال ..

- سأستدعى البوليس ، والإضراب ممنوع ، سيقبض حالاعلى صلاح عبد القوى وأحمد موسى والسيد البرس - سترون بأنفسكم ، لن أرحم منهم أحدا، وسأقطع عيشكم ، ولن يعتب أحدكم باب المصنع اعتبارا من الغد (فاهمين)، وعندما أدار قرص التليفون ، أمسك بيده أحد الأسطوات وقال له مترفقا،ومظهرا بعض الحزم له :

- يا باشمهندس لا تتعجل ، إنهم يريدون عرض شكواهم على سرحان بيه ، اضرب له تليفون يسرع في الحضور ، وتنتهي المشكلة ، العمال معظمهم من باكوس ، وتم تعيينهم بواسطة المعلم فرهود ، وتعلم أن المعلم فرهود هو عم سرحان بيه ، و صلاح، ابن الأسطى حسين عبدالقوى ، الذى يقوم بصيانة آلات المصنع وتصليحها لدى ورشة الحاج جابر ..وصلته وثيقة بصاحب المال ..

كان المهندس كمال .. يقاوم الإسترخاء الذى حل به ، ويرى أنه بذلك ستبوء سياسته بالفشل - كمدير تنفيذى - وفى انتفاضة مباغتة، عاد يحتدم من جديد ويهدد،ويتوعد ،بأن نجاح العمال وفرض إرادتهم (علينا)

ستكون بداية سلسلة من الإنهيارات .وحتى أنتم كأسطوات لن يكون لكم شأن يذكر، فيما بعد.سيتحول كل شئ إلى (شوية العيال' بتوع النقابة.. ؟
ومع ذلك تم الإتصال بسرحان بيه ولم يكن متواجداً فى منزله ..

•••

وصلت سيارة سرحان بيه ، عندما دخل إلى الحوش ، لم يسمع صوت الآلات ، اعتقد أن الكهرباء مقطوعة ، لكنه فوجئ بالعمال يتناثرون فى الحوش فى مجموعات.،. ليس من عادة العمال أن يروه فلا يتحركون وقوفا أو انصرافا من أمامه ، توقف برهة ينظر إليهم.وهو يعبث بسلسلة المفاتيح ، أخذ الجميع يرمقونه دون كلام ، كأنهم يتيحون له فرصة هدوء - يلتقط فيها عبارات المهندس كمال ..وهو يهددهم ويتوعدهم من نافذة مكتبه ويصيح طالبا البوليس (بلاغ إلى بوليس النجدة والمحافظة)وبعض الأسطوات يحاولون تهدئته-ويطلبون منه انتظار سرحان بيه ،عندما سمع (سرحان) اسمه يتردد،نهب درجات السلم صاعدا ، وخطف من يد المهندس سماعة التليفون ..وقال فيها :

- آسفين يا أفندم ،أنا سرحان عبدالعال الحاجولى - صاحب المصنع - من فضلك أوقف البلاغ ، آسفين للإزعاج .

ألقى بالسماعة فوق التليفون بعصبية ، وأخذ ينقل النظر فى وجوه رؤساء الأقسام ثم تجاوزهم واستقر على وجه المهندس (كمال) المتوتر.وتمالك نفسه وهو يقول :

- لماذا توقف المصنع ؟

- صلاح،وشوية عيال. حرضوا العمال على الإضراب و..

- من فضلك ياباشمهندس ، صلاح عبد القوى (وشوية العيال) شكلوا نقابة سمح بها القانون، كان المفروض أن تحملهم مسئولياتهم ، اتفضلوا يا أسطوات.انزلوا شوفوا شغلكم - وامسك بذراع كمال نشأت .

- تسمح ياباشمهندس.تدعو أعضاء اللجنة النقابة فورا ليجتمعوا معنا ..ونرى مطالبهم؟

وكأن كمال تلقى لطمة على وجهه الشاحب!

-أنا يا سرحان بيه ؟ أعتقد أن ..

حاول أن يحتج - أن يجعل (سرحان) خارج هذا الموضوع - أن يظهر له أن هذا من اختصاصاته **وحده** ..

لكن سرحان - ربتَ على كتفه وابتسم فى عينيه .وقال :

- ليس هناك مبرر لأن يكون بينك وبين العمال عداء يا باشمهندس،دعنى أهدئ الأمور وأحلها لك .. !

قال المهندس كمال :

- ياسرحان بيه ، هذا خطأ فادح..العمال ،إذا أعطيتهم أصبعك أكلوا ذراعك .. .

نظر سرحان إليه مندهشا" محمود"يعتبر العمال مجاله الحيوى ومشاكلهم تؤرقه..هل خدعه محمود ، أم أن المهندس (كمال) قد خدع صاحبه ..!"

قال وهو ينصرف عنه :

-ماهو الخطأ الفادح ياباشمهندس ..

كان الصوت..يدوى على رؤوس العمال فى حوش المصنع..الذى غرق فى السكون - وربما كان (سرحان بيه) يتعمد أن يصل صوته إلى العمال وهو يقول :

-الخطأ أن نعمل أذنا من طين وأذنا من عجين ، ونتعرض للخسارة..الخطأ الفادح هو تأخير تسليم الطلبيات،وعدم اللحاق بمواعيد التصدير ، الخطأ أن يشاع أننا نأكل حقوق العمال يابشمهندس..والثورة قد وضعتهم على رأسها وتحاول الحكومة إرجاع حقوقهم .. !

قال المهندس كمال بصوت خافت :

-لكن هذا سيجعل من صلاح وأصحابه أبطالا أمام العمال ..

-وماذا يضيرك فى هذا ؟ أنت ياباشمهندس الذى أوصلت الأمور لذلك،أليست لك نقابة مهندسين تحمى مصالحك ؟

ثم وجه كلامه إلى رؤساء الأقسام:

- من فضلكم ياأسطوات أبعثوا لى بأعضاء اللجنة النقابيه

كان صوت سرحان قد وصل إلى العمال فابتهجوا ، وكان يشد بعضهم على يد الآخر مهنئين ..وقد دب فيهم النشاط ..وتهيأ أعضاء اللجنة النقابية للمقابلة ،نزل الأسطوات ، فرحين ، يزفون البشرى للعمال ، أحدهم أدعى أنه أقنع سرحان بيه بفكرة الإجتماع باللجنة النقابية بدلا من استدعاء البوليس ، وآخر يربت على ظهر (صلاح) مشجعا ويغمز له بعينه ويضم قبضته ويهزها علامة (الوحدة)

واعتبر هذا أول نصر تحققه (النقابة) على (المدير التنفيذى)وسرى النشاط كالتيار الكهربائى فى أوصال العمال ، تقاربوا ، تكتلوا جميعا فى كتلة واحدة عند نهاية السلم ، همهمات ووصايا ، وأعضاء اللجنة قد التصقوابعضهم البعض.حتى استحالوا جسدا واحدا ،حدث هذا تلقائيا، فهى تجربتهم الأولى ، ولا يدرون ماذا ينتظرهم فوق !

ولم يبدد رهبتهم أن بعض الأسطوات تحولوا فجأة إلى مناصرين للنقابة ، وكان من الأسطوات من يفسح لهم الطريق ويطلب من العمال الهدوء

•••

بينما كان ما يشغل بال "صلاح" بجانب فرحته بأن (الإضراب) قد انتهى أو على وشك الإنتهاء على خير ، أن (المطالب) التى فكر فيها كثيراً، قد تبخرت جميعها من رأسه ، ها هو يصل إلى ما تصور حدوثه وتخيله بالفعل بل وتمناه (سرحان عبد العال) يطلب الإجتماع بهم - ولكنه يحاول أن يقبض على شئ مما كان (يزعجهم) فلا يجد فى ذهنه إلا الوشيش، ماذا سيقول لصاحب العمل ؟

كان فى حاجة ماسة إلى - الإجتماع - بزملائه لمدة نصف ساعة على الأقل ، حتى يستعيد توازنه ويتذكر ويرتب سلسلة (الطلبات) التى يجب أن يرصها أمام سرحان عبدالعال فى جرأة، على اعتبار أنها حقوق العمال .

وكان يفكر ، هل يصعد ومعه زميله (عبدالمنعم) الموظف الذى كان يختلج وقد هربت الدماء من وجهه ؟ أم يكتفى بأن يصحب معه (أحمد موسى) ، ومعروف عنه الجرأة؟ ، هل يتكلم هو بصفته رئيس اللجنة ، أم يترك الحديث للباقة أحمد موسى ؟

ولكنه يعرف أن لباقته قد تجرهم إلى صدام مع سرحان بيه ! .

كان ثلاثتهم ، الرئيس، والسكرتير، وأمين الصندوق، يكاد من تلاحمهم أن يصيروا شخصا واحدا، وعندما تعلق بذراع عبدالمنعم وأحمد موسى شعر أحمد موسى بحيرته و التفت إليه وقال :

- الأفضل أن ينضم لنا باقى الأعضاء ..

هز رأسه موافقا ، وأفسح لهم العمال مكانا من بينهم ، فخرجوا منه إلى السلم ..صاعدين ..

..كان العمال يشجعونهم ، والأسطوات يطلبون منهم الهدوء ، وصلاح قد أغلق انبهاره الطريق أمام أفكاره .. ذهنه لا يزال مشوشا،وطنين يملأ أذنيه ، ما فائدة هذا الحماس الذى يمور فى صدره وهو لم يرتب طلباته بعد ؟

هل تتحول – هذه الفرصة الثمينة التى نضجت تلقائيا – إلى تقديم بعض الشكاوى ضد (الباشمهندس) ؟!

وفى ذهنه أن هذا سيثلج صدر المدير العام ، وقد يعدهم ، بأنه سيتدخل ، وينتهى الأمر .

اللجنة لم تخطط (للإضراب).ولكنه حدث.تعبيرا عاما عن عدم رضاء معظم العمال عن (سياسة) الباشمهندس فى إدارة المصنع .

وإن كانت(اللجنة) قد استثمرت هذا السخط العام ،وحولت الجزئيات المتناثرة ،إلى موضوع جدير بالبحث ، لتضعه أمام نظر (سرحان بيه) ثم تقف على هذا الإرتفاع ، ليكون للجنة قامتها العالية.فتطلب إلغاءالنظم السيئة ..وإضافة (مكاسب) جديدة للعمال . . .

..وشعر صلاح أن بعض – أعضاء اللجنة لديهم شهوة جامحة للكلام مع صاحب العمل ،من باب حب الظهور، وكان يدرك بأن كلامهم سيكون مجرد كلام ليس له وزن، فأضيف إلى عقله الذى يهدر هماً آخر، وهو فى حالته المرتبكة ،فوجئ باستقبال (سرحان بيه) يرحب بهم ببشاشة ابن البلد ،سلم عليهم باليد ،وطلب منهم الجلوس ، ونادى بعضهم باسمه كاملا –

-أهلا بكم جميعا ومبروك عليكم النقابة ، لعلكم تعرفون الفرق بين النقابة عندنا والنقابة عندهم؟!

قال (على موسى) الأخ الصغير لسكرتير اللجنة :

- المصنع كان به أقل من خمسين عاملا - لو كان عددنا مناسبا لشكلنا النقابة منذ..

لكزه شقيقة أحمد .. فكف عن الكلام ،وواصل (سرحان بيه) - " النقابة اليوم لها مهمة أساسية ، بجانب الحفاظ على مكاسب وحقوق العاملين وهذا أمرطبيعى ،فى ظل ثورتنا المباركة ، فهى تعمل أيضا على زيادة الإنتاج ، وإلا فشلنا ، وعاد الخواجات ثانية،وتحولنا جميعا -مثل زمان - مواطنين من الدرجة الثانية، المصنع مصنعكم ،ونحن جميعا نستفيد من إنتاجه ،وإذا تعطل ،الخسارة تكون على رأس الجميع ، أليس كذلك ياصلاح .؟!.

وكان يبتسم فى وجوههم .

قال السيد البرس ، بغضب يتجاوز حالة البشاشة التى قوبلوا بها :

- نعم يا سعادة البيه المدير ، المصنع إذا تعطل تكون الخسارة عل دماغنا ،لكن إذا اشتغل تأكلون منه البقلاوة، ونحن لا نجد حتى الفتات، واذا ما منحتونا الفتات، سنجد هذا الفتات فى حلوقنا مرا ، ليس فى هذا عدل، ونحن نطفح الدم ..و.. "

انتظر (سرحان بيه) حتى أفرغ السيد البرس ثورته، وعندما حاول أن يرد استمر (البرس) فى سخطه ، تعلق أحمد موسى بذراعه - فسكت بصعوبة - ساد الوجوم بعض الوقت ، وواصل (سرحان بيه) توجيه حديثه ، وهو يرمق صلاح الذى نكس رأسه وأخذ يتأمل خيوط السجادة- قال:

-أكون ظالما بالفعل لو أنى فكرت أن - العمال كلهم يتفقوا على الإضراب ويوقفوا الماكينات ويقرروا الخروج إلى حوش المصنع دون أن يكون هناك (ظلم)،من المؤكد يوجد شئ خطأ،بل أشياء كثيرة أدت إلى هذا .."

رفع صلاح وجهه اليه ،وجميع أعضاء اللجنة ينصتون بانتباه ، اشعل سرحان بيه سيجارة ، ثم قال فيحزم: أولا ..المكن لابد وأن يعمل حالا والعطل سيكون على حسابكم - المقطوعيات تسلم كاملة ،حتى إذا اشتغلتم فيها للصباح ، وبعد ذلك سنرى، مع بعضنا ، ماهو القصور والظلم الذى جعل العمال كلهم يحتجون عليه بالإضراب .

كان (سرحان) يتحدث وينتظر أن يقاطعه (صلاح عبدالقوى) ليسمع منه ..وربما طافت في ذهنه صور لبعض من كان يقابلهم فى (اجتماعات) محمود الرملى، من الشباب الذى كان يمتلئ بالحماس لدرجة عدم النطق- ولم يطل انتظاره ، تكلم صلاح -كان صوته مبحوحا ،ولكنه سريعا ما تخلص من رهبة اللقاء :

- نحن نعرف ياسرحان بيه ،إنك رجل ابن بلد أصيل ، ونسمع عن والدك الله يرحمه (كان جدع) ويحمى الضعفاء،وكانت يده سخية ،وتعرف سيادتك أن (الباشمهندس كمال) يستغلنا ويجور على حقوق العاملين وكثيرا ما قدم الوعود _ ولكنه لا يفى بشئ -إنه يوقع علينا كثيرا من الجزاءات والخصومات و... "

كان سرحان - قد جلس خلف مكتبه ببطء،وكأنه يخشى أن تفوته كلمة من كلمات صلاح، وقد اعجبته هذه المقدمة ، ورفع اصبعه فى وجه صلاح قائلا:

-اسمع ياصلاح ..لم يتقدم لى أى عامل بشكوى ،أو تظلم، وأهملته ،عبدالمنعم (انتبه عبدالمنعم ..وهم واقفا) كل التظلمات من الخصم أوالإهمال ..التى أعدت النظر فيها وخففتها ، تعمل بها ملفاً ويكون تحت نظر اللجنة ، وبما أنك فى اللجنة الآن لماذا لا تحيطهم علما بذلك؟

هب السيد البرس ..ثائرا ..

- ياسرحان بيه .. الباشمهندس كمال يدير المصنع وكأنه عزبة أبيه .ويوقع علينا الجزاءات (عمّال على بَطال) وسيادتك (مصدره لنا،وعاطينا الطرشة)

قال أحمد موسى وهو يجذب السيد البرس ..ليجلسه ويسكته:

-من فضلك يا أخ سيد ، دع فرصة لرئيس اللجنة يكمل كلامه .

قال صلاح عبدالقوى :

-المصنع أولا وأخيرا مسئوليتكم يا سرحان بيه ، وأنت صاحبه ..

قال سرحان ليلطف الجو المتوتر :

تعرفوا يا أولاد.مَنْ مِنْ المساهمين فى هذا المصنع؟ ،محمود الرملى.نعم المناضل محمود الرملى – الذى من أجل الناس (الغلابة) يطلع من قضية ليدخل فى قضية..أى والله العظيم !

غمغم أحمد موسى ..مندهشا :

– محمود الرملى ..محمود الرملى ؟

أجاب سرحان عبدالعال :

-محمود الرملى ..صديقى .وهو زوج السيدة فتحية راجى ،الباشمهندس كمال،ابن عمتها !

قال أحمد موسى :

-نحن نسمع عن المناضل محمود الرملى ..ولم نكن نعلم أنه زوج السيدة فتحية راجى.ونسيب المهندس كمال ، العملية هكذا ، اختلطت ياسرحان بيه ..

قال سرحان عبدالعال ..وهو يقف خلف مكتبه ويتحرك:

-برغم أنى أكبر من محمود الرملى بثلاثة أعوام إلا أنى أعتبر نفسى تلميذه.

قال أحمد موسى :

-إذا كان الأمر هكذا ، فنحن واثقون أن سيادتكم ..ستستجيب لطلباتنا..

قال (سرحان) وقد خرج من خلف المكتب ، ليضع يده على كتف أحمد موسى تارة.وصلاح عبدالقوى.تارة أخرى ..

- قبل أن نتحدث فى هذه المطالب ، أنا موافق مقدما على كافة طلباتكم إذا كانت معقولة ..

قال صلاح:

- الطلبات معقولة جداً ونحن لا نطلب المستحيل ، وهى تتلخص فى الآتى.

ضحك سرحان عبدالعال .. مقهقها..قطع محاولة صلاح أن يعدد على أصابعه تلك المطالب . . . سرحان بيه . هو الذى راح يعدد على أصابعه قائلاً:

- عمال العقود نطالب بتثبيتهم ليمكنهم الحصول على علاوات . وعلاوات متساوية للذين يعملون أعمالا متشابهة . وصرف حوافز إنتاج.وأن تحتسب ساعات الإضافى مضاعفة لمن يعملون فى الوردية المسائية، وأن يكف الباشمهندس كمال عن توقيع الجزاءات على العمال إلا بعد التحقيق.وعرضه على المدير العام و.. صرف ملابس للعمال مرتين فى العام.وماذا أيضا .؟

تبادل أعضاء اللجنة النقابية النظرات المتسائلة ، وهم يندهشون أن سرحان عبدالعال قد ذكر على مسامعهم - مطالبهم. وكانت دهشة صلاح ،أقوى ،

لأنه كان حائرا كيف يرتب مطالبه ويعرضها بينما سرحان - قد قام بسردها وكأنه رئيس اللجنة النقابية.. تحولت الدهشةعلى وجوههم .الى حالة من الإنشراح إلّا أن السيد البرس كان لا يزال غاضبا.. قفز من مكانه وتقدم نحو سرحان بيه قائلا :

- تعرف سيادتكم مطالبنا ... مجرد سردها على مسامعنا هى سخرية بنا ، وإلا فلماذا لم ترع هذه المطالب ليبارك الله لك فى رزقك ..و.. "

عاد وأسكته أحمد موسى.كما أن سرحان بيه لم يعط تعليق السيد البرس اهتماما ، وأنصب اهتمامه على صلاح وأحمد موسى.وكأنه قد توصل .إلى (الخيط)الرئيسى.فلا ضرورة لغيره- إنهما أقوى شخصيتين **من** أعضاء اللجنة ، فأختصر الطريق ، قال سرحان ..ضاحكا :

-ستكتبون مذكرة بمطالبكم .. أو أمليها عليكم ؟ .. وسنبحث كل طلب على حدة.. !

" الآن تفضلوا شوفوا شغلكم ، أريد منكم تعويضاً لهذا الوقت الضائع "

ومد يده ليسلم عليهم ، منهيا اللقاء، تقدموا للسلام عليه ، بعضهم تنفس الصعداء ، سلم على الجميع باليد،و السيد البرس العامل الغاضب انحنى حتى كاد يقبل يده ، وبعضهم لمسها فى وجل ،وعندما أمسك بيد صلاح ، كان قد أمسك بذراع أحمد موسى أيضا..قال لهما :

- اسمع أنت وهو، اعتبرونى عضوا معكم فى اللجنة النقابية ، واعتبروا المصنع مصنعكم ،ماترونه ملائما تعالوا إلى مكتبى واعرضوه.أو تعاليا إلى بيتى فى أى وقت، نتقابل ونتحدث،وأى مشكلة تصادفكم سأعمل جاهدا على أن نضع لها حلا ،مفهوم يارجال ؟!

•••

ماكاد أعضاء اللجنة ينصرفون من مكتبه ويهبطون السلم إلى عنابر المصنع ،حتى تجمع حولهم العمال ومشوا بهم إلى داخل الأقسام ، وجرى خلفهم الأسطوات،وما هى إلا لحظات حتى ارتفع هدير الماكينات ، يغطى على كافة الهمهمات والكلمات المتناثرة .."

وابتسم سرحان بيه ، وهو ينفث دخان سيجارته ،وإذا بالمهندس كمال يدخل عليه محتقنا، كان لايزال غاضبا ويعتبر ما حدث ، تدخلا سافرا فى مهامه واستهانة بأرائه وبه شخصياً... !

كان يمسك بورقة - يريد توقيع سرحان بيه عليها - بأن يعفيه من إدارة المصنع، ضحك سرحان فى وجهه بعد أن تطلع فى (الإستقالة)

-خيرا يا باشمهندس ..؟

قال المهندس كمال وهو لا يزال مكفهر الوجه:

-أشعر بالتعب ..سأعود إلىمنزلى لأستريح ..من فضلك وقع لى على هذا الطلب" قرأ الورقة وألقى بها على المكتب وقال:

-أليس هذا أفضل من ..

قاطعه المهندس كمال:

-المصنع يتعرض لمنافسة القطاع العام المدعوم من الحكومة ،إذا لم تكن التكلفة ملائمة ،حتما، سنتعرض لخسائر،لا يمكن تعويضها، الحكومة إذا منيت بالخسائر، تعوض ذلك ، لكن نحن ياسرحان بيه إذا خسرنا ..من الذى يعوضنا ؟نحن لا نملك إلا وظائفنا وتلك الأسهم.. !

بقى المهندس كمال يتكلم ،حتى أزال الحبور عن وجه سرحان عبدالعال الذى كان يعتقد،أنه قد احتوى المشكلة،واللجنة النقابية .

وعندما صمت (كمال) كان سرحان قد وقف على أرضه ، إذ قال بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه :

- اطمئن يا باشمهندس ..لن يطولوا من أصابعنا قلامة ظفر ، إنهم زغاليل ، لم يطلع لهم ريش بعد - فى إمكاننا إذا ماحوطنا عليهم -أن نعلمهم الطيران فى باحتنا..نحن.والطيران سيكون لصالحنا .. !

وعندما تمعن المهندس كمال فيما قاله سرحان - ابتهج وقال باندفاع صبيانى :

- نعم ،ماذا قلت ياسرحان بيه ..؟

تردد سرحان فى إعادة ما غمغم به .واكتفى بأن قال :

- ما سمعته جيدا ..(ياأسطى) كمال ..!

•••

لم يمر وقت طويل حتى تم تعيين (سلامة البحطيطى) رئيساً للعمال - هلل العمال فرحين لإبعاد المهندس كمال،واقتصار عمله على إدارة المبيعات والمشتريات، كان من رأى أحمد موسى " أن سلامة البحطيطى أسوأ كثيرا من المهندس كمال، وسريعا ما التف حول (سلامة) كافة العاملين الذين تم تعيينهم بواسطة "المعلم فرهود".و فى أول صدام مع سلامة البحطيطى- الذى كان يتعمد مضايقة (اللجنة)ومن معهم ، أعلن (سلامة) أن النقابة لم تأت بالإنتخاب ، وأنها لم تحصل على ثقة نصف العاملين..!

وجرهم إلى .. انتخابات جديدة ،تحت دعوى أهمية أن تطبق مبادئ الثورة فى حياة ديمقراطية سليمة - وأن يكون كل شئ بالإنتخاب الحر،وأن يقول كل مواطن رأيه ويدافع عنه ..!

أعلن ذلك ولم يهدأ - فقد خطط بذكاء - لإسقاط نقابة (صلاح عبدالقوى - وأحمد موسى) ليأتى بنقابة - تكون طابورا خامسا له ،وتعهد بأن يقدم لهم شيئاً من مال الجزاءات،ليقدموا بعض الخدمات للعاملين " رحلة ترفيهية إلى شاطئ بحر أبى قير - أو المعمورة - وربما قصر المنتزه - ليرى العمال (كيف كان يعيش الملك .)

بالفعل - أسفرت الإنتخابات الجديدة عن سقوط (تشكيل) صلاح عبدالقوى .. والأصدقاء السبعة - يفشلون جميعاً في الصعود إلى اللجنة الجديدة - التى تشكلت برئاسة - سلامة البحطيطى ، رئيس العمال بالمصنع.

وقال سلامة البحطيطى وهو يتقبل التهانى . .

- ألم نقل لكم أنهم زغاليل ؟!

[أركان المعلم فرهود]

*سلامة البحطيطى

« رجل ممصوص ،عصبى،عروق الرقبة والجبهة نافرة ،من يراه، يعتقد أنه منقوع فى (الكركم) عيناه الجاحظتان تبدو فيهما العروق الحمراء الدقيقة حول البؤبؤ العسلى ، تجاوز الأربعين بقليل ، كان قد ورث -عن والده - دكانا لتجارة الأوانى النحاسية أمام (إسعاف باكوس).وورشة صغيرة لطرق النحاس فى منطقة غبريال ،عندما كانت حقولا ونخيلا ..

تزوج ثلاث مرات ، ولم ينجب إلا (عباس) الكسيح،من زوجته الثانية ، احتفظ بالسيدة عديلة ،الزوجة الثالثة، مرغما، مع طباعها الشرسة وبدانتها المفرطة.وإدمانها التدخين بشراهة ،وذلك لرعاية ابنه (عباس) الذى أصيب بالشلل منذ طفولته،على أثر حادث سيارة أقعده عن السير ، أنفق "سلامة" على علاج أبنه معظم ما ورثه، ولكن (عباس) بقى منه الرأس والصدر والساعدين يشملهم النمو الطبيعى، ولا يشمل باقى الجسم.وكان لا يستطيع الحركة على ساقيه الرفيعتين فوضع على عربة ذات عجلات ..

وعندما تحول (الناس) من اقتناء واستخدام الأوانى النحاسية فى مطابخهم ,إلى استخدام الالمنيوم والبلاستيك ، أفلس (سلامة البحطيطى) ، ووجد متسعا من الوقت يمضيه فى خدمة (المعلم فرهود) .الذى ضمه ,إلى معاونيه وأخذ يعينه بالمال بقدر محسوب.!

كانت السيدة (عديلة التخينة) بجسدها الهائل،ومقعدتها الضخمة ، تدفع عجلة الشاب عباس العاجز فى شوارع وحوارى (أرض الموز) وأرض سموحة الجديدة، بغرض-الترويح عنه ،ثم تتوقف لتشعل سيجارة من

سيجارة ، إذ كانت تدخن بشراهة،وكان العيال الأشقياء الذى تمتلئ بهم الحوارى الضيقة ، والذين بخبثهم كانوا يعرفون أن عديلة التخينة بطيئة الحركة، وبشعة الصوت، ولن تستطيع ملاحقتهم، كانوا يعاكسونها ويلقونها بالحصى والكلمات البذيئة ، وكلما أصابوا إليتها الرجراجة (بطوبة) ضحكوا،واختبأوا فى الحنايات و النواصى ، فكانت عديلة تثور وتخور وتهدر وتطلق صوتها الغليظ الخشن مستخدمة قاموسها الخاص من الشتائم التى تشمل آباءهم وأجدادهم !

كان ذلك يثير العيال اكثر.وقد وجدوا فيها ما يسليهم، فيعيدون الكرة ويقلدونها على الأرصفة ، وهى تدخن باستمتاع وتخرج الدخان الكثيف من أنفها وفمها ثم وهى تهدر بالشتائم المسفة ...

وكانت (عديلة)تشكو لسلامة وتمتنع عن اصطحاب ابنه ليشم الهواء. يرجوها ،فتحرن عن الخروج به من البيت ..

-ياست عديلة اطلعى وزقى عجلة عباس ، وأنا سأراقبك عن بعد ، العيل الذى سيتعرض لك بسوء سأكسر رقبته ورقبة أهله.ومن يتشدد له ..! "

بعد إلحاح، وهى أيضا زهقانة من حبسة البيت وكآبته ،توافق على مضض

" ربما دفع ذلك -البحطيطى - لينتقم لها من الأولاد الشياطين "

أخذت تدفع العربة وعباس يرجو والده، أن لا تكون فسحته هذه سببا لمزيد من المشاكل،وإلا فهو يفضل المكوث فى البيت ...

والبحطيطى تخلف بعيدا يراقبها،وينتقل من كتف باب.إلى كتف آخر ، حتى لا يلحظ العيال وجوده معهما ..

وفى ذلك اليوم،انقض البحطيطى على العيال الذين شرعوا كعادتهم فى معاكسة (عديلة التخينة) وتمكن من الإمساك بولدين صغيرين ، لم يستطيعا

الرمح بعيدا كالباقين ، وبكل ما فى صدره من حنق وضيق ، انهال عليهما صفعا وركلا ، بلا رحمة ،حتى أن (عباس) كان يصيح باكيا (كفى يا أبى الولدان قد يموتا فى يدك ،لأجل خاطرى أطلقهما)لكنه لم يطلقهما إلا ووجهيهما متورمان- وقد أرضى ذلك (الست عديلة) التى اشعلت سيجارتها بعود ثقاب، بعد أن وجدت السيجارة الأخرى قد انطفأت فى طرف فمها . الذى بلله الإنفعال التشجيعى !

•••

صدم أهل الولدين وثارت ثائرتهما- لما أصاب ولديهما ، كان أحدهما ابن عامل بشركة باكوس للغزل والنسيج - والآخر ابن بائع خضروات على عربة يد ،يقف فى طرف سوق الخضار أمام مقهى الفنانين والآلاتية ..

وكان اعتداء البحطيطى قد جمع بين العامل والبائع.وأخذ كل منهما يثير حمية الآخر، وبعض الجيران يهدئون من ثائرتهما- والبعض يزيد النار اشتعالا ، للإنتقام من سلامة البحطيطى...

الجار الذى أثاره ما حدث قال:لقد ذهب عهد الفتوات ، هل سيطلع لنا فتوة جديد فى باكوس، يضرب الناس بدون سبب ، العيال عيال، كيف يجعل عقله بعقلهم ، من الذى يجعله مستقوى القلب هكذا. هل لأنه جليس المعلم فرهود ، المعلم فرهود نفسه لا يطيق الظلم ،والبحطيطى تلقيحة ياجدعان، ضيع فلوسه على النسوان والمخدرات ،والآن يأتى ليعمل لنا فيها فتوة !

•••

بين واقعة ضرب الولدين ، وواقعة محاصرة سلامة البحطيطى.والإنتقام منه بعلقة حامية .. لم يمر وقت طويل.. وقد أشيع بأنه (أكل) علقة نصفها

موت ، وأنهم بطحوه فى وجهه ،فعقد ذراعيه حول رأسه لحمايته. والضرب ينهال على كل جزء في جسده..وقد حل به الزعر.واعتقد أنها نهايته لامحالة ، وقالوا ، إنه تحمل اللكمات.وتلقى كثيرا من الركلات والرفس ، ولا البغل،وأن (الخضرى الصعيدى) كان يحمله فوق رأسه ويلقى به على الأرض كالزنبيل- وسلامة البحطيطى فى كل مرة يتوسل إليه،و لولا تدخل - أولاد الحلال - لترملت الست عديلة التخينة .!

•••

العلقة التى حصل عليها سلامة البحطيطى.بقيت حديث حوارى باكوس لعدة أيام .إذ كان والده أحد ثلاثة كبار فى السوق، وكان رأسه برأس عبدالعال الجاجولى ، ولكن فساد (سلامة) جلب لأهله اللعنة ، وعندما بحث الناس فى أصل من ضربوه، وجدوهما من الوافدين على الحى ،العامل (منوفى) وبائع الخضار (صعيدى) ولا يعرف (شيخ الحارة) من أين جاءا إلى باكوس ومتى اقاما بينهم ..!

كما أن الطريحة -التى أكلها سلامة البحطيطى ،كانت أيضا مثار تندر المتعطلين والمتربصين (والفاضى يعمل قاضى) يقول المحرضون وهم جلوس على مقهى المعلم فرهود - يشربون الشاى ويدخنون النرجيلة:

- كان الواجب على البحطيطى أن يرد على أهل العيال ، ولا يضربهم ذلك الضرب المبرح "ويعلق أحد المتعاطفين مع البحطيطى !"

- العيال قليلو الأدب.واها ليهم طالقينهم فى الحوارى دون ضابط أو رابط. يشاكسون خلق الله .

لكن قلة من الناس القدامى كانوا يعرفون أن (سلامة) الذى يعتبر أحد رجال المعلم فرهود – لن يستسلم لهذه الهزيمة.ولن يهدأ له بال ، حتى يأخذ بثأره من الذين مرمطوا بكرامته الأرض .

ويقولون بأن الست عديلة التخينة ..من كثرة التدخين، صوتها ضاع ، لما ضربت بالصوت الحيانى طلبا للنجدة.لم يخرج من صدرها سوى الفحيح!

•••

المعلم فرهود علم بالحكاية، وكعادته لا يفوته واجب، سارع بصحبة عبدالحميد البهتيمى .وزار سلامة فى البيت ، وجده نائما ، أو طريحا على السرير ، ملفوف الرأس والذراعين بالشاش كالمومياء المحنطة، ووجهه مقلوب بالإنتفاخات البنية والحمراء ، فأخذ يطيب خاطره ، وهو يغالب انفعال الضحك ..قال وهو يحملق فى جدران حجرة النوم – التى كانت يوما للبحطيطى الكبير.والإطارات الخشبية بداخلها الصور القديمة :

-الله يرحمك يا بحطيطى ،الدنيا انقلب حالها يا جدعان ،ماذا حدث؟

وقال البهتيمى: ..الحق راكبك من ساسك لرأسك يا سلامه يا خويا !

تلوى سلامة فى فراشه وأطلق سلسلة من التأوهات ..ثم قال :

-تربصوا بى يامعلم ، وأخذونى على خوانة ..

سحب (فرهود) حافظة نقوده واخرج منها عدداً من الورق الكبير – وعين عبدالحميد البهتيمى تتابعه..ودس الورق تحت الوسادة،و قال وهو يرفع ذراعه عاليا ويعيد حافظته تحت إبطه إلى جيب الصديرى تحت 'البنش' الصوف:

-لو كان لك كبير ياسلامة..ترد عليه وتشوره.لما كان هذا قد حدث لك من أصله!

وقال عبدالحميد البهتيمى : من ليس له كبير ، يشترى له كبير يامعلم !
كانت صلعة البهتيمى تضوى ومنديله لا يكف عن التجوال فوقها مزيلا للعرق..واستطرد البهتيمى :
-أنت كبيرنا يا معلم فرهود ، سلامة محقوق لك ..
ثم قفز كالقرد تقربا من (سلامة) ومال عليه يسأله :
-أم أن لك رأيا آخر يا بحطيطى؟
سارع سلامة ورفع رأسه عن الوسادة وحاول أن يرفع صدره فلم يستطع وقال بصعوبة :
-المعلم فرهود ..خيره علينا كلنا ..
وأرسل النظر إلى (البهتيمى)وكأنه يرد له صفعته ، انتشى فرهود وهو يحصل على المبايعات...وقال وهو يتهيأ للانصراف :
-شد حيلك ياسلامة ، أشوفك فى الديوان ..!
تعلق سلامة بكم جلبابه ، قال بصوت باك :
-لا أقدر يامعلمى أعتب المقهى، لا يمكن أن يرى أحد وجهى قبل ان أحصل على ثأرى وأرد كرامتى .. !
مال المعلم فرهود برأسه الكبير ، وصدره العريض فى ملابسه البلدية وعمامته السكندرية الصغيرة ، وجعل أذنه بالقرب من فم سلامة - بينما أخذ يرمق صورة البحطيطى الكبير المعلقة على الجدار - وقد امتلأت عيناه بالدموع إذ كانت موجوعة من أثر مرض قديم يتجدد فى الجو الخانق
-طلباتك يا ابن عمى ،الله يرحمك يا بحطيطى ... !
توسل سلامة قائلا:

-مُنى عينى أُضربهم بيدى فى قلب شارع السوق،والناس تتفرج،كما تفرجوا علىّ ، لن يرتاح لى بال ولن أخرج من بيتى حتى ...
هز فرهود رأسه ..أغمض عينه نصف اغماضة ..وقال :
-غال والطلب رخيص يا ابن البحطيطى ، الصعيدى والفلاح سيطردان من الحتة، لن يكون لهما أثر في باكوس وشارع السوق.
وسارع سلامة ليقول : ليس قبل أن أسففهما التراب ..!

•••

كانت الست عديلة قد تكومت عند باب الغرفة ، تتحرق إلى إشعال سيجارة ،وترقب مادسه (المعلم) تحت وسادة سلامة البحطيطى .وتفكر لو أنها قامت وزحفت إلى الوسادة ورفعت طرفها واستولت على النقود .
قال البحطيطى بصوت لاهث متقطع :
-لا أستطيع أن ارفع عينى فى الست عديلة .يامعلم ..
وعندما التفت فرهود إليها .. كاد ينفجر بالضحك ، ابتسمت الست عديلة التخينة فى وجهه، ظهرت أسنانها الصفراء متفرقة،تكسو بعضها بالتلبيسات الذهبية ، غمغم المعلم فرهود وهو يمتعض ؛ النفس الحلوة لها الجنة ياسلامة ياخويا ..!

•••

عبدالحميد البهتيمى أحد آركان الفنط فرهود - وملازمه فى الديوان .

لم يتجاوز العقد الخامس ، كان يعمل مدرسا بالصلاحية فى مدرسة خاصة بشارع (عبد المطلب) الذى يفضى إلى محطة السكة الحديد، ولخلاف نشب بينه وبين الناظر الأزهرى ، أسس مدرسة أولية فى بيت قديم، كان يملكه والده، فيما بعد تنازل عنه فى الظاهر - لإحدى جمعيات تحفيظ

القرآن الكريم ، ولكنه قبض نصيبه دون الورثة فى الخفاء ، وبقى يعمل معلماً فى المدارس الأولية حتى أشرفت وزارة التربية والتعليم على المدرسة ، اعتزل العمل ، ولم يتبق له سوى لقب (أستاذ) والمعلم فرهود يثق فى آرائه وحكمته ، جعل منه مستشاره وأنيسه، إذ كان المعلم فرهود أميا يجهل القراءة والكتابة!

البهتيمي رجل مَكتل الجسم، كبير الرأس، له صلعة وضاءة، ومع ذلك فهو هضيم الوجه، يغرم بارتداء البدلة كاملة من الصوف الإنجليزى الثقيل المخطط بخطوط واضحة. وذلك يتم صيفا وشتاءً، بكامل لوازمها من الصديرى، إلى رباط العنق الذى يعقده مرة واحدة ، ثم يخلعه من الرأس، فيصبح للعقدة شكل ثابت ، غير واضح المعالم. تبدو كظلطة ناعمة، عندما جاء (الأستاذ) لزيارة البحطيطى مع المعلم فرهود ،كان ممتعضا، وغاضبا، من تصرفات(سلامة) الرعناء، والتى أدت إلى إلحاق الأذى والضرر بمن يجالسهم فى الديوان !

وذلك قبل إلحاق الأذى بنفسه، وكان يرى أن العلقة التى أكلها سلامة – ليست علقة وتفوت ولا أحد يموت، ولكنها إهانة تمسه هو شخصيا، كما تمس المعلم فرهود ذاته، وقد تتضخم المسائل . ويصل الأمر إلى الإستهزاء بهم جميعا فى المستقبل، وقد تطول الإستهانة سيد الحتة ذات نفسه. !

قال لسلامة البحطيطيى بصوت يقع وسطا بين الغضب والعتاب :

-سلامتك ياسلامة ..!

كان يتحكم فى نبرات صوته حتى لا تخرج ألفاظه محملة بالشماتة

- جاءت سليمة ، كان يمكن أن يتحول الأمر إلى كارثة . . .

واغتصب ابتسامة بفمه الذى يخلو من نصف أسنانه ، دون أن تنعكس ابتسامته على نظرات عينيه الضيقتين ، فبادر سلامة بالرد عليه :

-فأل اللهولا فألك يا أستاذ .. !

و عندما رأى سلامة يلح علىالمعلم فرهود بسرعة الإنتقام تدخل قائلا:

-اسمع ياسلامة ، اصْرف النظر عن عملية الإنتقام هذه..

التفت إليه فرهود باهتمام ، وابتأس سلامة الذى يعرف مقدار رأى الأستاذ عند المعلم فرهود، خشى أن يصرف(المعلم) النظر عن معاونته وحاولت الست عديلة أن تحتج، كانت بالفعل تبرطم دون أن يلتفت إليها أحد ، وقد حطت بجانب باب الحجرة على الحصيرة، طلبا لنسمة هواء تأتيهامن باب الشقة المفتوح على حوش البيت .

أرسل البهتيمى النظر إلى الست عديلة ، وركن فمه على جانب وجهه فى شبه ابتسامة...

وقال فرهود: ماذا تعنى يا أستاذ ..؟

قال (الأستاذ) وكأنه يقرأ تقريرًا مكتوباً .

"جمعة الصعيدى الخضرى له (نجع) فى الظاهرية فى شارع الكسائى ويحكمهم (عمدة) فى زعربانة، اسمه طلبية محروس ،لن يسمح بأن يعتدى أحد على بلدياته والعملية ستكبر ، أُما (شلقامى) عامل شركة النسيج فهو فلاح من المنوفية ، لمعلوماتكما، الشركة التى يعمل فيها، ثلاث أرباعها فلاحين من المنوفية .صاروا عمالا - ولهم كبير اسمه (على عوضين) أسس لهم (جمعية) لرعاية مصالحهم ، وتحت يده عدد لا بأس به من الشباب المتهور الذى لا يستطيع كبح جماحهم ،كل ما يمكن أن يفعله بعد أن يقوم شباب الجمعية بالضرب والتكسير، هو أن يأتى (على أفندى)

ليكبس الجرح بُن وليدفع بعض التعويضات . أو أجور الأطباء ، أما الذين يموتون ، فتقوم الجمعية بعمل سرادق لهم على حسابها مع دفع أجر المقرئ ، وما يلزم من أمور الفراشة ! »

قلق المعلم فرهود ، وهو يرى الأسى يكسو وجه سلامة البحطيطى ،المعلم لا يحب أن يكسر بخاطر رجاله ،وقال للبهتيمى :

-متى جئت بقرارهم يا أستاذ .!

-هذا عملى يا معلم فرهود، نحن لانلعب ،وإلا كنا ارتكبنا حماقة وأشعلنا باكوس ناراً.

قال فرهود بضيق، وهو يذب الهواء من أمام وجهه :

- طيب - طيب ... ماالعمل يا أستاذ ليسترد سلامة البحطيطى .سلامته ويكون له (عين) حتى يجئ ويقعد معنا فى الديوان !

رفع سلامة عينيه نحو البهتيمى ينتظر ما يتفوه به .

وقال الأستاذ عبد الحميد :

-ربنا خلق الدنيا فى سبعة أيام ..

ورفع أصبعه إلى سقف الحجرة ، ثم واصل حديثه .

-ربنا كان قادراً على أن يخلق الدنيا فى غمضة عين ..

ضرب أصبعه السبابة فى صدغه . واستطرد .

-طبعا.فعل ذلك.لكى يتعظ الحمقى المتعجلون الذين لا يقرأون العواقب، سبحانة يقول لنا ..شغلوا هذا ..

وأخذ يحفر بأصبعه فى صدغة .

قال المعلم فرهود وقد ارتاحت أسا ريره :

-ونعمة بالله يا أستاذ عبدالحميد، ربنا خلق الدنيا فى ستة أيام،فى سبعة،لكن اتخلقت يا أستاذ .. !

قال البهتيمى بصوت خافت،وقد سارع ليستوعب غضب فرهود - أنا معك يا معلم ،لكنى أدعوك لكى تتسم بالصبر ولا داعى للتهور، ففى التأنى السلامة!

ألقى (سلامة) بنصف جزعه العلوى المتصلب على المخدة وهمد، وربما غمغم لنفسه (نصف العمى) كان يخشى أن ينصرف المعلم عن معاونته فى رد اعتباره فى الحتة، قال الفنط وهو يهم بالإنصراف:

-تقوم بالسلامة الأول وربنا يعدلها .

قال البحطيطى فى صوت أقرب إلى النواح ..

-ربنا ما يحرمنا منك أبدا..يا معلم فرهود ..ويكرمك يارب !

***

فى قلب سوق الخضار ، وعمليات البيع والشراء على قدم وساق،والزحام والضوضاء يصمان الآذان ، تقدم رجلان من عربة يد تتكوم فوقها أسبتة الكوسة والباذنجان والطماطم، وقف جمعه الصعيدى ، ينادى على المجنونة ، (الثلاثة بريال يا طماطم ..)

قال له الرجل الأول الذى تقدم وأمسك بحبات الطماطم بين يديه :

-ما ثمن الطماطم يأبو العم ؟

-الثلاثة بريال يا أخينا ، ولأجل خاطرك الكيلو بشلن ..

كان الرجل الآخر قد وقف خلف جمعة الصعيدى.

وفوجئ جمعه ..بأن الرجل الذى يمسك بحبات الطماطم يعتصرها بين أصابعه.وعصير الطماطم يتساقط فوق الأسبتة، بينما كان يقول :

-لكن هذه الطماطم مفعصة يا رجل يا ضلالى!

وتناول حبة أخرى سليمة وعصرها بيده ، فتناثرت على ملابس جمعة الذى احتدم بالغضب و دفع الرجل بيده ، ليكف عن هرس الطماطم ، وإذا بالآخر الذى وقف خلفه وبكل عزمه يضربه على رأسه بقبضة يده :

-كن مؤدبا مع الزبائن ..يا جحش ..!

حاول جمعة أن يلم بغرضهما الحقيقى ، هل هما زبونان حقا أم أنهما من (المخبرين التقلاء) وقبل أن يصيح محتجا ويقول (إن بين البائع والشارى يفتح الله)، كان أحدهما قد ألقى بالسنج والميزان على الأرض ، ومال جمعة ليرى ماذا سقط تحت العربة..وعلى الفور كانا قد أخذا يكيلان له اللكمات بالقبضات التى تمسك بسنج الحديد ، شجا رأسه ، وكسرا ساعده ، وضرباه على ظهره..وأحدهما يصيح فى أذنه :

- أنت فاكرنا ..سلامة البحطيطى يا ابن الـ...تضربه لأنه يربى لك ولدك قليل الأدب !!

حدثت رجة فى السوق، ولكن الرجلان افلتا. وجيران جمعة الخضرى حملوه إلى عيادة الإسعاف يضمدون جراحه، وفى نقطة بوليس باكوس لم يحدد أسماء من تشاجرا معه ، ولم يذكر صلتهما (بسلامة البحطيطى) ، كما انه أدعى بأنه لا يذكر تماما أوصافهما ،واعتبر الضابط النوبتجى أن ذلك مجرد شجار عادى يحدث عادة بين الباعة فى السوق،واكتفى بكتابة مذكرة فى دفتر الأحوال... !

•••

مر (الشلقامى) من البوابة الصغيرة فى سور السكة الحديد شرق محطة السوق وعبر الشريط مع اثنين من زملائه بالمصنع عائدا إلى بيته ، بعد انتهاء

الوردية الثانية ، التى تبدأ من الثالثة بعد الظهر .وتنتهى الحادية عشرة مساء ، كان عائدا إلى بيته ، ما كاد يتسلم درجات السلم الحجرى ويستدير إلى الشارع الممتد خلف نهاية رصيف المحطة ،حتى افترق عن زميله ..مشى الرجل وحده عدة خطوات،ومن الشارع الجانبى أتت دراجة مندفعة من خلفه ، واصطدمت به فسقط الشلقامى وراكب الدراجة فوقه ،غضب الشلقامى وأطلق احتجاجه ، يسب ويسخط.فخرج من ناصية الحارة القريبة ، شخص آخر ، قام راكب الدراجة وأمسك بخناق الشلقامى :

-أنت كسرت العجلة ..ستدفع ثمن إصلاحها ..!

وحاول الشلقامى الإفلات من قبضة الذى يمسك بخناقه ، فطوقه الآخر وأتاح الفرصة لراكب الدراجة أن يكيل له اللكمات، فى الوجه والصدر . سريعة متوالية.حتى سقط بينهما إعياءا..

ركله الآخر عدة ركلات فى أماكن حساسة من جسده.وهو يصرخ فى وجهه (أنت فاكرنا سلامة البحطيطى ، تتربص به وتضربه على غفلة ..يا ...) وتركاه غارقا فى الألم،وركبا الدراجة،وأسرعا بالإبتعاد عن المكان. ورغم الألم ، وصلته الرسالة .. !

•••

يونس حسان ..زوج روحية شقيقة سرحان عبدالعال الحاجولى .

رغباته تتلوى بداخله كالثعابين التى يضيق بها الخناق ، تطل طموحاته من عينيه، إلا أنه كان قد خبر كيفية ،غلق (سلته) فى الوقت المناسب ،حتى لا يبدو شاذا عن الذين اختارهم (المعلم فرهود).أعوانا.ومقربين منه . . .

كان من الذكاء، حتى بات يعرف أن المعلم فرهود ينظر إلى الطموحين بعين الريبة ،وأنه عندما يقرب أحدهم منه - يقربه فى حرص وبعد اختبارات،لكن إذا ما تم اختياره سيكون له كل الهناء والسعادة ..

وعرف أن الإعتراف،لا يأتى من خلال (وسطاء)، بل من خلال مقاييس فرهودية ..أهمها.. أن يكتشف (فرهود) تطابق قوانينه عليه.و بنفسه .

وإذا كان يونس حسان يعتبر نفسه من الأذكياء - وأن فرهود أقل من المتوسط ، فعليه أن يهبط بنسبة ذكائه إلى (مرتبة ضعيف) حتى يحوز على إعجابه ، ولذلك بقى ساكنا تحت كم جلبابه البلدى..حتى اكتشفه

وازداد تحرق يونس حسان ، عندما رأى أن (االمعلم) قد انشغل بالسعى - لسرحان عبدالعال - شقيق زوجته روحية ، لمعاونته ليكون نائبا فى مجلس الأمة عن منطقة الرمل .

يونس حسان حفظ قانون فرهود تماما..ويعد نفسه من رجاله المقربين ، ويرجع لفرهود الفضل فى نفض التراب الذى رأن على حياته،بسبب ضيق ذات اليد، إزاء حجم الطموح الذى لا يقدر على الإفصاح عنه !

كان قد عينه فى (شركة الحلويات) عند حصوله على الشهادة المتوسطة . وساعده،وتعهده بالتوصيات،وإرسال الهدايا إلى المديرين ، حتى تمت ترقيته إلى رئيس قسم ، وحاول يونس الحصول على الثانوية العامة ليدخل كلية التجارة ،ولكنه لم يفلح.فتعطل طموحه. فى أن يكون (مديرا) من مدراء الشركة،وقد صارت ضمن شركات القطاع العام .

المؤهلات العليا الأقدم منه - ذات التقديرات الأعلى،كانت ، تسد على دبلومه المتوسط الطريق ، وكان فرهود قد عاونه فى الزواج من روحية

ابنة عبدالعال الحاجولى ، والمعلم فرهود من الذكاء أن يرى (الثعابين) تطل من عينى يونس حسان، حقدا على من يسبقونه فى (الدائرة) التى يعيش فيها بداخل عمله فى الشركة - أوبداخل بيت سرحان الحاجولى .. !

يسأله : مابك يا يونس ..بنت عبدالعال تنغص عليك عيشتك؟، أم انك تخشى صعود نجم (سرحان عبدالعال) وقد أصبح صاحب مصنع . ونرشحه ليتبوأ لنا مقعدا فى المجلس ؟!

كان يونس حسان يدرك الفرصة التى أتاحتها (الثورة) أمام الطموحين من أمثاله، كما كان يدرك إمكانيات المعلم فرهود- وقال بدون مقدمات:

-معلم فرهود ..أريد أن أصير مديرا فى مصنع الحلويات !

-خلتك تريد أن تصبح مديرا لدى نسيبك سرحان عبدالعال.

-أنت تعرف يامعلم ..أنه يتجاهلنى ،ولا يرتاح لى ، ولولا أن قطار الزواج كاد يترك أخته على الرصيف ، ما زوجها لى،إنه يرى أنى بلا مواهب !

-وما المانع لكى تصير مديرا فى مصنع الحلويات ، لقد كنت عاملا وصرت رئيسا لأحد الاقسام ؟

- بالشهادة الجامعية يامعلم فرهود ، يمكن أن أصبح مديرا فى المصنع، بل يمكن أن أكون الكل فى الكل هناك..الطريق ممهد أمامى ، بعد أن سافر (الخواجات)لبلادهم .

-ولماذا لاتحصل على الشهادة الجامعية كما حصلت على الدبلوم يا يونس؟

-الشهادة الجامعية تحتاج إلى سنوات من الدراسة المتخصصة.وقد أمكن وصولى إلى الثانوية العامة ،ولكنى لم أفلح فى الحصول على" شهادة الثانوية العامة .

-حاول ..ابذل جهدا - ألوف الطلبة يحصلون على هذه الشهادة ويدخلون الجامعة .

-حاولت وفشلت ، ولاأجد لذلك وقتا أو رغبة !

-وماذا أفعل لك يا يونس ، هل أذهب وأمتحن بدلا منك ؟

وأخذ يضرب كفا بكف .

-الناس تمادت في طلباتها ، أصبحوا يطلبون مني لبن العصفور .

-ليس هناك شئ مستحيل عليك يا معلم فرهود .

توقف فرهود عن تدخين الشيشة ، والتفت إليه بكامل صدره.ولم يكن غاضباً وقال:

-أرني كيف؟

-اشترها لي .!

-شهادة جامعية ؟

-نعم ..شهادة جامعية ..ولتكن .. بكالوريوس تجارة ..إدارة أعمال من جامعة الاسكندرية ..!

-لأول مرة ..أعلم أن الجامعات تبيع الشهادات ، يحق لي أن أشترى لنفسي دكتوراة ..

-الجامعة لا تبيع شيئا ، الجامعة تمنح الدارسين تلك الشهادات والدراسة تتطلب وقتا وقدرة على التحصيل ، وبعد أن نتخرج نفاجأ بأن لا شئ مما درسناه سنستخدمه، في الواقع هي معلومات لا تختلف كثيرا عن معلومات لحامل دبلوم التجارة مثلي ،إذا كان ذكيا، أنا أعرف بدقة كيف يعمل المديرون ،حتى رئيس مجلس الإدارة نفسه.. أستطيع أن أعمل أفضل

منهم جميعا ،وفى الشركات لا يهم سوى وجود (الشهادة) - لوضعها فى الملف ، سأقدم لهم الشهادة ، وتدفع لى ثمنها ..

- تزوير ..؟

- لا يخر الماء .

- وأين هذا البائع ..وكم الثمن ؟

- أعرف البائع ، مزيف نقود ، خرج من سجن الحضرة منذ وقت قريب. يارب كما خلقتنى ، لديه كافة الأختام ، ولن يزيد الثمن عن خمسمائة جنيه !

-ياه .خمسمائة جنية ..إنها ثروة ..

-أعطنى هذه الشهادة ..وسأقوم بسداد المبلغ ،ورقبتى سدادة .

- قطعا ستقوم بالسداد ، فهذا شئ مضمون وشهادتك مزورة ، وسرها سيكون عندى،لكن عمارة (شدس) أتت على ما لدى من مال .

-ادفع فى أى وقت تشاء يا معلم. فأنا لن أتخرج قبل مضى سنتين .

-لماذا ؟

-لابد وأن يمضى لحصولى على الثانوية . أربعة أعوام.وقد مضى على رسوبى الذى أدعيت أنه نجاح أكثر من سنتين .

-هكذا ..على بركةالله .يمكنك أن تشيع أنك تدرس فى الجامعة !

- هذا أمره سهل، ربنا يكتب لنا النجاح على يديك يامعلم فرهود .

ومال وقبل يونس حسان- يد المعلم فرهود، والمعلم فرهودلم يتعجل فى سحب يده، إذكان يفكر..فى أى شئ يستخدم هذا(الداهية).ومن أين يبدأ معه الاختبار .كان فرهود كحوذى سابق - يريد أن يبدأ معه من أحط الأعمال ..حتى إذا ما قربه منه فيما بعد ..يبقى مطيعا ومنكسرا ..!

•••

كان يونس حسان، أحد الرجلين اللذين قاما بالإعتداء على 'جمعة الصعيدى' فى سوق الخضار، والعامل الشلقامى المنوفى، لأجل تطييب نفس (سلامة البحطيطى) بخطة وضعها بإحكام الأستاذ (عبدالحميد البهتيمى) ليكون الجميع..فى خدمة المعلم فرهود-الذى يرعى خاطر عُماله.. !
يمنحهم الخبرات السفلى ..من الصفر ..ويعدهم بالقمة، يجلسون عليها .
على أن يكون هو – سيدهم – وصانعهم – الذى يلهجون بأسمه، وتواضعه وانسانيته.. !!

•••

أدرك محمود الرملى، مكمن قوة (فرهود).إنها تلك العبقرية (المتوسطة) التى تحرك العديد من الأشخاص، بذلك القدر من الإنضباط والتضحيات، كانت الشباك التى ينسجها فرهود تنسجُ على مهل، يجعلها دائما إزاء الطموحات العاجزة التى تطير قفزا كالجراد ،فلا تحلق بعيدا.أو عندما تصطدم الطموحات بخيوطه العنكبوتية.فلا تستطيع الفكاك منها . . !
وقد يعيد تشكيلها ...ويطلقها من قاعدته ...
لاشئ كان يفسد خطته إلا أن يدرك كل فرد، قدراته الحقيقية ..لكن من لديه ذلك الصدق ، ليقيس قدراته بالقياس، لحقيقة دوافعه ؟!
" كان سرحان عبدالعال ، قد قبل اقتراح فرهود بلا مقاومة ..ودون الرجوع إلى صديقه، وحلقت طموحاته إلى بعيد .
"أن يكون عضوا فى مجلس الأمة،ويجالس رجال الدولة ، ويطلب وده رجال الثورة والحكام !
كان سرحان..قد أبحر بعيدا ..

إذ كان فرهود قد حل وثاق قاربه وتركه للتيار... يبتعدبه في عمق البحر . يصغر. كلما واصل الإبتعاد، كانت المشكلة التي تواجه (محمود الرملي) كيف يصل إلى سرحان سابحا ..!!

... .

(من حركة التقارير ..)

"سرى للغاية "

بناء على توجيهات (على بك) وتأشيرة (حسنى بك) وتوصيات (فايز بك) قمنا نحن (خليل الدفراوى ..مقدم) بتكليف مصدرنا (السيد حسنين البرس – عامل بمصنع تغليف الصناعات الغذائية – سرحان عبدالعال وشركاه – بمنطقة باكوس بالإسكندرية.والمرموز له بعلامة إكس..) بمتابعة (الخلية الشيوعية) التى يتزعمها صلاح عبدالقوى،بذات المصنع – وتضم كل من..الآتى أسمائهم.)

- أحمد على موسى – ٢٣ سنة – يعمل بذات المصنع على ماكينات الطحن
- على على موسى – ٢١ سنة – يعمل بذات المصنع علىماكينات الطحن

(وهما شقيقان يقيمان بشارع صريع الغوانى – بدون رقم – منزل من دورواحد – ملك ورثة عبدالمولى زاهر – بائع متجول – لهما أخ يكبرهما يدعى (محمد موسى) ويعمل سائقا لتريلا بشركة النيل العامة لنقل البضائع بالنزهة،ليس له نشاط سياسى ،ومتزوج ويعول ثلاثة أطفال، كما يعيش معهم والدهم (على موسى الجهينى) معاش، كان يعمل بالشركة العربية للغزل والنسيج – عامل تحضير..

فى الوقت الحالى، يعمل خفيرا خصوصيا لدى مقاول معمار. الوالد صعيدى. أمى ، ليس له نشاط نقابى. أو سياسى.والجميع لم يغادرواالجمهورية،إلى الخارج، حصل محمد على موسى – السائق على جواز سفر ،ولكنه لم يستخدمه – أحمد موسى تزوج حديثا من فتاة تعمل خياطة لدى (مدام نانى) بمعرضها الكائن بكليوباترا الصغرى، الإسم:

فوادلا سليمان - فتاة طموحة ،على قدر متوسط من الجمال ، ليس لها نشاط سياسى - شقيقها جابر - كان يعمل بمصنع الطوب الحرارى بالقرب من كوبرى الناموس ،فصل من عمله بعد الإعتداء على (الخواجة) رئيسة المباشر - وافتتح دكانا لإصلاح وتأجير الدراجات على ناصية الحارة المشار إليها :

وجابر سليمان حاد الطباع ، اتهم فى عدد من جنح الضرب والتعدى ، ليس له نشاط سياسى.

ملحوظة (١): أحمد على موسى - يجيد القراءة والكتابة ، ليس لديه مؤهلات دراسية - يقرأ الصحف بانتظام، يكثر من إبداء الآراء السياسية ،هادئ الطباع ، ذو ميول ماركسية ، شوهد كثيرا يحمل تحت إبطه الكتب والمجلات ، ينتقد الرأسمالية بشدة، يوجه لدول الغرب وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية الإنتقادات الحادة .

ملحوظة (٢): تربطه بصلاح عبدالقوى - صداقة وطيدة - رشحه صلاح سكرتيرا للنقابة، تأتى أهميته فى (اللجنة -الخلية) بعد صلاح مباشرة - حديثة جذاب ، يميل إلى التكتيك والتبكيت ، يتمتع بمقدرة عالية على القيادة ويشيد بتجربة الصين الشعبية، قرأ كتابا لماو ، الديمقراطية الجديدة ، وكتاب فتحى الرملى ، الصهيونية أعلى مراحل الإستعمار وتحدث عنهما مع الخلية باستفاضة .

ملحوظة (٣): قام بتجنيد شقيقه (على) فأمسى نسخة كربونية منه ، وسهل له الإنضمام إلى اللجنة النقابية ،التى يتخذونها ستارا لنشاطهم الهدام ، لوحظ أن (على) يقوم بمهام الإتصال والتنسيق بين أفراد الخلية ولا يستبعد أن يكون حلقة الإتصال.حيث أنه يشاهد راكبا بسكليت .فهمى

تقرير (LW6) ذكر أنه يمتلك البسكليت ، لم يحدد المصدر المالى الذى أمكنه من شراء البسكليت ، فى التقرير السابق عاد المصدر وذكر أنه يقوم بتأجير البسكليت من شقيق زوجة أخيه (جابر) وأنه عادة ما يترك البسكليت لديه فى الدكان ، وشوهد (جابر) يؤجر البسكليت للآخرين بعد نزع الصندوق الخشب الذى يستقر فوق العجلة الخلفية وهو مقاس ٤٠×٣٠×٢٠ سم ،له قفل نحاس صغير ،ذكر أنه يحمل بداخله أوراق ونشرات ، ويقوم بتوزيعها على أعضاء الخلية وربما الخلايا الأخرى ، وذلك فى غير أوقات العمل الرسمية،و لم يتمكن مصدرنا من نقل فحوى النشرات ،وقد وجهنا له اللوم على ذلك التقصير .

ملحوظة(٤): المسكن عبارة عن منزل قديم مقسم إلى حجرات عديدة ، دورة المياه مشتركة، يقيم المذكورون فى حجرتين ، تطل إحداهما على الحارة، بنافذة كبيرة.ويقيم فى نفس السكن ،باعة جائلون و متعطلون و خدم فى البيوت و عمال ،اعتاد (أحمد) الجلوس تحت النافذة على رصيف الحارة الضيقة ، يجتمع حوله الجيران وسكان المنزل ،ودأب على إشاعة أفكاره الهدامة ،فى تلك الجلسات ،وبين المجتمعين ، والسخرية من الملوك والرؤساء ،وإلقاء النكات ، كما يعمل على خلخلة ثقة الجماهير بالسلطة، والإستهزاء بالحكام عن عمد..وذلك بين عدد من المتعطلين الذين يضحكون ملء أشداقهم ، و تبين أن له تأثيرًا كبيرًا عليهم،مما نعتبره (مكمن خطورة)

ملحوظة (٥): تمكن مصدرنا من الإستيلاء على مجموعة من قصاصات مكتوبة ـ كانت فى حوزة المدعو أحمد علىموسى ، تأكد لنا أنها بخط يده (عرضت على خبير معتمد) .

قصاصة (١)

مكتوبة بالقلم الرصاص على ورق ٦٠ جم نوع محلى مقاس نصف فلوسكاب مسطر أزرق باهت .

(.. أتواعد معى ، أذهب إلى نفسى فى نفس الموعد ، فلا يأتى ، ما أكاد ألعنه ، حتى يجثو خزيانا .. يقضم أظافره فى لوم ، أصفعه ..فأنا الأكبر وأنا الأصغر ..)

قصاصة (٢)

"يدعى النوم وعقله يهدر كماكينة الطحن ، يتشرنق حول الحلم ذى الأجنحة الملونة.لما كنت طفلا ،كنت ألعب معه ، يحلو لى أن أشاكسه ، وأنا الضابط واللص ، أنا المريض والطبيب، أنا العروس والعريس .."

قصاصة (٣)

"أنا وحدى ، لم تكن لى لعبة خاصة ، سوى مجموعة من (نوى) المشمش فى كوز صفيح قديم ،وتذاكر القطارات الخضراء المثقوبة وغطاءات زجاجات المياة الغازية ..وطوق قديم.وبقايا بوصة.كانت سنارة.لم تصطد سمكة واحدة" "

قصاصة (٤)

"أتعرى للحوض ، أمتطى سور حوض الغسيل كحصان ، أنزلق على درابزين السلم المتهالك ،أتعلق فى (مواسير) الحنفية ،أتمرجح فى باب الحارة المتهالك، بالطفولتى الشقية ؟.ماذا خلفت لى إلا هذا الإنسان البائس، ولما أتعب.أجلس على حجر الرصيفه فى الشارع الكبير، أضع ذقنى على كفى، وأرقب المارة والباعة الجائلين ،أردد خلفهم.نداءهم.على بضاعتهم (تلك .. كانت أغنياتى المفضلة)..

عندما تخرج النسوه للشراء ، أقترب من خلفهن لأشاهد كيف يزن البائع بضاعته ، وكيف يحرك سبابته على قب الميزان ، ليسرق من جارتنا قطعة جبن ،أو حبة طماطم، أو بعض قرون البامية ،كنت اميزبين التجار والتجار، وفى كل مرة كنت أعزم على فضح حيلهم ،كنت أؤجل ذلك إلى وقت آخر ، كنت أريد أن أكبر أولا ،حتى أضبطهم بنفسى ، عندما ارتدى كاب الضابط ، وإذا حاولوا الإفلات ، أطلق عليهم (النار) من مسدس ،فأصيب كعوب أقدامهم ..وأضع الحديد فى أياديهم - كان عشقى للسوق وذلك الزحام، عندما تجلس النسوه القرفصاء أمام بضائعهن ، كان يشتت ذهنى انزلاق اثوابهن عن افخاذهن المستورة ، بيضاء كالجمار ، كنت صغيرا ومع ذلك أنا نفسى ، أصنع من ضلعى أنثى ، لها عينان ونهدان وساقان وخصر ، وقميص شفاف ومنديل ملون للرأس، وشعر ثائر يفلت من أسره عنوة، يتهدل على الجبهة،ويضم الخدود الوردية ، كنت أستعير كل ذلك من بنات الجيران،ونساء رأيتهن فى شوارع وحوارى باكوس ، ومن البنات اللاتى يزرننى فى الأحلام، أصنع منهن بنفسى عروسا ،وأطلق علىعروستى أحلى الأسماء ، اسم البنت ذات الضفائر البنية والشريط الأبيض، والتى تضربها أمها إذا كلمتنى ، أو تلكأت أمام بابى ، وعندما تكتمل زينة عروستى، استحضر كل أغانى الأفراح،ودفوف الزفاف ،وتحت إنحناءة السلم فى الرطوبة المظلمة ،أعطرها، وأقبض على نهدها البكر وأضع شفتى على شفتيها ، وأدخل بها ..أدخلها داخل نفسى ، كى نتوحد ويعود ضلعى المفقود إلى صدرى العاشق من جديد ..!؟

(قصاصة رقم (٦)

(.. تتهمرين كشلال ، تتسكبين كضياء ألف شمس ، تورقين كغابة استوائية ، لكن عبثا أحاول أن يشملنى ظلك ، يحتجزوننى بعيدا عنك، بعيدا عنك بعيدا ..بعيدا عنك...

آه يا قلبى المكلوم ..)

قصاصة (٧)

"أرنو إليك من بعيد.أعانى عطشا ، بينما يسكبونك على الرمال،التى لا ترتوى...

سأصنع لك سدا عاليا ،حتى ولو كلفنى هذا حياتى.."

(آه يا قلبى النازف) .

" انتظرى حتى أعكس شمسك على صفحتى، انتظرى حتى أفجر الصخور بعزيمتى وأشق طريقا لك فى صدرى ، سأفعل .. سأفعل ذلك دون تردد، سأفعل حتى إذا ما هلكت دونك ، وكان جسدى ،هو الجسر الذى يعبرون عليه إليك فليمشوا على بدنى و يشقوا طريقهم فوق صدرى، يتجهون إليك فى صحرائك ..هناك وجهك المضيئ، ونقشك الأخضر ، هناك تسبحين فى خلجات نفسى ،فأحيا من جديد ، وأبقى كما أنا ..أرنو إليك مدى الدهر وأسرى فى أعطافك منذ الطفولة إلى الكهولة ..!

قصاصة رقم (٨)

مكتوبة بالقلم الحبر الأزرق على ورقة كرتون ، غلاف علبة سجائر (جولدن ويست)

(.. ما بيننا سبخة من الطين اللزج ، طريقا خائخا لا يصمد لثقل الأقدام لو أنى أعلم أن الغوص فيه لا يتجاوز قامتى ، لخطوت إليك .)

"وبعض الشخبطات والرموز ، تلاحظ لنا ،أنه يكرر رسم الأهرامات والنخيل وقرص الشمس.

قصاصة رقم (٩)

مكتوبة بالقلم الحبر على ظهر ورقة ، هى فى الأصل من أوراق المصنع تستخدم كبيان لإنتاج الماكينات ..!

(كان للحلم وجه طفل ،طفل له عينان واسعتان عميقتان ، بقدر الحلم،كان الغدر ، أنياب منقوعة فى سم زعاف (وبعض الشخبطات)

الحلم كعصفور يلتقط أمانينا المبعثرة على الركام ، ويصعد بها إلى السماء فإذا بذلك الثعبان الأرقط رابضا ، ينقض عليه فى لمح البصر ، ويلقمه ، رف العصفور، ثم انزلق فى عنق الثعبان ،ككرة تتحرك ببطء ، بفعل رعشة العضلات المطاطية ،لم يبق من العصفور إلا بضع ريشات ،

كان للحلم وجه ، وللغدر وجهين .

اختلطا فى رعشة المستحيل،ولم يتبق لى ..حتى..هسيس الريح ..!"

* مرفق صورة من التقارير الأصلية ، وصورة من التحليلات والأوراق المضبوطة والتى تمكن مصدرنا من الإستيلاء عليها ،اللون الأحمر لإبراز الأهمية ،اللون الأخضر معلومات غير هامة -اللون الاصفر معلومات تعالج معمليا .."

" تأشيرة بحبر أحمر "

" .. يحول إلى المختصين لفك الرموز ..والعثور على الشفرة التى يستخدمونها.. ويقارن ماجاء فى (مضبوطات أحمد موسى مع مضبوطات صلاح عبدالقوى) وخاصة ما خطه بيده فى الكشكول الأزرق ..والإفادة ."

تأشيرة بقلم حبر أسود :

"أرجو الإفادة ..عن علاقة أحمد موسى وأخيه على موسى بالسيد فرهود الصانت.وهل ثمة تأثير (للمشاغب) نمادىرأى السيد فرهود بشأنهما ،حيث أفاد المصدر.بأن الولدين لا يتدخلان فى أعماله،ولم يسبق أن اصطدما به، وينكر تماما أنه يعلم بأن (أحمد) ضمن خلية شيوعية من أساسة ، بينما الأدلة والتحليلات تؤكد أن (أحمد موسى)ضليع مع صلاح عبدالقوى كما يجب أن لا يخفى عليكم أساليب هؤلاء الجانحين المبتكرة ،بغرض تضليل البحث والتحرى ."

•••

(٣) عماد على أحمد – ٢٥ سنة – يعمل كاتبا وأمين عهده فى ذات المصنع – يقيم بأرض سموحة الجديدة ، لوالده دكان يبيع الألبان والبقالة الجافة بشارع أبى قير أمام غيط (شدس) الذى يجهز كمساكن شعبية – تلقى تعليما أوليا ثم انقطع ، برغم مقدرة والدة على توفير مصاريف تعليمه – شقيقه رمزى – الذى يصغره،واصل تعليمه ،حتى التحق بكلية التجارة الآن فى الصف الثالث ، البحث أكد عدم تأثير (عماد) على (رمزى).

رمزى لا يهتم بالسياسة ، ولا يشترك فى انتخابات اتحادات الطلبة ،غالبا هو منطو على نفسه – له علاقة عاطفية بزميلة بالصف الثانى بالكلية، حالة حب عادية – تأكد لنا أن الخلافات بين الأخوين حادة – فبينما (عماد) يؤمن بالفكر الماركسى الهدام ، كان رمزى مشوش الفكر – ولديه تطلعات للسفر إلى الخارج،تقرر الكف عن مراقبة رمزى، والتركيز على شقيقه عماد.وأثر تواجده بين العمال...

عماد ينظم الشعر العمودى ، بتأثير من – صلاح عبدالقوى – انقلب إلى نظم الأناشيد والأزجال الشعبية ، يتغنى بالشعب كستار للدعوة إلى ديكتاتورية البروليتاريا – على النسق الماوى، وصلاح يقوم بإعدادة – ليكون بوقا للخلية .. يجذب به المستمعين إلى حماسه المتدفق وصوته الجميل القوى ، عندما يغنى – أغانى عبدالحليم حافظ الوطنية، أو يلقى قصائدة بحماس زائد !
(عماد) يرتبط بقصة حب مع نجوى ، التى تعمل فى مصنع إيكا للحلويات ، بالبحث وجد أن لا شأن لها بالسياسة ، وليس لها إتصالات بأحد سواه – قام مصدرنا – بايعاز منا – بتسريب خبر هذه (العلاقة) لوالدها الذى يعمل كمساريا فى ترام الرمل. فضبطهما ، وهما سائران ليلا فى شارع هادئ خلف سراى الأمير طوسون، كان غرضنا الإيقاع بعماد – فى مشاكل. تلهيه عما هو فيه ، إلا أنه قرر خطبتها . ووافق والدها على ذلك ، كلفنا مصدرنا أن يكشف سترة لوالده المتزمت ، والذى يرى أنه (كتاجر) مهما كان شأنه بسيطا ، إلا أنه فى مكان طبقى أفضل من الكمسارى ، فثارت بينه وبين (عماد) المشاكل، هدده والده بالطرد من المنزل – إلا أن (صلاح) تقابل مع والد عماد فى الدكان. وأقنعه بزواج أبنه من العاملة نجوى، وحل له هذه المشكلة – عندما أكد له، أن عماد لن يكلفه شيئا من النفقات المالية ...."

جعلنا مصدرنا يحرض عماد .. أن ينافس صلاح فى رئاسة اللجنة النقابية حيث يتمتع بثقة بقية الأعضاء ، رفض عماد ذلك رفضا قاطعا، دون إبداء اسبابه واضحة ، إذا أن عماد دأب على الإشادة بكفاءة صلاح عبدالقوى والإعتزاز به. . . !

ملحوظة(١): تم إسقاط اللجنة فى أول انتخابات عمالية ، سألنا المصـدر عما إذا كان يشعر نحو صلاح بنفس شعور عماد ، سكت وارتبك - ثم أنكر - سألناه عن السبب ،لم يجد ما يقدمه لنا- تبين أن صـلاح عبدالقوى يتمتع بكريزما الشخصية القيادية ، جمع المتناقضات حوله،واستفاد من الجميع - بما يعنى أنّ صلاح يمثل (نصف الفريق) ..!

ملحوظـة (٢) تعامل المعلومات التى تجلب بواسطة (المصـدر - السيد حسنين البرس) بدقة، خشية،أن يلعب الدور المزدوج - لتأثير صلاح وعماد وعبد المنعم عليه.واستمرار علاقتهم الطيبة به ..

ملحوظـة (٣) يمكن فتح المجال أمام - عماد على أحمد - لكتابة أغانى فى الإذاعة،ومعاونته حتى يتطلع ليكون فنانا، ربما انصرف عن رفقة جماعة صلاح، وحتى ينشغل عن دائرة تأييده..!

ملحوظة (٤) لا يزال موضوع (نجوى) وموقف والده المتردد من زواجه معلقا ، يمكن إثارته من جديد ... لإرباكه ...!

ومرفق نموذج من كتابات عماد ...لغرابة أسلوبه ..للإستفادة من فك طلاسم الشفرة.."

"أطير ..أعبر المحيطات .هربا من صقيع الشمال ...

أحلم بدفء الشمس ،

عندما أحط بعد سفر طويل ،

أحط فى شباك الصائدين.

تنتظرنى بنادقهم وفخاخهم - بعد السفر الطويل .

لكن أجنحتى تواصل الرفيف بحلم لقاء الدفء "

" تأشيرة بقلم أحمر "

"أفاد السيد / فرهود الصانت ،أنه لا يعلم شيئا عن انضمام (عماد) لخلية شيوعيةوأرى أن لا يعتد بهذا الرأى - فالعلاقة قديمة بوالد عماد التاجر وفرهود،منذ كان حوذيا جربوعاً...!

تأشيرة بقلم أسود :

"..تم قبول أغنيتين لعماد ،وسجلتا بالإذاعة ..وكانت النتيجة مذهلة" ..فقد استقبله التيار اليسارى بالإشادة ..وعدد من الفنانين بالقاهرة والإسكندرية يطلبون أغانيه،وضعه بعض النقاد فى صف (صلاح جاهين والأبنودى ..) فرهود الصانت،عاونه ببعض المال للسفرإلى القاهرة، يتم وقف محاولات . المصدر الذى أشاع بأن عماد ،يسرق أبيات الشعر، من كتب التراث ويحورها ...»

•••

(٤) خضر أحمد السيد - ٢٨ سنة - يعمل على ماكينات التعبئة بذات المصنع .. يسكن فوق سطح منزل فى نهاية شارع الزمخشرى يملكه خال (صلاح) بالقرب من عيادة الإسعاف بباكوس. ينحدر من أسرة ريفية لازالت تقيم فى ريف طنطا . عمل فى المطاعم مرمطونا ، وفى فرن بلدى عجاناً ، ثم عمل شيالا بالجمرك ، حتى تم تعيينه فى المصنع بواسطة (صلاح عبدالقوى) وبإيعاز من فرهود ، (خضر) شاب صحيح البدن ، قوى البنية فيماعدا إصابة ساقه (بالجمرك) عندما سقطت على مشط قدمه اليسرى بالة ثقيلة من رقائق الألمنيوم .

خلفت فى ساقه عرجا - وألزمته الفراش زمنا - استنفدت البطالة والعلاج كافة مدخراته حتى باع أثاث حجرته،وملابسه،والراديو،خال صلاح المساعد بقوة السواحل،كان يعاونه،و يحكى مصادفة أمام ابن أخته عنه

لفت إليه نظر (صلاح) الذى بعث فيه الأمل، وأزال من صدره اليأس، عاونه على الصمود.وعثر له على عمل بالمصنع ، وأمسى(خضر) من خلال صلاح - صديقا لباقى المجموعة. وقد أعادوا تأثيث غرفته ،وشراء ملابس جديدة له ، عاونوه على استرداد صحته التى تأثرت بأيام البطالة والصيام الإجبارى - لم يوضح المصدر - من أين يأتون بالأموال (هام)

ولوجود - مسكن خضر معلقا على سطح بيت من ثلاثة طوابق والصعود إلى الطابق الأخير يتم بواسطة سلم خشبى متحرك ، فان (الإجتماعات) للخلية تتم فى هذا المكان (المأمن) و يتردد عليه بصفة دائمة أفراد المجموعة.فى أوقات محددة،تحت دعوى قضاء وقت فى التسلية..

وإن كان - خضر - بطابعه الريفى لا يميل إلى الرفض المباشر ، فقد انضم الى تشكيل النقابة وصار أحد أفراد (الخلية) وهو يواظب على أداء الصلوات فى مواعيدها ,من باب التمويه، ويرى دائما،وهو يخرج من المنزل فى الفجر - ليصلى فى الجامع القريب ، يكثر من قراءة القرآن بصوت مسموع ..يحضر بعض الدروس فى المسجد ، ويشتبك مع الشيخ (حناوى) فى حوار ،نحن نرى أنه للتمويه - وإن كان (خضر) يؤمن بالشق الإقتصادى من الشيوعية وهذا أخطر ..(هام).

•(خضر) يرى أهمية الربط بين الإسلام والإشتراكية ،وأن فى ديننا الحنيف وتاريخنا عوضا عن هذه الفلسفة المادية ، وأن (الهجرة) وضعت قواعد الزمالة والرفقة حتى أن (الأنصارى) كان يقتسم أمواله ومتاعه مع (المهاجر) وكثيرا ما ينشب خلاف بين عماد وخضر ، عند مناقشة هذه المواضيع (وفى تقرير آخر) أن سبب هذا الخلاف - علاقة خضر بأرملة على قدر من الجمال لديها ثلاثة أطفال (قريبة لعماد من بعيد) مات زوجها

أمام آفران شركة النحاس، وتتسلم معاشا يعادل مرتبه شاملا الحوافز والبدلات ، وأن العلاقة بينهما بدأت أثناء إصابته فى قدمه ، كانت السيدة (عايدة-أم صبرى) تصعد إليه بحجة نشر الغسيل، وتدخل إلى حجرته بحجة قضاء بعض شئونه ومعاونته، ثم تطورت الأموربينهما..السيدة محرومة ، والشاب ريفى صحيح البدن ..! (وفى تقرير: بأن خضر عزم على الزواج من السيدة عايدة ..عرفيا ..وأن موضوعه وصل إلى السيد/ فرهود الصائت ، فأحتواه.. إذ أقنع خضر بأن الباب الذى يأتى منه الريح عليه أن يسده ويستريح، والشاب برغم بنيانه القوى كان يهتز ويرتعش بين يدى فرهود.الذى أقنعه بأن يترك غرفة السطوح حتى يقطع الشك باليقين، وينتقل إلى مسكن آخر ،غرفتين بدورة مياه من الداخل، أشبه بشقة صغيرة وإيجارها مناسب، ووعده بأنه سيساعده فى تأثيث الشقة،وأبلغه سرا بأن السيدة (عايدة) إذا رغبت فى أن تتزوج به، فلتأتى هى إليه فى مسكنه، وقدم فرهود هذه الخدمة لخضر ، حتى يتيسر لنا مراقبة المجموعة التى كانت تعقد اجتماعتها فى مكان معلق بين السماء والأرض ..!

وبإيعاز من (عماد وصلاح وأحمد موسى) .حاول خضر أن يرفض عرض فرهود، لكن (المعلم) أخذ يرسل اليه المراسيل ، حتى أقنعه البهتيمى بذلك – قال له:لماذا تتمسك يا ابنى بغرفة السطوح ، التى تلتهب نارا فى الصيف ، وتتحول إلى ثلاجة فى الشتاء ...هذه فرصة،عليك أن تستفيد بها من كرم سيد الحتة. وحاول خضر أن يتملص، يطلب وقتا للتفكير، واستمر الضغط عل خضر ،حتى ترك غرفة السطوح إلى بيت (البحطيطى) وانقطعت الإجتماعات عنده ، ثم صاروا يلتقون بمقهى فرهود. أو على مصطبة بيت أحمد وعلى موسى...

•••

" استمرت العلاقة بين خضر أحمد السيد وعايدة السروجي - زوجة المرحوم حسين غانم، قائمة في الخفاء - شوهدا في سوق الخضار ، هي تقف لتشترى الخضروات، ويأتى خضر، ثم يتحاوران ويمشيان سويا ، ليتفقا على اللقاءات الخفية ، وشوهد خضر يوم عاد جارهم (خليل) إلى بيته محمولا على الأعناق لإصابته بنوبة الصرع وسقوطة من باب الاتوبيس ، وانتهز خضر هذه الفرصة وذهب إلى المصاب (خليل) جاره القديم ولازمه بالعلاج عدة أيام، وكان يبيت في غرفته بالدور الأرضى - بينما السيدة عايدة في الطابق الأول العلوى تنتظر حتى ينام أطفالها، وتستقبل خضر في الخفاء ، اعترف خضر أمام (الجماعة) أنه يفكر جديا في الزواج من هذه السيدة ..وأخذ يسأل عن مقدار الخصم الذى سيقتطع من المعاش في حالة زواجه منها ..."

" نحن في كل الأحوال لا يعنينا من هذه العلاقة إلا مقدرة (خضر) على التخفى وأن نعلم بوسائل التضليل التى يتبعونها لصرف أنظارنا عن لب نشاطهم الهدام . وحقيقة هذه العلاقة. وليتحدد على ضوئها .إذا ما كان خضر يمثل خطرا حقيقيا على الأمن العام من عدمه .

ملحوظة : معظم الجيران يجمعون على أن (خضر الفلاح) اجتماعى وعطوف ..وله وجود بينهم في أحزانهم وأفراحهم ، وأنه يعرف ربنا ، لكن لابد وأن نحتاط ، فمعظم الماركسيين يلبسون هذه الأثواب للوصول الى أغراضهم (الإقتصادية) فنحن لا نفتح ملفات للوجوديين، أو الملحدين .. بل نحبط محاولات (الشيوعيين) وهدفهم الوحيد، بناء ديكتاتورية الطبقة العاملة، فلا تخدعنا طيبتهم ومعسول كلامهم ...!

•••

(٥) عبدالمنعم أحمد مرعى -٢٦ سنة -موظف بذات المصنع ويقوم بعمل إدراى كمندوب لتسليم البضائع وأعمال القيد ومتابعة التحصيل. واختاروه أميناً لصندوق اللجنة النقابية .

حاصل على الثانوية العامة بمجموع لم يؤهله للإلتحاق بالجامعة ، والده موظف بالشئون الإجتماعية ،(موظف أرشيف) يقيم فى مِلكة، ناصية شارع الأمين متفرع من الزمخشرى بباكوس - لوالده علاقة طيبة بالسيد فرهود الصانت وأعوانه ، يرتاد المقهى ويؤانس فرهود فى ديوانه، ويشرف على المستوصف الخيرى بغبريال .

يأتى (عبدالمنعم) فى ترتيب أخوته -التالى- من ثلاثة ذكور، الكبير، له دكان خردوات بالقرب من محطة بولكلى ،والثالث طالب بمدرسة محمد على الصناعية ، ليس لأحدهم اهتمامات بالسياسة ، سوى عبدالمنعم ، الذى استدرج بواسطة (صلاح عبدالقوى) ، وضمة للتشكيل النقابى (الخلية) اعتاد مصدرنا أن يسقطه من تقاريره على إعتبار أنه لا يجتمع كثيرا معهم خارج المصنع ،لإنشغاله بالدراسة ،على أمل تحسين مجموعة فى الثانوية العامة ليلتحق بالجامعة .

فى رأينا أن مصدرنا يخشاه.لطبيعة عمله كموظف بالمصنع،إذ يقع مكتبه فى نفس الغرفة التى بها مكتب المهندس كمال نشأت و الذى لم ينتقده أو يمنعه ،عندما انضم إلى النقابة، على أمل أن يصبح (عبدالمنعم) عينا له فى اللجنة - أصيب المهندس كمال نشأت بخيبة أمل عندما حدث (الإضراب) فجأة دون أن يوافيه بأى خبر عنه !

كما أن عبدالمنعم لا يجادل كثيرا ، يستمع لصلاح وعماد بشغف، ولكنه لا يعلق ، فى الأونة الأخيرة دعاهم للإستفادة من فرص التعليم المتاحة مجانا وكان هذا الموضوع هو موضوعه المفضل لحديثه، وخاصة، أمام مصدرنا الذى يكن له احتراماً شديداً مشوباً بالرهبة ..

فى مناقشة خاصة مع مصدرنا ، تبين أنه إذا ما حضر عبدالمنعم قام الجميع احتراما له ، لا يجلس أحد قبل جلوسه، وأنه إذا ما شاركهم اللقاء خارج المصنع ، عاملوه كضيف عليهم ، وغالوا فى الترحيب به على اعتبار أنهم (عمال).وهو موظف ومتعلم ،كما أنه يكشف أمامهم الأخطاء المتعمدة فى كشوف صرف الإنتاج.والحوافز، وأحقيتهم فى حصيلة الجزاءات،بأن يعاد صرفها فى صورة خدمات للعاملين ،

المهندس'كمال'عندما ناقشه بشأن تسرب أخبار حول هذه المواضيع أقنعه بهدوءه بأن هذه ليست أسرار بقدر ما هى دقة ونزاهة فى العمل وقال له: قد تخالف القانون وتفلت - ولكنك لن تهرب من تقريع الضمير وموضوعه الأثير الآن هو حض (المجموعة) على الإستفادة من الفرص المتاحة للحصول على (الشهادات الدراسية)فهو يحوّل كل لقاء، إلى درس فى التاريخ أو الجغرافيا ..

(فى رأينا)

أن هذا لا يتم إلا بقصد منه ، حتى يفوت على مصدرنا فرصة ضبطه متلبساً،وربما يكون قد كشف مصدرنا،ولم يفصح عن ذلك . !

ملحوظة :(١) نرى أن عبدالمنعم مرعى شخصية ليست سهلة وعلى فرض أنه يتشكك فى عميلنا(السيد البرس) فقد استطاع أن يخفى أغراضه الحقيقية وأن دعوته(للجماعة) إلى الإنشغال بالدراسة ، يمثل بعد نظر ،

حيث لا يزال مجتمعنا ينظر إلى حملة الشهادات بتلك النظرة التى تحمل تقديرا خاصا،ومع استمرار اعتناقهم للمبادئ الهدامة ، سيمثل هذا خطرا أعظم فى المستقبل ، ولنا فى زعماء (الشيوعية) فى العالم مثالا .. ماركس ، لينين، ماوتسى تونج ، هوشى منه ، كاسترو ، لم يكن أحدهم (عاملا) وبدون مؤهل دراسى ..!

"لذلك نوصى بأن لا ندعه .. يغيب عن أنظارنا .."

ملحوظة (٢) ضرورة الإستعانة بمصدر آخر لسبر أغوار (عبدالمنعم) ففى بعض الأيام يعود من عمله إلى منزلهولا يخرج من بيته إلا فى صباح اليوم التالى، ماذا يفعل؟

وصلاح وعماد وأحمد يتحدثون كثيرا فيكشفون عن أنفسهم.لكن إذا تكلم عبدالمنعم - تكلم بتركيز شديد ولا أحد يجرؤ على مناقشة ملاحظاته ، ضرورة كشف ماوراء هذا الأمر. وأهمية معرفة دقائق حياته الشخصية " لا يترك أى شئ للصدفة !

تأشيرة بالقلم الأحمر :

" أميل إلىأن عبدالمنعم - يلعب دورا أكبر مما هو ظاهر لنا، والدليل أنه تمكن من إقناع (الجماعة) بما فيهم مصدرنا ،بأن يتهيأوا لمذاكرة (الشهادة الإعدادية) ...

ثلاث سنوات فى سنة واحدة،من منازلهم ، ثم اتصل بزملاء له، سبقوه والتحقوا بالجامعة . واتفق مع ثلاثة منهم، على أن يقوموا بدور (المعلمين) لهم مقابل أن يتكفلوابتكاليف المواصلات، ووجبه الغداء ..!

يفيد مصدرنا أنه انضم للمجموعة فى البداية بغرض نقل أخبارهم ، ولكنه يرغب فى أن ينافس ، على النجاح مع الآخرين ويحصل مثلهم على الشهادة إن امكن .

والسؤال:

هل هى خطة ذكية من عبدالمنعم مرعى لإبطال نشاط مصدرنا ؟

تأشيرة بالقلم الأسود :

(أفاد مصدرنا أثناء مناقشة معه حول (عبدالمنعم) - أنه يكتب الروايات والقصص ويطلق عليها المحاولات ، وأنه يخجل أشد الخجل إذا كشف أحدهم ذلك . هل . . يكتب الروايات والقصص حقا؟ أم أن ذلك مجرد إدعاء يمكنه من ممارسة عمله الثقافى فى الخلية دون رصد .

" وأفاد بدور السيد فرهود، ولابد من إلقاء مصدر على (أبو عبدالمنعم) ليدخل عقر داره ...

" فالعمل السرى زاخر بالأسرار والألغاز ! "

***

(٦) السيد حسنين البرس - ٢٩ سنة -يعمل بقسم التغليف بذات المصنع - هو نفسه صاحب العلامة اكس ومصدر مهم عن زغاليل باكوس !

يقيم بعزبة (لبولو) التى تطل على ترعة (آفندينا) قبلى السكة الحديد فى مواجهة محطة غبريال ، بمنزل من الأخشاب والصفيح، أعزب ، يسكن مع أمه بأحد (الأكشاك) التى تنخفض عن سطح مستوى الشارع.و أمه مريضة بداء الصدر، كانت تعمل فى تنظيف زريبة الحاج غزلان ، ولكن مرضها أفقدها عملها ، له شقيق يعمل (جرسون) فى مقهى صغير على شاطئ الكورنيش، متزوج ويعيش بأولاده فى حجرة بسطح منزل

بالإبراهيمية لا يقوم بالمعاونة فى مصاريف وعلاج أمه ،أو إطعامها ، أخته (صباح) التى تصغره مباشرة حاولت الإنتحار، بسكب زجاجة الكيروسين على ملابسها، واشعلت فى نفسها النار. فعلت ذلك فى محاولة للضغط على (السيد) لوقف معارضته لزواجها من (إبراهيم علوان) الغجرى، الذى يقيم وعائلته بعزبة القرود،والذى يكتسب رزقه من وراء عرض ألعاب قرده على المارة وفى الأسواق .

وذلك العريس القرداتى اتهم مرارا بأنه يطلق قرده الذى دربه على سرقة الغسيل المنشور فى البلكونات..أو الأسطح،أو التسلل من نوافذ دورات المياه الصغيرة، لفتح الشقق المغلقة، مع أن الجيران يستنكرون هذه الإدعاءات.ويقولون أنها محض ادعاءات غير مؤكدة:ويستدلون على ذلك بأن (الغجرى) لم يحبس فى أى قضية من هذه القضايا.إلا بضعة أيام بسبب التحقيق،ثم أفرج عنه بدون اتهام .

والسيد البرس يرفض بشدة أن يكون (نسيبه) هذا الشخص بالذات، وأم (البرس) تقول عن (ابراهيم)إنه كسيب - والرجل لا يعيبه سوى جيبه،وأن حكاية الأصل والفصل آصبحت موضة قديمة !

لكن (السيد) بقى على موقفه حتى هربت (صباح) مع إبراهيم الغجرى وتزوجا ..ثار وماج ..و لم يرضخ لوساطات الصلح ،ولازال يقسم بأغلظ الأيمان ، بأنه إذا رآها لمزق صدرها بمطواه .

فى الواقع السيد البرس لم يفعل شيئا من تهديداته وهدأ .

قام (على بيك) بتجنيده، وأتم تجهيزه. ليكون مصدرنا فى قلب (الخلية) لاحظنا بأن (السيد البرس) كان يغفل عن ذكر بعض الوقائع ،إلا أن

(على بيك) أعاد تعهده بالتدريب من جديد – ولوحظ بأنه نشط بشكل ملحوظ بعد ذلك ..

عندما تم تخصيص مقابل مادى ثابت ،وحوافز عن كل (تقرير).

"تأشيرة بالقلم الأحمر "

: تخفض مكافآت المصدر إلى النصف ، حتى يتمكن من سبر أغوار (عبدالمنعم)

"تأشيرة بالقلم الأسود "

"أعتقد أن تقصيره كان بسبب انشغاله معهم بالمذاكرة ، وأرى عدم منحه مكافآت،حتى يهتم بالتكليفات السابقة " .

•••

(٧) صلاح حسين عبدالقوى

... النوايا الطيبة لا تخلق مجتمعا جديدا"

" صلاح .. تفضل – قدم نفسك – أنت تخاطب قارئا فى منتهى الذكاء – هاك القلم والورق – أم تفضل حديث القلب للقلب " ؟!



الفصل السادس

القنط رجل المستحيل

«..فى صغرى أصبت بالتيفوئيد والجديرى المائى والحصبة والقراءة - تاريخى جمعته من الأم التى رحلت وأنا فى التاسعة، والخالات والعمات ، وفى الأوقات التى كانت تسمح بها مشاغل والدى ، الذى كان يعمل بالنهار ميكانيكيا بمصنع الورق ، وفى المساء معاونا فى ورشة الخواجة نيكوس التى انتقلت ملكيتها إلى الأسطى جابر..وكان الرجل طيباً ، لكنه مغلوب على أمره ،..

شفيت من التيفوئيد، بدون آثار على الدماغ ، وشفيت من الجديرى المائى بدون آثار على البشرة وقد تواريت فى الثوب الأحمر والتهمت عددا من أطباق العسل الأسود حتى هزمت(الحصبة).

إلا أننى لم أشف مطلقا من مرض (القراءة).

تسبب ذلك المرض فى نقلى من حالة الرضا التام إلى حالة التوتر ، فأصبت بذلك المرض الرعاش ، بقيت أختلج طوال عمرى ، فملأت البيت ، الحجرة المتاحة لى، بالكتب والمجلات والصحف ..

كانت بالنسبة لى زجاجات وأقراص العلاج مع الوصفات البلدية واللبخات ..

بدأت بالبلبل والسندباد ، والروايات البوليسية ، حتى قطعت نصف شوط المراهقة.و فى النصف الثانى ، تسلمنى عزيز أرمانى وفؤاد القصاص لتوصيلى إلى إحسان عبدالقدوس، سلمونى له بدون إيصال استلام ،فأستولى على وجدانى مجانا، فى فترة المراهقة والأحلام ..ثم عثرت فى

دربة على أمين يوسف غراب ،وفى نهاية معبده وجدت يوسف السباعى والشارونى وأنيس منصور يجلسون على دكة (الإحتياطى)

وعلى الدكة المقابلة كان يجلس عبدالرحمن الخميسى والشرقاوى ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وطه حسين وتوفيق الحكيم !

أخذت انتقل من حجر إلى حجر ، كالطفل المدلل ، طال جلوسى عندهم ، كلما تجاوبت مع أحدهم سلمنى إلى فيلسوف يعشقه !

كان يسعدنى أنهم يجلسون فى صف.وخلفهم ،عالم من المعارف والأحباب منحونى مفتاح العالم ، فأزداد اختلاجى وتوترى حتى كف الجيران عن إحضار أكياس البرتقال والموز والجوافة والبلح الزغلول ..

بعد أن أغمض الطبيب عينه وأسقط يده بجانبه يأساً .. قال :

- عملنا ما فى وسعنا والباقى على الله ، أنصح بأن تأخذونه إلى البيت حتى لا تشرح الجثة فوق كتب التراث .!

قالت لى عمتى (كنت أقضى فى كنفها معظم طفولتى ..)

- عيناك يا ولدى (اتمققوا) أرحم نفسك ، طلع لك قتب وأنت شاب صغير نظرك يا وليدى، اذهب لتلعب بالكرة مع الأولاد فى الشارع ...

وقال لى زوج عمتى (البقال):

سعر الكهرباء غال ، فاتورة الكوبانية لا ترحم ، نور ربنا أفضل ، أريد أن أعرف، ماذا فى هذه الكتب ،إذا كنت فالحاً حقا ، فلماذا تركت المدرسة، هل دلعك والدك حتى أفسدك ؟

قالت لىعمتى :

- حقا يا صلاح مادمت (تمقق) عينيك فى القراءة.فلماذا لا تذاكر الإعدادية ؟

•••

كانت وفاة والدتى وزواج والدى من أرملة، اشترطت عليه الإقامة فى بيتها حتى لا يستولى عليه أقارب زوجها المتوفى ، جعله يترك لى المنزل بكل ما فيه ..

كنت صغيرا ، أخاف من العفاريت ، قالت لى عمتى ،لا عفريت إلا بنى آدم – إقرأ القرآن.والعفاريت يهربوا بالمشوار .. !

كنت أسعى،الى من يؤنس وحدتى ، ويقدم لى خدماتى اليومية ، احتضنتنى عمتى (نعمات) أسفرت هذه الفترة القلقة عن تركى للمدرسة وكان أقصى ما يتمناه والدى لى (أن أكون صاحب ورشة مثل الحاج جابر الذى أدعى بأنه اشترى ورشة الخواجة نيكوس.عندما تم استرداد الإسكندرية من الجاليات الأجنبية.وأركب (مثله) سيارة ملاكى، وأتعامل مع الشركات الكبرى والصغرى !

ثم أدرك والدى متأخرا ، أن شهادة الهندسة فى عهد الثورة،تعادل البكوية فى عهد الملكية،وأن لهذا اللقب سحرة الأخاذ، فعاد يضغط علىّ لأواصل الدراسة ،إلا أننى كنت أمر بفترة (التدلل) وهو لم يجد وقتا لتقويمى ، فترك ذلك للأيام ، فيما بعد برر تقاعسه بأن زوجته كانت حاملا وتعرضت حياتها للخطر ، وأنه كان يثبت عكس ما يقوله عنه الناس ،أنه تزوجها طمعا فى مالها فقط ..!

وقال أيضا : لا تؤاخذنى ياصلاح ..سرقتنى الأيام وأنت كبرت فجأة.. !

•••

كنت أذهب إلى عملى فى الصباح ، صبيا فى ورشة الحاج جابر ، أنسى طعامى...

ولا أنسى الكتاب الذى بدأت القراءة فيه ، اشتكى منى الأسطوات الذين أعمل تحت أيديهم ، ومن أجل والدى (زميلهم) كانوا لا يستطيعون – ضربى– فضايقونى بإهمالهم لى... حتى تركت الورشة من تلقاء نفسى ، اشتغلت فى مصنع البلاستيك بوردية الصباح ، ونصف النهار مع المساء أصبحا لى ، قاومت رغبة والدى فى الإستمرار بالورشة لأتعلم الصنعة ، كانت حجتى أن العمل فى الورشة يستنفد اليوم وجزءاً كبيراً من المساء، وأنا أرغب فى استكمال دراستى...

الرجل الطيب اقتنع ، وانتظر أن أعود للدراسة ،ولكنى عدت للكتب ، دراستى الحرة التى كنت قد أدمنتها ..!

•••

قال لى الخواجة المالطى فى مصنع البلاستيك وهو ينظر إلى عينى المتورمتين وقد اعتقد أنى قد أدمنت المخدرات .

" سوف يا حبيبى، إذا لم تبطل الخسيس والسهر فى الأفراح، أنت تيجى مورتو.."

كنت أسهر على الكتب، لا أستطيع مقاومة الرغبة فى الإستمرار حتى أنام عليها أو تنام علىّ ..

أهملت طعامى. وأنا أمر بفترة البلوغ .. لا يتناسق فيها شئ ، حتى صارت أمنيتى – عددًا من العيون (الإستين) عندما (تغطرش) باحداهما

أقوم بفك صواميلها وإخراجها من محجرها،وأضع بدلا منها ، عيناً جديدة ،حادة النظر . .. !

وكان الخواجة المالطى قد اكتشف مهارتى، مصادفة ، فى إصلاح الماكينات المعطلة وأخذ يحذر نى من الإدمان .

(بعدين يا خبيبى ، تيجى مورتو ...!)

فى الحقيقة، أنا جئت "مورتو"..فى الأحلام ، انتقلت من الواقع إلى الأوهام بدون مشيعنين . أو شهادة وفاة، وتشرنقت فى الكوابيس والحكايات ، كنت أخاطب نفسى بالساعات ، حتى تحولت إلى فراشة دهنت أجنحتها بالألوان الكاذبة ..

ومن الأكاذيب خلقت عالمى الخاص، زاخرا (مثل ألف ليلة وليلة) ،

وركبت سفينة من السديم ، وطفت بها العالم منطلقا من باكوس إلى جبال التبت ،وهبطت فى ربوع الصين.وطفت بعجائب الهند، وصرت جنديا فى قبائل التتر والمغول،أغزو العالم الوسيط مع جنكيز خان، وأغزو الشرق مع هولاكو ..

التقطأنفاسى فى الحضارة الفارسية ،وأدلف إلى الأديرة القديمة وأدخن النرجيلة مع العثمانيين وهم يدقون أبواب أوربا ...

وأشد البايب الطويل مع المماليك البرجية والبحرية.واختفى خلف الستائر الكثيفة فى بلاط الأمراء الإقطاعيين فى أوربا.أسمع مؤامراتهم ضد الشرق للخلاص من شعوبهم التى تتطلع إلى (امتيازاتهم)...

كانت أحقاب التاريخ ، تحت يدى،ليست بالطول ،بل دوائر وأطواق ، يحلو لى ان أدخل رأسى فيها،فأصنع منها عقدا أو حزاما، أقذف به فى الهواء وألتقطه ...

كانت الأطواق ترتفع فى الهواء فى لون معين وتأتى إلىّ فى لون آخر .(ياله من سحر وخفة يد) !!

وكلما تجولت هنا وهناك ، شعرت بتفاهتى وجهلى الكثيف،ومكثت هائما حتى ظهور الإسلام ، والدولة العربية الأموية ، والدولة العباسية، وعشت مراحل الضعف والإنحلال ، فصرت قرصانا،ولما تعبت،عدت أفلح الأرض مع الزنوج فى جنوب أمريكا،وأنا فى أصفاد العبودية ورأيت أوروبا تنهبنا حتى أمريكا الغنية،استغلت طاقة الشعوب لترسمل نفسها – كما الدول الأوربية القديمة .. !

وبعدها عشت فى غابات أفريقيا ، وطرزان يدعونى إلى كوخه المعلق بين فروع الأشجار الإستوائية ، أنتظر أن يطلق صيحته آآآوواآآآآآووو ..

وكان سؤالى الأول الذى توالت بعده الأسئلة ؟

لماذا يقتل طرزان تمساحا من أجل فيل صغير ؟

و لماذا يكون الرجل الأبيض وحده قويا يصرع ألوف الأسود من أجل تخليص (الصياد الشرير) الذى جاء للحصول على أنياب الفيلة بعد قتلها؟!

•••

لماذا ؟

فتحت لى طاقة الفكر اليونانى،وعصر النهضة،ودار الحكمة فى بغداد، فكتبت البطاقات والمذكرات ،وعندما كتبت بطاقة إلى الإسكندر المقدونى ، وجهت له كلمات الشكر والإمتنان ، لأنه واصل مطاردة جيش فارس،وقطع كل هذه الفيافى من أجل أن يجلس فى قرية الصيادين(راقودة) ويزور (جزيرة فاروس) ويخطط مدينة الإسكندرية ...

وفى (باكوس) كانت أيضا شوارعنا طولية.تقطعها أزقة عرضية .كرقعة الشطرنج .صورة مصغرة من الإسكندرية القديمة ..

•••

وعلى دكة سينما باكوس.تقابلت مع الريحانى واسماعيل ياسين وشاهدت فيلم سمارة خمس مرات ، ثم شرعت فى كتابة (قصة سينمائية) زاخرة بالمغامرات ، فى كشكول كبير يمتلئ بالسطور ..

بعدها منحت نفسى أجازة.وشاهدت فيلم (فلاش جوردون) فاذا بالمؤلف الأجنبى يصل بين ذهنى وذهنه ..سلكا ..ليقتبس المشاهد التى فى كشكولى ، فكتبت دراما بكائية نواحية ، عندما راجعتها أجهشت بالبكاء ، لكن بعد عدة شهور ، قرأتهامرة ثانية فغرقت فى الضحك.!

وكان ذلك سببا فى أن أهجر الكتابة ، وأبقى ذلك المستمتع بالقراءة اللذيذة !

•••

اشتغلت فى مصنع تعبئة المواد الغذائية ، بعد أن قام والدى بتركيب الماكينات.وكنت أعاونه فى عمله ، تعاقدوا معه أن يقوم بالصيانة لكنه صدرنى لهم وقال: إذا كان هناك ما يجهله-يستدعينى.. دون أن تدفعوا لى أجرا، فصار والدى صديقهم العزيز ..! ،

الفنط فرهود،هو الذى رشح والدى للعمل فى إصلاح الماكينات بورشة الحاج جابر ...

للعمال لغتهم الخاصة واصطلاحاتهم ، نغمة الصوت ، موسيقى الكلمات لها وقع خاص، تستطيع أن تميز (العامل الأمى) من العامل المثقف. من صوته.تشبيهاتهم.تفضحهم ، ضمونى قسرا إلى فئة (المثقفين) ..قالوا عنى:

(يظهر عليه ،أنه ابن ناس) حتى بعد ان تبين لهم أنى (ابن حسين عبدالقوى الميكانيكى.وأنى ذلك اليتيم المتلطم !

تعمدت دائما أن أثبت (للآخرين) أن العمال والأميين فيهم (أولاد ناس) وكنت أغضب من أجلهم.وأتعمد أن يكون أسلوبى وطريقة كلامى لا تختلف عنهم ، حتى لا يغلقون حلقتهم دونى ، عانيت كثيرا من ألم الوحدة ، أريد أن أكون داخل دائرتهم بالقرب من المركز ، غالبت شعوراً بالزهو والتعالى إذا ما أصر (الآخرون) على وضعى فوق كواهلهم .

للعمال حساسية القواقع ،إذا لمست أجسامهم الرخوة ، غطسوا فى داخل دهاليزهم ، أنا لم أكن (موظفا) لأحصل على زملاء من فئة أخرى. والمصنع يعمل بعدد قليل من الموظفين ، أحدهم (عبدالمنعم مرعى) الذى صار صديقا لى ، جذبته دنيانا ولم يستطع شدنا إلى عالمه، وقاوم برفق ألا ينغمس حتى الرأس ..!

قال لى يوما:يا أخ صلاح ..أنت مثقف وعماد شاعر وأحمد موسى أديب ، وخضر يقرأ فى كتب التراث ..حتى على موسى والسيد البرس يتأثران بنا ، لماذا لا نفتح فى بيتى (فصلا) ونشترى بعض الكتب الدراسية ونتفق على أن نبدأ جميعا فى (المذاكرة) وتلحقون بما فاتكم ..

تدرسون الإعدادية ، وأنا أتشجع وأعيد الثانوية العامة – حلم حياتى دخول الجامعة ـ الثورة تمد يدها لنا ، لماذا لا نصعد ؟ !

نفذنا اقتراح عبدالمنعم بحماس ، رغم أننا كنا قد شكلنا لجنة نقابية.وجدت مقاومة من الإدارة.وبعض رؤساء الأقسام .

كنا نقاوم شراهة (القطاع الخاص) الذى يدفع عن نفسه التهديد إذا اختلفنا معهم وتطلعنا إلى حقوقنا. (أنت شيوعى) لقد دفعونى دفعا إلى معرفة دقائق هذه التهمة .!!

•••

عزمنا على دراسة الشهادة الإعدادية نظام الثلاث سنوات.فى سنة.من منازلهم كانت مشكلة البعض ، اللغة الإنجليزية.والجبر.والهندسة وآخرون كانت مشكلتهم قواعد اللغة العربية .

وعلى بركة الله.توكلنا.وقدمنا الأوراق للإمتحان وكان يوما مشهودا ، يوم تلقينا خطابات بأرقام الجلوس ،

مستطيل أصفر وصل بالبريد، توتر البعض عند استلامه ورفعنا من حرارة المذاكرة ،وفرح البعض به ،وكأنهم قد حصلوا (خلاص) على الشهادة الإعدادية .!

•••

كانت مضايقات إدارة المصنع لنا قد وصلت الى الذروة.وخشينا أن نفقد أعمالنا.فننشغل عن المذاكرة واستيعاب الدروس بالبحث عن عمل آخر – قدرات أهالينا تعجز عن إطعامنا، وإجتياز هذا الإمتحان هدف حيوى لإثبات الذات .

بذلنا جهودا مضاعفة ، بعضنا دخل فى حالة التشكك فى قدراته العقلية ، عندما يستدعى معلوماته فلا تأتى ، يحاول أن يقبض عليها فلا يجد فى رأسه سوى الفراغ ، فيزداد اضطرابه، كنت أبث فيهم الشجاعة وأقول لهم ،إننا جميعا ولدنا بعقول متشابهة ، وأنه إذا ما اتيحت لنا نفس الفرص ،من الخبرات فلن يكون ثمة تمايز ..و .. »

وأوكد للجميع أنه لو أنيحت لعلمائنا نفس المعلومات التى فى حوزة علماء أوربا والإمكانيات المادية لصارت مصر من أعظم الدول الصناعية ."

وكنت أعتقد أن التخلف العقلى ناتج عن انعدام الخبرات وسوء التغذية ، والانغماس فى خبرات حسية تفقد الجسم قدراته على النهوض. أو الإنغماس فى خبرات مكررة لا نستفيد منها لنتقدم إلى الأمام ..!

"فيما بعد عرفت أسباب التخلف الحقيقية "

وأن مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة .. لكن من يجرؤ على الخطوة الأولى؟

"كنت مع عبدالمنعم وأحمد موسى ندعو العمال إلى ضبط النفس وحل مشاكلهم مع الإدارة باستخدام الصبر - لنكسب وقتا . وكان أكثرنا تعصبا ودعوة للصدام مع الإدارة هو الزميل (السيد البرس) ربما كان ذلك نابعا من ظروفه الإجتماعية ومشكلة خاصة بشقيقته (صباح) التى هربت مع إبراهيم الغجرى ، إلا أن الإدارة فى المصنع متمثلة فى المهندس كمال نشأت، قادت ضدنا جميعا بلا استثناء، موجة من الإضطهاد وتصيد الأخطاء ومحاولة تحقيرنا أمام العمال .

واقترب موعد الإمتحان. وكنا نود أن نفرغ منه بشتى الطرق .

لكن أسطوات المصنع عملوا على ملاحقتنا وزيادة الأعباء علينا ، واضطهدوا بعض العمال من أنصارنا .

لاحقوهم أيضا بالجزاءات وأوامر الشغل والمعاكسات، وإذا بالعمال جميعا- دون تخطيط مسبق منا - يضربون عن العمل. يوقفون الآلات. ويتجمعون فى حوش المصنع ...

كان ذلك اختباراً شديد الوطأة على نفوسنا فى وقت غير مناسب لنا . إذ كنا كالطفل الوليد الذى لم يتعلم المشى بعد ..

اعتقدت للوهلة الأولى أن الإضراب – مدبر ، بغرض الإطاحة بنا ، ضباط الجيش كانوا يخشون إضرابات العمال، محمد نجيب أصدر قرارا بإعدام خميس والبقرى عقب اضراب (عادى) لبث الرعب في قلوب العمال.
هل ستشتعل النار في إحدى الآلات،ونساق إلى النيابة مكبلين في الحديد ؟
كان همنا الأول كيف نحافظ على المصنع وآلاته دون تلف ،طلبت من أنصارنا التأكد من خروج كافة العمال إلى حوش المصنع،وعدم دخول أحدهم إلى الأقسام .
وكلفت أنصارنا بحراسة المنافذ ، بدا ذلك كأننا قد صنعنا إضرابا محكما. وسيطرنا على العمال .
في الواقع كان الخوف يعصف بنا ، ذلك الخوف الرهيب الذى يشل العقول، لكننا فوجئنا بأن الأمور تسير في اتجاه ملائم ، لم نكن قد حددنا مطالبنا بعد .
كنا اشبه بالثورة ، صعدنا إلى دست الحكم ، ثم جلسنا نفكر ماذا سنفعل ؟
هل نكون صدى لأفعال الآخرين،أم تكون لنا تصوراتنا الخاصة ، وانتهى الأمر بتدخل (سرحان بيه) . . .
تنفسنا الصعداء ،فرحنا من قلوبنا، وكأنه آخر جندى إنجليزى يغادر معسكرات القنال ...!

•••

حل موعد الإمتحان ،طلبنا الأجازات ، رفضت (الإدارة) منحنا أجازات لأداء الإمتحان، كما أنهم رفضوا منح (عبدالمنعم) أجازة إمتحان لإعادة الثانوية العامة .
وكان قد طلب ستة أسابيع للمراجعة ، فأنفقت أجازته معنا.

كدنا نصاب بالإحباط ،إلا أن (والدى) عندما وجدنى أزفر ضيقا ، قدم لنا الحل ، ببساطة قال لى : لماذا لا تذهبون إلى المعلم فرهود ؟

كنا نعلم أن المعلم فرهود يقود حملة تمهيدية لترشيح (سرحان بيه) عضوا فى مجلس الامة ، جمعت الشلة ، وعرضت عليهم الإقتراح،رفضه السيد البرس على الفور. وبشدة ، وطلب منا عدم التساهل مع الإدارة وضرورة أخذ حقوقنا عنوة - وأن نشكو الإدارة إلى (مكتب العمل) ، ونرفع الموضوع إلى كافة الجهات المسئولة ،كما ندعو إلى وقوف العمال فى صفنا ،حتى لو استخدمنا المنشورات لعرض وجهة نظرنا. وإذا وصل الأمر لإضراب جديد فلنفعله !

وكان رأيه يتلائم وثورة نفوسنا ويجد من يحبذه ، وبصعوبة تغلبنا على هذا الرأى.و ذهبنا إلى مقهى(المعلم).وجلسنا فى الديوان وطلبنا لقاء (الرجل)،قلت لهم : يا جماعة نجرب، لن نخسر شيئا والبرس يزفر فى ضيق و فرهود رحب بنا، واستقبلنا ببشاشة ، وقال لنا،إنه كان ينتظر هذا اللقاء منذ حركة الإضراب فى مصنع ابن أخيه سرحان عبدالعال - ولم يكن (سرحان) قريبا لفرهود ،كان فرهود يعمل فى شبابه لدى عبدالعال الحاجولى. حوذيا ..يوصل له الطلبات على عربته الكارو. ويعتنى بالبغال"

•••

المعلم فرهود ،ربعة ، له رأس كبير ، يبدو عملاقا وهو جالس فى ملابسه البلدية الفضفاضة ، وعمامته السكندرانية الصغيرة ، ولكنه إذا قام وسلم علينا ، كان يرفع وجهه عاليا وهو يشد على يد عبدالمنعم - الطويل النحيف - أو خضر صاحب الجسم الرياضى ،فرهود. استمع إلى شكوانا الخاصة.وشكوانا العامة.التى تدين أسلوب (الباشمهندس كمال)فى إدارته

للمصنع ،عندما قال أحمد موسى : "إن المهندس كمال ينظر إلى العاملين فى المصنع من منفذى أنفه" ضحك المعلم فرهود بشدة.اهتز جسمه كله ثم أخذ يسعل .ورغم ذلك طلب - غيارًا لكرسى المعسل ، ومسح الدموع من عونيه بكلوة يده.وكم جلبابه.وأخذ يواصل التدخين من مبسم الشيشة.ويهز رأسه حتى أفرغنا ما فى صدرونا. وشعرنا بالراحة..

قال المعلم فرهود : يعنى أنتم تلاميذ فى الإعدادية .. ما شاء الله - ثم أشار إلى عبدالمنعم بطرف مبسم الشيشة ، وقال :أعلم أنك موظف بالمصنع يا عبدالمنعم.

قال له عبدالمنعم- إنه يود أن يدخل الجامعة..

رأينا فرهود ينتفض ، رفع رأسه عاليا.وعاد منحنيا كما كان ،وواصل عبدالمنعم حديثه حول إعادة الثانوية العامة للحصول على مجموع مناسب ليدخل به الجامعة ..

قال فرهود : فى هذا الزمن الأغبر ، بعض الناس يفضلون شراء الشهادات الجامعية!

قال عبدالمنعم :هذا أمر يسهل كشفه ..

اهتم فرهود - دون كل المواضيع المعروضة - بذلك الأمر ،وأخذ يسأل عبدالمنعم - كيف يتم كشف الشهادة المزورة ؟ ويطلب الإجابة بالتفصيل لعل بعضنا اندهش،لأنه يهتم بهذا الموضوع بالذات.وهو الرجل الأمى.وأخذ يقلب هذا الأمر على كل جانب.ويستفسر عن التفاصيل ،وتفاصيل التفاصيل ثم قال : معنى ذلك، أن هذه الشهادات يمكن أن تمر على المسئولين فى الشركات دون التحقق من صحتها ..؟

قال عبدالمنعم : إدارات شئون العاملين لن ترسلوا إلى إدارات الجامعات للسؤال عن صحة الشهادات الجامعية. إلا إذا وشى أحدهم. وطعن. فى صحتها . هذا بالطبع تقصير ، لكن صاحب الشهادة المزورة قد يختبر عمليا : إذا كان يقوم بعمله طبيعيا لن يشك فيه أحد ..

قال القنط وهو ينظر إلى سقف ديوانه فى المقهى(ياسلام) وعاد يضحك ويهتز بشدة ، دون مناسبة !

فضحكنا معه ، ثم وعدنا بحل مشاكلنا. وخاصة حصولنا على الإجازات المطلوبة ، ثم أوصانا أن نذهب إلى بيت. (عم سنجق) ونقول له إننا أتينا من طرف (فرهود) ليكتب لكل منا حجاباً يضمن لنا النجاح والتفوق – لم نعلق – وإن كنا قد اندهشنا لتفاهة تفكيره ، حتى (خضر) نفسه، قال له (كذب المنجمون ولو صدقوا ياحاج) وأكد فرهود لنا. بأن (سرحان عبدالعال) بنفسه. سيصدر قرارا باعتبار هذه الإجازات مأمورية مدفوعة الأجر ...

ثم صرف الجرسون بإشارة من ظهر يده. واعتبر طلباتنا التى شربناها قبل لقائه وأثناء اللقاء على حسابه الخاص، باعتبار أننا الليلة – ضيوفه .. انصرفنا ، رؤوسنا تدور اعجابا به. وقد ملأ نفوسنا بكرمه ، حتى أمسى المعلم. محوراً لحديثنا فى اللقاءات التالية. وفى فترات الراحة. من الإستذكار . نتحدث عنه هزلاً أو جداً ..

رجل أمى وكان يعمل عربجيا فى شبابه ، يقود عربة كارو وزوجا من البغال ، من مهامه العناية بالبغال. ونظافتها. وخدمتها. ونقل البضائع والغلال لمغازة عبدالعال الحاجولى –كيف أصبح ..(المعلم فرهود سيّد الحتة؟) .

كيف تمكن من تطويق رقاب الناس بخدماته؟، كيف صار صاحب مقهى، وعمارتين وسيارة ملاكى وخدم وزفة من الأعوان والأتباع ؟ الجميع فى باكوس يعملون لإرضائه ، فى معظم الأيام. تمتلئ المقهى بأتباعه ومعارفه ، وعندما تظهر سيارته ، وقبل أن يركنها بجانب المقهى ويهبط منها . عشرات يقفون لاستقباله . وينحنون على يده. بل يذهبون مسرعين للسلام عليه .. أما إذا دخل نقطة البوليس ،استقبله الضابط والعسكر عند الباب بالحفاوة والترحيب ، وأنهوا له (مطالبه) وهو عادة ما يذهب ويأتى بالمتشاجرين، اللص والضحية ،يأتى بهما إلى (الديوان) فى عمق المقهى ، ذلك الركن الذى أعده ،يرتفع عن مستوى أرض المقهى. بما يقرب من نصف المتر ،عادة يتصدر الركن كرسيه، تحيط به ثلاث أرائك تتوسطهم منضدة قصيرة، سطحها مستطيل من خشب الجوز المطعم بالصدف المشغول بعناية، وعلى الجدار صورة (فرهود).

يخال لمن يرى الصورة لأول وهلة. أنها صورة الملك فؤاد - بشاربه العثمانلى، نفس النظرات والزاوية ، والطربوش. وعلى كتفه العباءة والشال الحرير .

•••

كان "الديوان". ذلك المجلس. فى عمق المقهى ، يستقبل ناس باكوس ،يفض لهم منازعاتهم . مع أنه لا يجيد الكلام ، ولكنه كان يجيد الإستماع ، بينما يدخن الشيشة ،يجلس بالقرب منه - عبدالحميد البهتيمى. و سلامة البحطيطى. و يونس حسان ، وقد يترك الحديث لهم ، ولكنه فى النهاية يصدر (قراراته) فى كلمات قليلة .. لا يميل إلى ناحية أحد من المتخاصمين، مهما كان حق أحدهما واضحا ، قد يتحمل جزءا من الغرم

مقابل إيصال أو كمبيالة تحرر وتسدد على أقساط طويلة، وقد يقوم بالتغاضى عن بعض الأقساط مقابل خدمات مطلوبة ·

لا يعلم أحد من الذى أطلق على ركنه بالمقهى اسم (الديوان) كما لم يذكر مورخى باكوس.مَنْ الذى اطلق عليه لقب (الفنط) والذى لم يتمسك بـه.لأنه فى كل مرة كان يسأل ماذا تعنى (الفنط)وقد انسحب الإسم على المقهى. وفى الديوان عقدت اجتماعات فى غاية من الأهمية ، عندما ارتفع نجم المعلم فرهود ،وصار شخصية عامة مرموقة.ومعروفة ،فاجتمع لديه وجهاء المدينة وحكامها فى الإتحاد الإشتراكى.والمجلس التنفيذى.و مبنى المحافظة.!

•••

من المهم أن نذكر أننا حصلنا على موافقة (سرحان بيه)على الإجازات مدفوعة الأجر.ووعد منه لتشجيعنا ،من يحصل على الشهادة الاعدادية سيصرف له مكافأة (عشرين جنيه) ، وإذا حصل عبدالمنعم على المجموع الذى يؤهله للإلتحاق بالجامعة سيتكفل (المصنع) بأثمان الكتب لكل سنة دراسية يجتازها مع دفع رسوم الجامعة ..: كان ذلك بتأثير من الفنط فرهود - وكان لذلك أثره العظيم على نفوسنا .

•••

هتف على موسى : عاشت الرأسمالية الوطنية "

ورفع (خضر) يديه إلى السماء قائلا : يارب - قف معنا - وحقق رجاءنا واجعلنا من زمرة عبادك المؤهلين، إنك نعم النصير .."

دخلنا الإمتحان ..مع بدء إجازة عبدالمنعم للإستعداد لامتحانه - فكان يراجع لنا الإجابات وكان لكل منا سببا يخصه •

بعضنا لم يكتب باللغة الإنجليزية سوى بضعة كلمات معظمها خطأ.والسيد البرس – شكا من أنه دخل فى حالة انعدام وزن ، خلال امتحان التاريخ والجغرافيا والورقة الثانية من اللغة العربية واللغة الإنجليزية .

وعمادكان يشكو من قصر الوقت ، وكيف كانت تتبخر المواضيع من ذهنه قبل أن يشرع فى كتابة ما عنده ، وأنا كنت أعانى توترا ، أما على موسى فقد كان يقول بكل ثقة .(إجابتى نموذجية، المفروض أنها تطبع وأقوم بتوزيعها على البسكليت للمكتبات) وكان يصر على أن يذهب إلى اللجنة بالدراجة قاطعا المسافة من باكوس إلى محرم بك، رغم تحذيرنا له، وقد حدث ماكنا نخشاه ،يوم امتحان مادتى الجغرافيا والرسم، تصادم علىموسى مع مؤخرة سيارة توقفت أمامه فجأة – واضطر أن يذهب إلى اللجنة ،من الحضرة إلى محرم بك، سيرا على الأقدام – يدفع أمامه دراجته تعلو وتهبط ،حتى وصل بعد انقضاء ساعة من بدء الامتحان – ومع تقديم الأسباب سمحوا له بدخول اللجنة – كان على فى منتهى الثقة – بعكس شقيقه أحمد الذىواصل قضم أظافره وخشينا أن يأتى على أصابع يديه قبل أن تظهر النتيجة ..!

•••

نجحت.وأحمد موسى ، وعماد على أحمد ، وخضر أحمد السيد ..

ورسب صاحب الإجابة النموذجية (علىموسى) والسيد البرس.الذى واصل حالة انعدام الوزن فى جميع المواد...!

لم يتأثر على موسى .هز كتفيه وأخذ يقدم لنا التهانى وسألناه" ..أين ذهبت إجابتك النموذجية يا على"؟

قال ضاحكا :

(وقعت فى يد مصحح غير نموذجى)

وأخذ يدلل على ذكائه.بأن الشيخ خضر نجح لأنه ذهب وأحضر حفنة تراب من مقام سيدى أبو النور - وعمل استخارة بالسبحة عشرات المرات ، رغم أنه لا يزال يعتقد ان شواطئ سويسرا تطل على بحر البلطيق - هاها هاها-وسويسرا ليس لها شولطئ على البحر بالمرة.ها ها ها...

•••

اما السيد البرس، فقد أقام الدنيا ولم يقعدها ، جعل من رسوبه فى امتحان الإعدادية (المسألة الشرقية) فأفسد علينا احتفالنا - وأعاد ضجة الأحزان والإنفعالات - عندما اتفقنا على الإلتحاق بالمدرسة المرقسية الثانوية المسائية ..وللمرة العاشرة يعيد إذاعة شريط الأحزان.وذلك بعد ظهور نتيجة الثانوية العامة وحصول عبدالمنعم على المجموع الذى أهله للإنتساب إلى كلية التجارة .

وللمرة الحادية عشرة ، عندما ذهب يشكو للمعلم فرهود فى الديوان، دون أن نعلم الأسباب الموضوعية لشكواه .

وأرسل لنا (الفنط) وأكد على حضورنا إليه كاملى العدد فى الديوان - لماذا؟

جلسنا فى الديوان نتلهف على معرفة سبب دعوته لنا ، ورأينا أن السيد البرس - كان قد سبقنا وجلس بعيدا عنا - وعندما جاء الفنط ، رحب بنا بكلمات سريعة .ثم ..دخل فى الموضوع مباشرة :

..(شوفوا يا جماعة ..السيد البرس صاحبكم) ثم ألقى بالمفاجأة التى أذهلتنا فقد طالبنا بألا نلتحق بالمدرسة الثانوية دون صاحبنا السيد البرس ، (نعم)..كانت صرخة موحدة .. !؟

وطالبنا أن ننتظر إلى العام القادم.حتى يتمكن صاحبنا. مـن الحصـول على الإعدادية.(نعم) كانت قفزات الطائر الذبيح .. ؟!

توترنا جميعا ، كان مـن الواضـح أن (القنـط) استمع إلىالسيد البرس.دون حضور أحد من مستشاريه ..حاولت السيطرة على انفعالات أحمـد موسى وعماد وخضر.و كنت أرى أن نترك - القنط يتحدث ، ونعرف كيف اقتنع بهذا الرأى .ومن الذى أيده فى ذلك .

..وكنت أريد أن أشرك واحداً من مستشارى القنط.ينير له المسألة - حتى لا يحدث شقاق بيننا .

وفى نفس الوقت خشيت أن يكون هذا الرأى قد عرض أمام مستشاريه .. ففى هذه الحالة - سيحاربنا القنط من أجل تنفيذ رأيه الجاهل .

..الأمل كان يداعبنى - أن يحضر (البهتيمى) ويقف فـى صفنـا يوضـح لـه كيف يتيسر لنا دخول المدرسة الثانوية ولا نفعل، ومن أجل ماذا ؟ من أجل خاطر السيد البرس الذى ما يزال فى حالة انعدام الوزن ؟

الأستاذ ،معلم سابق.سيكون له رأى آخر فى هذه المسألة .

وجاء قارب النجاة يتهادى ويشق طريقه بين المقاعد والمناضد ، سلم عبدالحميد البهتيمى علينا بحرارة- وبارك لنا على النجاح، واحتقن وجه السيد البرس ...!

قال لنا فرهود وهو يشد أنفاس نرجيلته.ويتشاغل عنا بالنظر بعيدا :

- هل أنتم اصدقاء ؟

قال خضر الفلاح : ياسنه سوخه ياأولاد على البرس وسنين البرس ، وضعت يدى علىفم خضر. وتعلقت بذراعه ..فهمد وقلت :

- نعم نحن أصدقاء يا معلم فرهود وأصدقاء من سنين .تعلم ذلك وهو يعلم جيداً ..

قال : هل أنتم على الخير والشر معا ؟

عدت أهدئ من هدير خضر.بينما كان عماد يشيط ..و قلت :

- بالطبع يا حاج ..على الخير والشر معا .

قال الرجل : فما رأيكم فيطلب زميلكم ؟

قلت : طلب زميلنا على العين والرأس .وأشركنا عبدالحميد البهتيمى فى معرفة حذافير الطلب الذى يطالب به السيد البرس - إنه طلب غريب ، هناك مائة ألف نجحوا فى (الإعدادية) وسيلتحقون بالمدارس الثانوية ، ونحن فاتنا قطار التعليم.وبالكاد وضعنا قدمنا على أول الطريق ، كيف نجعل الفرصة تفوتنا ؟ هل من قواعد الصداقة جرنا جميعا إلى الخلف ؟!

نظر فرهود إلى عبدالحميد البهتيمى يطلب رأيه ، قال البهتيمى وقد أخذ ينظر إلى السيد البرس ،الذى تقوقع. ثم سأله متهكما :

- ماذا تريد ياسيد يابرس ؟ هل تريد من زملائك انتظارك حتى تحصل سيادتك على الإعدادية ؟-هز السيد البرس رأسه وأطرق إلى الأرض:

قال البهتيمى وهو يرفع ذقنه؛

- يا تلامتك يا أخي.يا برودك ،وهل هذا طلب معقول ؟

قال القنط ، الذى كان يبحث عما يرضى به (البرس)

- أبحثوا عن طريقة ترضى زميلكم ..!

قلت وأنا أتمسك بشدة.بأن أفصل بين انفعالى وكلماتى ،وأتذكر حواراتى مع أحمد موسى الذى كان ضد القيادة الجاهلة، وقد ثبت أن رأيه فى محله:

- نحن سنلتحق بالمدرسة الثانوية وعليه أن يجتهد ويلحق بنا ، نحن سنكون فى انتظاره لمدة ثلاثة أعوام ، ما رأيك يا حاج ؟.كن معنا يا أستاذ عبدالحميد.

عاد الفنط يحدث البرس :

- هل تستطيع النجاح فى العام المقبل وتلحق بهم يا برس؟

تردد السيد البرس فى الإجابة ، ثم ازداد اكتئابا وهو يقول :

- ظروفى المادية صعبة للغاية يا معلم فرهود ،مرض أمى ومصاريف علاجها وأختيصباح. كما أن أخى فقير ولا يستطيع معاونتنا ،ماذا كنت أفعل ، أنا لى عقل مثلهم ، لكن..

انخرط فى البكاء ..ثم عاد يواصل حديثه :

-ظروفهم المعيشية ساعدتهم على أن يسبقونى ،هذا ليس عدلا ..وأنا..

كان الزملاء قد استشاطوا غضبا ، دخانهم يخرج من عيونهم ..عاد الفنط للاستعانة بالأستاذ عبدالحميد ..قال عبدالحميد البهتيمى:

- ياسيد يابرس ، دع زملاءك وشأنهم ،حاول أن تلحق بهم ولا تعطل مسيرتهم " نظر إلى المعلم فرهود وقال :

- الحاج فرهود سيعاونك على أن تتغلب على ظروفك الصعبة، وبإذن الله تلحق بزملائك فى الثانوية .

(نظر ناحيتنا ..وقال) تفضلوا أنتم ،ومبروك على نجاحكم وبيضوا وجوهنا فى الثانوية، واتركوا لنا الأخ سيد البرس ..سيجد له الحاج فرهود حلا بإذن الله .

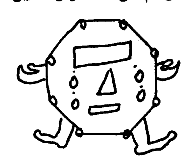
لم نتحدث، قمنا دفعة واحدة ، التصقنا فى صف واحد ، وخرجنا من الديوان إلى المقهى ،إلى الشارع . كأننا نهرب قبل أن يبدل الفنط - اقتراح

البهتيمي.ويقرر عدم التحاقنا بالمدرسة الثانوية ، سألنا أنفسنا ،هل يستطيع ؟
كانت الإجابة بالإجماع (نعم) ..وبكافة الطرق المشروعة.وغير المشروعة. كان يستطيع !
إنه الفنط فرهود ..رجل الخير والشر فى باكوس، على أتم استعداد أن يقتل بنى آدم من أجل أن يقدم معروفا لبنى آدم آخر !
تجنبنا عن عمد إعادة تذكر هذا اللقاء المؤلم على نفوسنا .
حاول خضر أن يتلكأ لتوجيه اللوم إلى السيد البرس ،بعد خروجه من المقهى لمطلبه المستحيل ، ولكننا آثرنا أن نبتعد عن الديوان وصرة السوق ونهرب بعيدا بما حصلنا عليه !
قال عماد :
- فى ظنى أن الفنط سيرتب له مساعدة مالية ، وربما دفع له أجر المدرسين وعلاج والدته ..
قال أحمد موسى :
- لكن ماهو الثمن ؟

•••

عقب هذا الموقف الغريب من السيد البرس، حدث أن تم تعيين سلامة البحطيطى رئيسا للعمال بالمصنع ثم دعا إلى تكوين نقابة جديدة بالإنتخاب - وعندما قاومنا ذلك ،اتهمنا بالديكتاتورية.وعدم ممارسة الديمقراطية ووعدت مفتش مكتب العمل باحضار المستندات ومحاضر النقابة ..تربصوا لى على قمة شارع محطة ترام (صفر)، وضربت أمام باب جامع سيف من الخلف بالنبوت ،الأول-على الرأس - والضربات الأخرى على ساقى ،وفقدت المستندات ، وكسرت ساقى، وتم وضعها فى الجبس.

كان الزملاء يأتون لزيارتى فى المستشفى ، ولم يحضر السيد البرس ..
وسألت عن (خضر) الذى افتقدته ، فـأخذ الزمـلاء يحدثوننـى عن صعوبـة المـواد بالسـنة الأولـى الثانويـة ، لأنها تجمـع بيـن المـواد العلميـة والأدبيـة بالإضافة إلى لغة أجنبية ثانية .
قلت: قال يعنى ..عارفين اللغة الأجنبية الأولى؟
عدت أسأل عن خضر ..
قال عماد ليتخلص من إلحاحى :
- خضر العقبى لك، تزوج السيدة عايدة ..
قلت : لابد وأنه كان (مدكن) قرشين ..
قال أحمد موسى :
- البركـة فـى القنـط يـا سـيدى ، شـلة البحطيطــى بتكـبر ، والطريـق أمــام أعضائها مفروش بالترقيات ، لقد أصبح (خضر) أسطى على قسم التغليف
قلت ببساطة .. لم يتوقعوها :
- وما الضرر فى ذلك، العقبى لكم جميعا، خضـر ..ينـام علـى الجنـب الـذى يريحه ..
* هل كنت بالفعل هادئ النفس ,أم أننىكنت أمارس أكاذيبى الأدبية القديمة؟



الفصل السابع

البطولة المطلقة

لحكايتى عجلات وحصان أشهب عجوز ، وفى صندوقى مجموعة ألحان موسيقية (سولو) تعزف بالناى القصير ، يستمتع بها الكادحن ، ورواد مقهى الفنط فرهود، وسكان حى باكوس ، من بائعى الخضروات والسمك الصغير واللحم السقط والسردين المملح ويشاركنا الإحتفال عمال المانيفاتورة ، وطباخو مطعم ألف ليلة ،وعمال زريبة ألبان الحاج سلام و...

وفى نفس الصندوق ملابس التشخيص ، عثمانية ومملوكية وأفندية وريدونجات قديمة ، كان يرتديها كبار المحتلين فى الحفلات الكبرى، ثم ارتداها بعض المقلدين والمشخصتية،وعجزت ألسنتهم عن الرطن باللغة الأجنبية أو العربية ،

وعندى فى الصندوق ، موقد لصنع الشاى.وصندوق صفيح للدخان . كان فى حوزة والدى، وكان به مستطيل يلف السيجارة اذا ما أغلق الغطاء. سيجارة صناعة يدوية .

ويوما اعتقدت أنى وحدى يمكن أن أكون، جوقة ، يمكن أن احفظ كل الأدوار. وألعب (الرواية).وحدى.على المشاهدين - دون أن يلحظوا غياب أحد - هكذا ضللتنى ثقافتهم، بأن الفرد وحده قادر على القيام بالبطولة المطلقة دون الحاجة للأخرين..!

لكن المجذوب عابر السبيل _قال لى : هل استطاع النبى محمد وهو النبى .. *المرسل* أن يحارب كفار قريش وحده ؟

وأخذ يصفق بكلتا يديه ، حتى صم أذنى ..!

- اليد وحدها لا تصفق يا بنى أدم ..!

ومع ذلك حاولت مرة أخرى ..!

أقمت عددا من المرايا ، جعلت (النظارة) يشاهدونني وكأني (جماعة) على خشبة المسرح، فلم يصفق أحد ، غامت صورتي في المرايا بفعل تكاثف أبخرة أنفاسهم الحارة ،عندما كان الجميع يتحدثون نفس الحديث ويأكلون بشراهة.ويتجرعون مشروباتهم الرخيصة من الخمر إلى البوظة" وعندما وجهت صفحات المرايا نحو النظارة.اختلف الأمر ،انعكس زحامهم عليها وبرز دورهم الفعال...!

فاذا بهم يصفقون إعجابا ، لقدرة الممثلين الرائعة على نقل مشاعرهم ،

من هنا أدركت أن (الجوق) بدونهم يخلو من الفن القدير .!

ودار السؤال الحائر في ذهني وأنا على سرير المستشفى ..

عدة دورات.واستقر بدون علامة استفهام ،

كيف ننتقل جميعا بحصاني الأشهب العجوز إلى أقاصي القرى والنجوع لإعادة عرض المسرحية.في ليلة مقمرة ..دون أن يغضب علينا ما شيست الجبار .؟!

•••

امطرت السماء.فتدثرت ببطانية المستشفى ، صار شارع السوق الذى يكتظ بحركة المرور ، حقلا يتمايل في أحواضه الزرع الاخضر ، تهب منه إلى سريري دفقات الريح الباردة. والمقهى سفينة معلقة في ساقية الميدان أصوات الباعة في سوق السمك مختلطة بأصوات الباعة في سوق الخضار تحولت الأصوات إلى هدير كالموج .. وجاء النادل ..نفس الوجه الليموني لنادل مقهى الفنط ،الذى يتجول بين أجساد الزبائن ، يعامل من لاينفحه الهبات، معاملة اللورد كرومر لوزراء الأقليات ،يقترب من ديوان الفنط

ويميل على أذنه المسدودة بالشعر الكثيف دون أن تتحرك شفتيه الرقيقتين يهمس له بالأسرار. فيهتز رأس الفنط الضخم ،يغمض عينيه - تلذذا - ويغيب النادل ليحضر الشاى -يمسك بيد واحدة عددا من الصوانى. وباليد الأخرى. عددا من سنانير البوص المجهزة بالخيط والشص ، وفى إناء السكر - حفنة من الديدان الصغيرة. والجمبرى الفقس. وأرى بعض الزبائن على مقهى الفنط يشدون من طرف البوص الدخان .. وآخرون يشدون خيط السنانير ، ثم يلقونها على رؤوس المارة فى زحام المفارق. فيصطادون محافظ نقودهم ، بطرق غاية فى المهارة ، ويخرج الدخان من الأفواه خفيفا كشابورة الفجر البارد ، التى تخرج مع أنفاس السارحين مبكرين إلى أعمالهم فى أيام الشتاء القارصة .

.. الولد الأشقر صاحب الوجه المربع الأحمر والشفاه المزمومة ، يفتح رصاص بندقية ، سريعة الطلقات على لصوص الماس فى حوارى اسطنبول ويرطن والترجمة تعنى (اللعنة على الشرقيين) ويتناسى البغل إلاسترالى أنهم - يوما- طرقوا عليهم أبواب النمسا ، فتركوا فراشهم الوثير وألقوا بأنفسهم من النوافذ على تلال الجليد ،

تهرب بعض المحافظ الجلدية تحت قاع الرصيف. وتخرج السنانير فاقدة الطُعم ،

هدير الباعة. كهدير القطارات ،التى تنفث دخانها الكثيف وهى تدخل محطة السوق. وتغادرها إلى محطة غبريال شرقا. أو الظاهرية غربا. بينما البوص والهيش يتمايل على الجانبين. فتغادره العصافير .(وأبو فصادة) يرحل إلى شريط الترام الخشبى ذى الدورين ، تومض فى أعلاه السنجة ، وزمارة الكمسارى رائق المزاج تنطلق طويلة متقطعة فى ثلاث نغمات ، تحرك

الترام ،من محطة صفر إلى محطة باكوس إلا أن رائحة السمك التالف تضايق خواجات الدرجة الأولى ..

وعند المزلقان يعبر ناظر مدرسة الرمل الثانوية شريط الترام . وهو يتصفح جريدة الأهرام .فيحيه - حامل المطرحة الحمراء - ويدق سائق الترام الجرس لفتح الطريق. بانفعال زائد .

ويستمر هدير السيارات والعربات والقطارات فى السوق ، حتى ينبلج الفجر وينطلق أول باص من موقف غبريال إلى المنشية .

هنا لفتت نظرى أمرأة فى لباس البحر .مسجاة تحت المظلة الملونة على رمال شاطئ جليم ،لها صدر (سلوى) وعينان أغلقتهما على أول نظرة طويلة منى ، فجلست انتظر أن تفتحهما حتى أخلص (نظرتى) التى لم تكن بريئة.من فوق صدرها . وأجمع شتات نفسى وأستعد للهجوم.!

"أرفع الغطاء عن ساقى لحقنة فى العضل ، لم تنخفض حرارتى بعد ..

هرب اللصوص فى السيارة الكاديلاك التى تحطمت فى المنحنى.فركبوا سيارة أخرى ، كاديلاك أيضا .ولونها بيج فاتح ، وتحطمت أيضا، بأن سقطت من شاهق .على الصخور. فركبوا أخرى - أحلم بسيارة فيات ولم يعد يسلينى أن تتحطم عدة سيارات كاديلاك ..

وعلى باب دكان البازار ، جلس أحد الدراويش مستغرقا فى التمتمة والإبتهالات وهو يكشف على البريمو فى لوتارية خاسرة .

لم تعد تزعجنى المطاردات الأمريكية ، وصوت الرصاص - غفوت من جديد ،قبل أن تغادر الممرضة الحسناء رمل الشاطئ الناعم وتترك فى أنفى رائحة اليود مختلطة برائحة النساء الرائعة .

•••

كنت لا أزال أعانى من ارتفاع فى درجة الحرارة ، الممرضة الشابة (سلوى) حقنتنى مرتين، ولكن الآلام كانت شديدة من جراء كسر ساقى وضربى على أم رأسى .

لازالت أعضائى تضج بالألم من أثر الضرب ، ضربونى بقسوة شديدة ، بكراهية شديدة ، من أين أتوا بكل هذا الحقد ؟ وهم لا يعرفوننى، وليس بينى وبينهم عداوة سابقة ؟

هل يمكن لإنسان أن يحلم بشئ لم يره فى الواقع ..؟!

قامت الممرضة (سلوى) فى شكلها الملائكى برعايتى ، عندما كانت تأتى ، كنت أنسى تماما آلامى المبرحة.وأدرك - بوعى - أن المريض فى أشد حالات ضعفه، يتشبث بمن يواسيه أو يعتنى به ،

و كثيرة هى قصص الحب.بين المريض والممرضات ..ولكن سلوى من أول حقنة وبرشامة.اعتبرتها خارج العموميات..!

•••

أبلغت المحقق أننى لا أتهم أحدا ، ولا أعرف تحديدا من هم الذين اعتدوا على بالضرب أمام جامع سيف ..

سألنى : لماذا لم تصرخ مناديا عسكرى النقطة ،التى هى أقرب المبانى للجامع؟

قلت : لا أدرى ، هل كنت أصيح أم لا ..الضربة الأولى كانت خلف الرأس دوختنى.وجعلتنى أشاهد لوحات سريالية ..

سألنى: لماذا رأسك لم تشج أو تبطح

قلت : رأسى ناشفة - لم يبتسم - أصلى صعيدى يابيه -لم يبتسم أيضا.

سألني : لماذا كسروا ساقك ؟

قلت : إنهم لم يعرفوا أني تخدرت من الضربة الأولى.وقد خبأت رأسي تحت أقدامهم . !

قال : لقد كتب لك عمر جديد ، إذا توصلت إلى شئ اتصل بي فورا ..لأنك الوحيد الذي يعرف من هم خصومك! ..

أقسمت بأن ليس لي خصوم ..وأردفت (خارج حدود باكوس على الأقل)

فنظر إلى شزرا وكأنه يقول لي:(مستخف دمك ؟) ،

•••

أحاطتني سلوى بعطفها ، أنا ربيب حواري باكوس الصاخبة ،لأول مرة أتبين أن للهمس موسيقا تأسر الوجدان ، أظلتني تحت أجنحة الكلمات الرقيقة .نعم كانت لكلماتها أجنحة حريرية ملونة، ثم صبت في أذني رحيقا ذهبيا ، عندما كانت تعاونني على رفع رأسي من على الوسادة ، كان صدرها فوق صدري وشعرها يلامس وجنتي، ورائحتها في أنفي - للنساء عبيرهن الخاص - أين كنت يا سلوى وسفن كولمبس كانت تسير في ظلام المحيط، تختلط في صدور بحارتها مشاعر اليأس بالأمل حتى لاحت اليابسة ذات لحظة مبهرة ، جزيرتي سلوى ، أقابلك وأنا في أشد حالات الضعف والهزيمة ، فأتجاوز إحباطي وتنطفئ نيران ثأري وتنتفض أجنحتي وقد عزمت على الطيران ..."!

لماذا أشعر بالضيق ..إذا تلكأت سلوى عند سرير مريض آخر ، إنه رجل طاعن في السن.وعلى وجهه لون النهاية ..ومع ذلك كنت أشعر بالضيق..

•••

"جاء إلى زيارتي الزملاء – لفتت سلوى نظر عماد ،همس فـي أذنـي – رب ضارة نافعة – ملاك الرحمة يحلق هنا .وهناك.ويحط على سريرك «

سألته عن الأحوال فى المصنع ، عاد يغمز لى ويتهيأ للرحيل »

عندما اقتربت سلوى تنصحهم بعدم إرهاقى وقصر مدة الزيارة قال على موسى (هنيئا لك ياعم . ياليت رجلى أنا التى كسرت) .

"طويت أجنحتى ، وتمنيت أن أكون من أهل الأرض أمتلك ذراعـان قويـان وأعضاء مشحونة بالدم الحار ، تمتلئ برحيق الوجد ، وفـى قبضتـى رمـح أبيته فى مدينتها النحاسية ، أهتك بـه ستر الهمس ، وأجعـل مـن الكلمـات الهائمة حزمة من زهر اللوتس ،انثرها على قمة تمثال العشق !

– عندما كانت سلوى تدلك أعلى الساق لتطمئن على تصريف الوجع خيل لى أنها قد نضت عن بدنها الغلالات ، وأنى أحط على صدرها كعصفور .

•••

زارنى سلامة البحطيطى – حمـل تحيـات القنـط فرهود.وسلسلة مشـاغله ، جاء بصحبته صاحبى خضر ..وأبلغنى أن القنط لن يهدأ له بال حتى يصل إلى الذين ضربونى – ونعتهم بالجبناء – وذكر أمـامى طرفـا ممـا حـدث لـه زمان وكيف عاونه القنط فى الثأر..

هل جاء الجانى يحوم حول مكان جريمته ليطمئن ..؟

أحمد موسى .. أخذ يرفه عنى ببضع نكات ، ثم أخبرنى أن الدراسـة ستبحر فى الجزء الثانى من الكتب، وأنه سيوافينى بكافة الدروس ، ثم تذكر شيئا إذ ضرب جبهتـه ليفيق وأخبرنى بـأن (الأستاذ محمود) سـأل عنـى ..وعـن أحوالنا جميعا قلت :محمود ...مَنْ ؟

- محمود الرملى-زوج مدام فتحية ، محمود الرملى يا أخى ..؟

قلت : هل تناقشت معه فى السياسة ؟

قال : ليس معه ..لكن عنه ..(يقولون) إنه على يسار اليسار ..

" لم تكن بى رغبة للمناقشة والتطوح بعيدا ..أين يسار اليسار هذا؟ أن يكون محمود الرملى يسار اليسار .وسلامة البحطيطى يدير المصنع بالأسلوب القبلى ويتلقى تعليماته مباشرة من الفنط فرهود (الجاهل) .ابتسمت فى إرهاق .بينما كان احمد موسى ... يعيد على مسامعى (أكليشهات) لم تتغير كثيرا منذ أن نحتت فى بداية القرن التاسع عشر ..كيف ينأى – أحمد موسى– بنفسه ،حتى يتحول إلى ببغاء له ريش ملون ؟ كنت أفكر فى شخصية(محمود الرملى) واهتمامه بنا ، وإن كان صاحبى أحمد موسى كعادته.قد خلط الجد بالهزل.فلم أصل إلى قرار .

•••

" لا تندهش ، القضية الأولى ..أنا الجانى وأناالمجنى عليه ، وأرى أن العقوبات المقرونة بضرورة النفاذ الفورى . لن تردعنى، لقد أدمنت أحكامك ..التى تتجاوز الدستور.وتقفز على المواثيق الدولية ، وكأنك محكمة خاصة ليس لها استئناف أو نقض.فى زمن القلق.وانتشار الفساد المتألق. من مادة واحدة.عقوبتك الإعدام حتى الموت ، تنطقين حكمك ،ثم تذهبين – كبقية الطغاة – تتناولين طعامك وترتدين قميص نومك ثم تغرقين فى سبات عميق ، وأنا بقلبى الذبيح.معلق فى حبل عشماوى ،وأشعر بشئ من السعادة لأن ..هذا الحكم أتاح لى سماع صوتك الحبيب .."

حذرت نفسى مرارا من بقايا المراهقة.التى قد نتجاوزها فوق الكتب أو تحت المسئوليات، وهى عالقة بأعطافنا. وجهت لنفسى عديداً من النصائح ، من

أول (عيب يا جدع) حتى (أنت لا تعرف عن سلوى شيئا.. أمثالها يكتسبون الجرأة بالتجربة .كم من طبيب امتياز ..قد قبض على هذين النهدين ، وامتص رحيق تلك الشفاه المقلوبة.فى رفق مثير.وأقول لنفسى: حرام عليك يا جدع الدنيا فيها وفيها .!

•••

أسفرت تحذيراتى إلى إنتقال الجرأة إلى تصرفاتى ، كنت أريد أن تغضب فلا تأتى مطلقا ،لكنها بادلتنى عشقا بجسد ، كنت أتدرب على السير ، فأذهب إلى حجرتها ، تدعونى لشرب الشاى - وعندما تتصرف زميلتها - تتلبسها الشياطين ، نتلامس ، فكان الشرر يتطاير حولنا .قبلتها قبلات خاطفة.فقبلتنى قبلة طويلة - جلين فورد وريتا هيوارت فى"جيلدا" استرخيت على منضدة الكشف ، وجهنم على سفح جبل الجليد ، رشت فى أنفى عطر الأنثى ، تخدرت ، أدمنت ، وعندما استيقظت، كنت أبحث عنها ، عبرت البرزخ ، من ضفة إلى ضفة ، صرت جنديا بدرجة نفر فى جيشها المدجج بالعواطف ، على أهبة الإستعداد للموت على طرف الليل وفى خضم ضوء القمر " .

ولأنى عشقتها بالفعل، فقد خبأت سرى عن الصحاب ،حتى عن نباهة (عماد) وفراسته .

كان يقسم بأغلظ الأيمان - أن السالب والموجب أطلقا الشرارة الكهربية الخالدة !!

وقبل خروجى من المستشفى بثلاثة أيام ، دعتنى بلا دعوة ،فلبيت النداء ،كان كل شئ مهيأ لطبع ذكرى تمتد حتى نهاية العمر ، ولكنها .. حجزتنى على الضفة الأخرى، دون أن ترسل لى بقارب الوصول إلى الجانبالأحمر!

ـ (ماذا) ياسلوى ؟

– أنا وقعت فى حبك (ياابن الإيه)

– طيب ..(واقفه بعيد ليه)

– لأجل أن ترانى ،إذا اقتربت منك أكثر لن ترانى بوضوح ،صلاح ..أنت لم تعرفنى ولم يكن لدينا وقت كاف لنتعارف جيداً .

– بعد كل هذا لا أعرفك ؟

– لقد عرفت سلوى التى ترغبها ..لكن ..

وانخرطت فى البكاء .انقلبت مائة وثمانين درجة ،من حالة فرح شاعرى إلى حالة ميلود رامية مأساوية ،كان الإنتقال مفاجأة لى.فجلست مندهشا شكلا – و مغتاظا من الداخل ـوأنا أغالب رغبة فى صفعها .على وجهها الجميل كما يفعل العاشق الفرنسى الشعبى ..!

وعندما أخذت أربت على ظهرها وأضع وجهها فى صدرى ،كنت أضمها ضمات خفيفة وأنا ألتصق بها وأغالب سعيرا فى أحشائى ..كانت تتكلم ..

" يتيمة الأب ، تزوجت أمى من مساعد فنى بالبحرية ، سبق له الزواج عدة مرات ، يأكل نصف خروف ولا يغادر حجرة النوم إلا لماما ، زوجاته السابقات هربن من عاداته الحيوانية – ترك لها والدى – بيتا من ثلاثة طوابق،به ست شقق ، يحصل زوج أمى الإيجار.ويغضب إذا طالبه أحد بالحساب ، أعمل ممرضة منذ خمسة أعوام ،ويحاول الصول قبارى أن يزوجنى من شقيقه (البورى) أسمه الحقيقى خليفة – طلق زوجته الممصوصة بحجة أنها تناكفه ،فى الواقع كان ذلك تمهيدا لأن يتقدم لى فقد وضعت شرطا.أن لا أتزوج وعلى ذمته امرأة أخرى.وذلك من باب

التسويف والتهرب من الإقتران بالبورى،وعلى أمل جمع مقاومتى للوقوف أمام ضغوط الصول قبارى وأمى .

لكن (حصول) كان يمهد للبورى الطريق للوصول إلى سريرى ، ثم يعالج الجروح فيما بعد.وهو يعلم متى أكون وحدى فى البيت - استطعت تسييس البورى وتهدئة اندفاعه - رجل ضخم - رائحته زفرة ، ولا كلونية الدنيا تستطيع أن تزيل من أنفى رائحته.و كأنه لا يبيع إلا السمك العفن.ويبات فى حوض الثلج المجروش مع السمك ، بارد وتلج !

هل هى حكاية مختلقة ،ألفتها حتى تدفعنى إلى طلب يدها ؟

وكأنها تقرأ أفكارى - قالت : الزواج قسمةونصيب يا صلاح.وأنا أولا أرغب فى الهروب من (البورى)، ثم أى رجل فى الدنيا سيكون أفضل منه .

وقالت فى ضعف ساحر(إذا كان لى نصيب فيك ربنا قادر على كل شئ) .

إلى متى تستطيعين ترويض الوحش بداخل البورى يا سلوى وهو الذى يغذيه باللحم النيئ و أنت قد سلمت لى ذلك البدن الجميل الفياض بالأنوثة ، واكتفيت بحماية منطقة صغيرة الحجم؟!

ثم عادت واقترحت : فى استطاعتى التعاقد للعمل فى الخارج ، ولكن يلزمنى (مُحرم) لن يكون مرافقى البورى الزفر .

ثم منحتنى سلسلة من القبل ، وتعللت بأن الوقت سرقنا وتركتنى أقلب الحكايات فى رأسى ، الذى يكاد ينفجر "

أنا أيضا عشت يتيم الأم ،وأبى كان مشغولا عنى بزوجته وأولاده ، ولد وبنت من زوجته الثانية .

هل تضحك لى الأيام ؟ وكأن الإعتداء المدبر كان سببا فى أن اعثر على نصفى المفقود ،نسافر معا,الى الخارج. ننهل من الحب.ونأتى بالمال الوفير ؟

•••

قبل الإسترسال فى الأحلام ، ثمة شئ يقف حائلا بينى وبين تصديقها ،كنت أريد كشف حقيقتها أُولا، حتى لا أقع ضحية لخيال خصب ،لماذا العجلة ؟ وأنا سوف أستكمل علاجى فى بيتى ، فأقترحت عليها أن تأتى إلى فى البيت - لحقنى ثلاث مرات فى الأسبوع. وذلك بعد خروجى من المستشفى وهذا سيكون سببا وجيها لنتلاقى ..

كنت مضطرا لأن أشرك معى عماد وأحمد موسى.وأطلعهما على كل شئ. وقبل أن أزيل الجبيرة ، أكدا لى سويا.صحة قصتها . بعد أن قاما بالتحقق من الجيران، بل واكتشفا أن البورى - سوابق - ومدمن شجار مع التجار والزبائن ، ويسمونه فى سوق السمك (البورى لبط) وهو بالفعل شخص بشع وجلف ولدية زوجة (لبط) مثله، يطلقها كل أسبوع مرة ، ويردها على يد من يغرم بأكل السمك الشراغيش !

اعتادت المرأة العصبية أن تفرش له الملاءة فى قلب السوق.وتفرج عليه خلق الله ، ويتدخل التجار لفض النزاع ووجع الدماغ.وزهقوا من الإستماع إلى الحكاية المعادة. بأنه لا ينفق على أولاده ويضربها (وكذا مرة) شج رأسها.وفى النقطة يتم الصلح بينهما. وتقر وتبصم بأنها تعثرت فى درجات السلم فنزلت على أم رأسها (..وأسقط فى يدى)

هل أستطيع - أنا -الذى تم العدوان عليه.فتقوقع داخل شرنقة الإحترام وتنازل عن حقه فى الثأر. والآثار لازالت باقية خارج الجسد وداخله.أن أتصدى لهذا البورى اللبط من أجل (مجموعة) من القبلات والضمات بنصف استمتاع؟! ، وهل سلوى هذه .هىالفتاة المناسبة لى ، والتى ستقوم بتنظيم كتبى.وتجعلنى استكمل تعليمى ، وفكرة السفر الى الخارج بعيدة عن

ذهني،فأنا لا أستطيع السفر وأمامي الدراسة.كما أن والدي قد أزال سبب تأجيل تجنيدي بطفل غاية في الشقاوة وخفة الدم .

من المؤكد أن سقراط تزوج عن حب ، ثم بعد ذلك رفض الهروب من شرب السم حتى لا يعود إلى زوجته ..هل ستكون (سلوى)مثل زوجة سقراط ؟

كنت أضع أمام عجزي العراقيل ،وأخضع وجداني لحيثيات جاهزة . ليكف عن الرغبة فيها .

تغلبت على خطط العقل المنطقية وموازينه القياسية تطيح بتلك التجريدات التي بنيت منها سداً عاليا،حتى أوقف تدفق إحساسي الرائع بها !

•••

بينما عقلي يقف في قلة من جنده – تمنيت – لوكان لعقلي القوة التي تفرض ديكتاتوريته ، ولكن كافة القوى العاطفية.اصطفت لصالح (سلوى) إذا قال الديكتاتور : المستقبل يا جماعة ..

قالت الأغلبية : في علم الله يا أخي!

ولم يكن أمامي إلا – الفنط فرهود.أستعين به وأنا في غاية الحرج !

•••

قال فرهود إنها حالة إنسانية ، سأقف معها حتى لو لم تتزوجها باصلاح . كلام من الحلق .. فالفنط يغرم بحل المشاكل ،ماذا سيقدم لي لحل هذه المشكلة؟كيف أجعل (البوري لبط) يبتعد عن طريق سلوتي ، سوف تندهش سلوى لقدرتي الخارقة ، وبأن هذا الشاب دقيق الحجم الذي أتى إليها في المستشفى معتدى عليه.والمسامح كريم . قد خسر معركة.ولكنه لم ينهزم . ولديه طاقات جبارة ..!

وعندما ارتحت لما وصلت إليه خشيت أن يجنح العقل إلى انقلاب مفاجئ. فدثرته بعديد من الحجج الكثيفة ، حتى لاأكتشف بأننى أقلد الأن السيد حسنين البرس (وقد حصرت همى فى ذاتى).

ومن تحت الغطاء السميك - جاء تحذير العقل الصوت يا جماعة ..الصوت، حتى يمكننىالنوم . !!

•••

جاء الأستاذ محمود الرملى إلى زيارتى - كان سرحان عبدالعال بنفسه قد اتصل بوالدى (الذى كانت علاقته بالمصنع لا تزال قائمة بسبب الإصلاحات التى تتم فى ورشة الحاج جابروكان يمنح والدى مكافآت إضافية من المصنع إذا تم إصلاح ما يرسل فى الموعد المحدد، وأقوم أنا بدور المراسلة بين المصنع والورشة ..)

اهتم والدى اهتماما خاصا بهذه الزيارة ، جعل زوجته تبدل الستائر وتنفض السجادة وترفع بياضات الصالون وتكنس بسطة السلم.ووقف والدى ، يشرف بنفسه على كل شئ ، متوترا فى الشرفة برغم أنه كان يردد بأن الأستاذ محمود ..رجل متواضع وشعبى ، ويحب الناس.إلا أنه حتى يطمئن لحسن الاستقبال.كان يسأل" عن المشروب الذى سيقدم" وينوه. عما يرتديه أولاده الصغار من ملابس نظيفة ،ويوالى إصدار نصائحه بأن لاتترك سعاد ،الولد الشقى يوسف.يزحف تحت المائدة.ويجذب المفرش، فتسقط أكواب المشروب فى حجر الضيوف كما حدث من قبل . . .

يومها أغرق الصالون والسجادة بالشاى الساخن .

تأكدت من أهمية (محمود) عند والدىومقدار تقديره له، وسألت نفسى (أم أنها مصالح بصفته شريكا بالمصنع.وزوج فتحية راجى) ؟

قلت لوالدى بغرض استهلاك الوقت :

- ماذا تعرف عن الأستاذ محمود ؟

قال على الفور:

- أووه - أووه أعرفه من زمان .وكان يأتى إلينا ويجلس معنا على مقهى زهرة اللوتس ، يحدثنا فى السياسة ،إنه شخص مكشوف عنه الحجاب، لا يقول شيئا حتى يحدث بحذافيره ، تصور ،حكى لنا عن العدوان الثلاثى ، كأنه يقرأ المستقبل ،قال ماحدث بالفعل خطوة خطوة - كما أنه رجل يقول للأعور أعور فى عينه..ولا يعجبه شغل الحكومة ولا الإنتهازيين الذين كانوا حول(الريس)، كما أنه تنبأ بالإنفصال - انفصال الوحدة بين مصر وسوريا.هو يحب الوحدة ، لكنه قال إن الوحدة سيغلبها غلاب إذا حدثت بغرض التجارة بين البلدين . عندما أراد تجار الموسكى التغلب على تجار سوق الحميدية.

- هل كان على خلاف مع عبدالناصر ...؟

- عبدالناصر ؟

وهز رأسه بشدة وتهيأوحرك يده فى الهواء رفضا .

-لا يمكن يا صلاح ..هو وعبدالناصر رأسين فى طاقية ..!

- لكنه كان معتقلا و...

انتظرت أن يواصل حديثه ،ولكنه امسك جبهته، لقد تذكر شيئا آخر لم يقله لزوجته ، ضحكت، فنظر إلى بشدة ، أشاح بيده وأخذ يتطلع الى الشارع من البلكونة وهو يقول :

- سيارة محمود صغيرة ، لازال أصدقاؤه من الناس الغلابة ، لكنه لا يجد وقتا للقائهم، هذه الزيارة بسبب اصابتك. ألا تعلم أنه شريك مسرحا ، ويقال أنه

صاحب المصنع الأساسى ، ولكن ..بقدر ما أحب اللقاء به هو نفسه يخاف علينا ،يقول (أنا أتحمل ما ذنبكم أنتم) ، مراقبات المباحث غلسة"، أشاعوا عنه إشاعات مغرضة ، أقربها أنه خائن يؤيد اليهود، أنا أعرف وجهة نظره، هو لا يكره اليهود ، لكنه يكره الصهيونية ، وشرح لنا الفرق بين اليهود والصهاينة: الفرق بين أهل الكتاب و الآخرين. أهل الطمع فى أراضينا.. واستعمارنا . . . !

مثلهم مثل من رفعوا الصليب شعارا.وكان غرضهم احتلال بلادنا.حتى غلبهم صلاح الدين"..

كنت فخورا بوالدى إذا سمعه يردد هذه الآراء ،حتى ولو كانت آراء قديمة مختزنه من لقاءات بعيدة.فإننا نعيش متقاربين.وقد نرى بعضنا كل يوم تقريبا.ولكن منذ زمن بعيد ، لم تتح لنا هذه الفرصة للمناقشة ، وبرغم أن والدى كان مفنجل عينه ويحملق فى الشارع.ومترقباً حضور محمود الرملى. فقد دق جرس الباب ،صاح من مكانه (افتحى الباب يا سعاد) وعندما أطل من البلكونة إلى الشارع .رأى سيارة محمود الفيات الصغيرة على عتبة الباب، والرجل طلع فوق ، جرى بسرعة ، رفع يد زوجته من على الترباس.وفتح الباب بنفسه ، فرآهما محمود يقفان فى وجهه.يسدان عليه طريق الدخول، وبين يديه كانت علبة الشيكولاتة ، واضطربت زوجة أبى وكادت أن ترفع ذيل ثوبها لتغطى به رأسها ..!

-أهلا وسهلا ..

- ازيك يا أسطى حسين ..

- احنا زارانا النبى ..

- يا رجل بلا مبالغة - ثم احتضنا فى شوق حقيقى ..

بهرتني بالفعل شخصية محمود.وتواضعه.وقدرته على إزالة الحواجز والإقتراب السريع إلى موطن المشاعر، كان يظهر كشاب صنعوا له مكياج رجل عجوز، واستمعت إليه جيداً...

"قال : البيت الذى نشأ فيه عبدالناصر ..هنا فى باكوس .

وقال : من سمة الزعامة ، الخلاف الشديد حولها ، التأييد الأعمى لها والعداء المتعصب ضدها .

قال: لن يعرف العالم قدر هذه الثورة ..إلا فى المستقبل ..!

قال : الرجل الوطنى هو من يحارب من قِبل الإستعماريين والمستغلين ، ولا يتحالف معهم، هذه بديهية يا صلاح ..!

وقال : يكفى للثورة لتدخل التاريخ - مشروع واحد . مما فعلته، تأميم القناة، السد العالى.والإصلاح الزراعى..، تمصير الاقتصاد والبنوك. تأميم شركات التأمين.مثلا ..و..

وقال: الريس تعجل بإصدار قرارات التأميم ، قد يقبلونه وطنيا على مضض ولكنهم لابد وأن يحاربوه حتى الموت. إذا ما كان اشتراكيا - افعل أى شئ ضد الغرب.إلا أن تتطلع إلى أموالهم.وتحاول غلق الأسواق فى وجوههم ،إنهم لا يؤمنون بأن الجنة فى السماء ،يتركون ذلك الإيمان للفقراء أمثالنا ،أما هم. فقد صنعوها على الأرض ،صعب إخراجهم منها وهدم المعبد على رؤوسهم.."!

زحف الصغير يوسف تحت المنضدة وجذب المفرش إلاأن الأسطى حسين سريعا ما ألقى بصدره على المفرش الذى بدأ يزحف وتناول الطفل ووضعه على ساقه ، وشل محاولات الطفل المستميتة فى أن يتحرك وتصل يده الصغيرة إلى طرف الصينية والأكواب ...

وأخذ أبى يصيح – يا سعاد خذى الولد حطيه فى حجرك ، وحضرى لقمة للعشاء ..!

هنا قام الأستاذ محمود .. مبديا اعتذاره وضيق الوقت وضع يده على كتفى وضغط عدة ضغطات – رسائل – وهو ينظر فى عينى – أنت كنت صغيرا جدا لما كان يحضرك الأسطى حسين إلى المقهى، كنت شقيا لا تهدأ مثل يوسف. أبوك كان يشل حركتك هكذا.ويضعك على حجره.كنت أقول له الولد الشقى سيكون ذكيا، اتركه يلعب بحريته.

* هل حدث ما توقعته لك ياصلاح ؟ "

'كان يشغلنى ساعتئذ،كيف يكون محمود ..اشتراكيا ولا يريد تأميم الشركات.وهو الذى قال أيضا : من لم يمسك باقتصاده كأنه يعطى مقوده لآخر – كنت أريد أن استفسر.كيف تعجل الريس فى التأميم ؟ أخذ والدى يتكلم ويرجوه أن يمكث بعض الوقت. حتى يمكن القيام بالواجب معه . واستمر يتحدث حتى خرج محمود من باب الشقة ،قفزت بقدم واحدة حتى وقفت خلف والدى.أنظر إلى محمود من فوق كتفه.وقال محمود وهو يهم بنزول السلم الضيق:

– صلاح ،لا يمكن عمل نظام رأسمالى بدون رأسماليين .يكون لديم روح المغامرة.والكشف.ورغبة الربح الوفير . وحرية انتقال رؤوس الأموال . وتسهيل انتقال الخامات. وتصدير السلع ،لاينجح النظام الرأسمالى بدون استغلال للفرص.والجهود والعمالة.وخلق مجالات حيوية كسوق دائم له .

قلت : هذا حق يا أستاذ ...ولكن " كنت أريد إجابة أخرى.."

ضحك وقال : تتمسوا بالخير .. ..صاح والدى : يسعد مساك يا أستاذ..

•••

الفصل الثامن

الأسباب الموضوعية

فيلا راجى، مكان له تاريخ. وقد تم بناء الفيلا على النسق الأوربى، تحيط بها حديقة متوسطة المساحة .عندما شاهدتها لأول مرة ، كانت مهملة وبعض أشجارها يابسة، وتخلو من الزهور -وبرغم وجود كل الإمكانيات لرعايتها ..

سور الحديقة نصفه الأسفل مبنى من الآجر، وأعلاه من الحديد المشكل بأشكال عديدة.مربعات. ومستطيلات.ودوائر.تنتهى مشرعة كالحراب، معظم هذه الحراب مكسوة بأغصان أوراق الأشجار القصيرة المتشابكة.وكتفا الباب الحديد الثقيل تعلوهما المصابيح.مخبأة فى فوانيس ملونة.مع لافتة الرخام التى نقش عليها اسم الفيلا- بالحروف العربية.وأخرى بالحروف اللاتينية ...

والفيلا تنم عن ثراء فى الماضى.لا يزال أثره باقياوخلف الباب .الممر الضيق ، ودرّج رخام ايطالى. أمام باب الفيلا الخشبى.الجوزى.يعلو من اليمين.ويعلو من اليسار.لارتفاع المترتقريبا، وأصص نبتت فيها النباتات التى تقاوم العطش.فتسللت من داخل أحواض سور السلم.كأنها صف من القنافذ الخضراء.راحت تزحف على الرخام الأبيض --

مقبض الباب الداخلى.وكذلك المطرقة، من النحاس الأصفر.تؤكد النشأة قبل الجرس الكهربائى .

الفيلا تربض فى حى جليم نوبولو الهادئ.وعلى يسارها . شريط الترام.التى لا تمر على باكوس، وإلى اليمين بمسافة.سور فيلا أخرى، لا تقل فخامة عن فيلا راجى بعدها يقع شارع الكورنيش.وشاطئ بحر " السراى الحزينة" الذى

يضفى على الشارع مزيدا من السكون الوقور ، برغم هدير البحر العميق ، فى هذا الشاطئ الغاضب الذى لم يترك من رماله مساحة كافية . ينال منها المصطافون شيئا ، كان كل شئ نظيفا وهامدا ، ولا أدرى عند رؤيتى لهذه الفيلا لأول مرة.لماذا انصرف خيالى إلى يوسف بيك وهبى فى ملابس أرستقراطية (والمنوكل) على عينه اليمنى. و هو الذى سيفتح الباب ويستقبلنا و ينظر لنا شذرا عندما نمشى على البسط ،

قال أحمد موسى: هذه السجادة يقصون وبرها كل اسبوع ، نعم، هذا سجاد شيرازى أصلى أسأله كيف عرفت ذلك : يقول :

-رأيت كل هذا فى الأحلام ..

-أنا أيضا رأيت الفيلا من الداخل فى معظم الأفلام الرومانسية الانجليزية أبيض وأسود، وعندما جاءت الألوان انتهت الرومانسية ، نفس السلم الذى يصعد من الردهة إلى الطابق العلوى، مفروش بالسجاد ومزين بالنحاس الأصفر ، والصالون الفرنسى -يواجه الداخل على اليمين.بمقاعده الذهبية الرقيقة التى تحوى الجالس فى دقة ورفق ..ورسومات القماش القطيفية، ملائكة من الأطفال المجنحين والنساء الراقدات فى استرخاء فى غلالاتهن الرقيقة وفوق المدفأة . وعلى الجدران.الإطارات تضم لوحات ، وصور قديمة . .

وفى ركن آخر مقاعد انجليزية مكسوة بالقطيفة القرمزية ،أمام المدفأة - شتاء الإسكندرية دافئ لإلتصاقها بالبحر - والمدفأة لها برج . يمتد إلى السطح.لتصريف الدخان ،(شئ ، مُكلف)

قال عماد: أراهن أنهم لم يستخدموها قط ، إنها تقليد أعمى لأجواء أوربا الصقيعية . .

طلبت من عماد أن يحتفظ برأيه حتى لا يحتد (خضر) الفلاح الذى بهرته حجرة السفرة.والمائدة الضخمة.والمقاعد.والنيش.المزدحم بالأوانى الصينى والفضيات.وكذلك الطعام الذى قدمه لنا السفرجى فى ثوبه الأبيض.وحزامة الأحمر ، لقد منعنا خضر بصعوبة.حتى لا يقوم ويعاونه فى حمل الطعام ووضعه أمامنا على المائدة . همسنا فى أذنه : أنت ضيف ! ..عيب !

أكد لنا أحمد موسى.أنه قد رأى فى أحلامه أيضا هذه الوليمة ، وأنه قد سبق له وأن تناول طعاما على مائدة من موائد الطبقة العليا.ولا يزال يذكر بعضا من - الإتيكيت - لذلك فقد تعلق فى ذراع (خضر) حتىلا يعاون الخادم.ويتركه يقوم بعمله- فهذا من باب الأصول.

•••

" الفيلا كانت مسكنا لخواجة أرمللى كان يعمل فى تجارة القطن وتصديره أثناء الحرب العالمية الثانية اشتراها (راجى بيك الصاوى) الذى عمل قنصلا فى دول أوربا أثناء حكم (حزب الشعب) الذى شكله (صدقى) من ضباط البوليس.وعمد القرى.فى الثلاثينات . ليهزم به - حزب الوفد ...

والذى عاون راجى فى الحصول على (الفيلا) (رياض عبد الكريم) شاب طموح عصامى.كان يعمل لدى الخواجة الأرمللى • فكافأة راجى بيك - وقد رأى أنه قد كون ثروة من السمسرة لا بأس بها، بأن زوجه ابنته (عنايات هانم) عندما آثر ابنه الوحيد (فؤاد) .. السفر والعمل فى الخارج.وعدم العودة إلى مصر ..

مرض راجى بيك عقب تنحية (صدقى) وإبعاد أعوانه عن دولاب الحكم ..وبدء مسلسل وزارات الأقليات .

كان مطمئنا بأنه وجد الشاب المناسب الذى يستطيع تحمل دلع عنايات وشطحاتها . .

وعنايات اندمجت فى الحياة الفكرية والأدبية التى كان يموج بها الثغر، صالونات أدبية وعدد كبير من الإصدارات للجاليات، كتب ومجلات وصحف. وانصرفت إلى إصدار مجلة نسائية قامت بتأسيسها وعينت المحررين والمراسلين لها. واستأجرت مطبعة ، وأصدرت ثمانية أعداد ، ثم تعثرت مجلتها بسبب انتقال الحركة الأدبية ودور النشر من الإسكندرية إلى القاهرة دفعة واحدة وفى وقت قصير ..!

كانت (عنايات هانم) قد أنجبت ابنتها (فتحية) عندما ضربت البورصة ثروة زوجها. و لم تكن عائلته من الثراء لتعويض خسارته ، ولم تغامر هى بمدخراتها ، فتبدلت أحواله. وتم الطلاق بينهما فى هدوء .. !

•••

على جدران الفيلا - فوق المدفأة - صورة الجد - راجى بيك الصاوى - فى ملابس التشريفة والطربوش - ولوحة بها أبيات من الشعر. كتبت بماء الذهب. قالها (حافظ بيك إبراهيم) فى مدح راجى بيك الصاوى. عند تعيينه فى السلك الدبلوماسى ، وضعت بجانب صورته للذكرى .

•••

نشأت فتحية رياض عبد الكريم. التى فضلت لها أمها لقب عائلتها. فعرفت بفتحية راجى. و التى تزوجت من محمود الرملى، فى هذه الفيلا ، تلقت تعليمها الأولى فى مدارس الفرنسيسكان ، لم تحصل على الشهادة المتوسطة. لإنصرافها إلى هواية الرسم والتمثيل ، وربما تأثرت بملكات والدتها عنايات هانم ، كما أن تكرار سفرها إلى أوربا - فوت عليها

الفرصـة.لاستكمال تعليمها ، بالإضافة إلى انشـغال والدتهـا بالصالونـات الأدبية ، وقد أسرفت الشـغالات فى تدليلها ، ولـم يترك ذلك التدليل فى نفسها – إلا حب الفقراء – الذين كـانوا دائما فى خدمتها ، وبقيام الثورة والتركيز على دور الشعب وطبقاته الفقيرة ، انزاح من داخلها الصراع الذى كان قد شرع فى تمزيقها.وقد شعرت بأنها تعيش بداخل طبقة عليا بظروف طبقة أدنى.وكان لقاؤها بزوجها (محمود) الذى يفخر بأصحابـه الكـادحين، قد أنهى لها المسألة ، فهى معهم فى المقدمة ، بينما هى مع الفئـة العليـا فـى القاع ، وكان هذا يؤلمها ولا تجد مناصا من دفعه إلى أغوارهـا ، جعلهـا ذلك تتوازن.و تعلو على تضحياتها ، وفتحية ترى أنهـا قـد تنـازلت بمـا فيـه الكفاية ...، وهذا فى حد ذاته فعل ثورى.كما يفلسفه البعض ،

وجـاء تكـرار ، ابتعـاد محمـود الإجبـارى ، ليضعهـا ضمــن المنــاضلات، فأكتسبت تقدير المحافظين وإعجاب الإشتراكيين .

فى فترات الفراغ .شغلت نفسها باستثمار أموالها.هنا .وهناك ، متطلعة إلـى إعادة أوضاع أسرتها. أو عدم النزول أكثر ،والبقاء فى المنطقة الوسطى إن أمكن ...!

وكانت من الذكاء – أن تحلم بأن تقلبات أمور السياسة قد ترفع زوجهـا إلى مصاف الوزراء، وتتناسى أنه ربما. تقذف به إلى غياهب السجون .

ومحمود ..كان يتمنى أن يكون له طفل منها يملأ حياتهما ، إلا أن هذا لم يشغلها كثيرا ، فكان يرى هو الآخر أن هذا أفضل فى ظل حياته التى لم يكتب لها أن تستقر .... ومع ذلك جاء خالد .. وتحققت أمنية محمود الرملى ..

كانت فتحية راجى على جانب كبير من الجمال الشرقى ،خلطة قوقازية. عربية. لها تلك الألوان التى تقع بين الخمرى والأبيض المشرب بالحمرة للبشرة، والأصفر الذى يتخلله الكستنائى فى الشعر الفارسى ، مع توسط فى الطول ،والتفاف فى القوام ، عريضة الأرداف، ممتلئة الصدر، تجد صعوبة فى الإحتفاظ برشاقتها ، ربما عزت ذلك لعدم حبها للرياضة وعشقها للطعام - فبقيت - تلك المرأة التى يبدو عليها العزّ ، وعوضت ذلك باحتفاظها بشئ من شقاوة الشباب، وكان ذلك الجمال الشرقى الذى كان مثار إعجاب سرحان عبدالعال ، إذ رأى فيها الوجه الآخر منْ شطفة السياجى ؟ ..

رحبت بنا مدام فتحية ،جعلتنا نشاهد الألبومات الثلاثة لصور العائلة، رأيناها على كافة الأشكال ، منذ كانت صبية حتى تحولت إلى أمرأة فى ملابس الزفاف ، ولم نتمكن من رؤية الألبوم الرابع الذى دسته تحت وركها إذ لمحت أن بعض صوره عارية ..

كان من رأى عماد : أن الأستاذ محمود - برغم أنه من أصول شعبية ، كما يتفاخر بذلك ،إلا أنه فى مظهره أرستقراطيا أكثر من زوجته فتحية راجى .. !

ووافقناه على ذلك .. !

محمود وفتحية يدخنان ،لكن فتحية تدخن بشراهة ، تلهف نفس الدخان وتنفثه من أنفها وفمها بكثافة، كأنها (حشاش) دعى إلى - حفل ، تاجر حشيش- والتدخين على المشاع .

بينما محمود الرملى إذا يتحدث فلا تشعر متى تناول سيجارته، سترى السيجارة بين أنامله، تبقى فترة فى يده يعبث بها، ويشير بها، ويلفها بين

أصابعه قبل إشعالها ، ثم يدق طرفها على سطح الولاعة ، يضعها بين شفتيه وقد يفتح غطاء الولاعة ، ثم يتحدث، فيغلق غطاء الولاعة وينزعها من بين شفتيه دون إشعالها. وتبقى السيجارة بين أناملة (عمر .. ثلاث سجائر) تتنقل من أصابع يده اليمنى . إلى يده اليسرى. ومن شفتيه. إلى أصابعه مرة أخرى، وعندما يحين الأجل ليشعلها. سيشعلها برفق ، ويجذب منها الأنفاس بحنو ، ثم يتخلص من عقبها قبل بداية الثلث الأخير. وفى رفق يطفئها. ويتركها كاملة بدون هرس (هل سيعود إليها ؟).

•••

محمود الرملى له جسم ممشوق ، وكأنه طالب بالكلية الحربية ، أيام كان الضباط للزينة. وضرب تعظيم سلام للملك ، وهو يحافظ على لياقته بالألعاب الرياضية و تقاطيع وجهه متناسقة ، وجبهته عريضة مع عينين لوزيتين ودائما، حليق الذقن والشارب . شفتاه الرمسيسيتان تجعلان تعبيرات وجهه معبرة للغاية، إذا ضحك أشرق ، وإذا كشر ركبت الشفة العليا على الشفة السفلى فانقلبت سحنته إلى "قاطع طريق" !

وكانت أصابع يده طويلة و أظافره نظيفة، لها ذلك اللون الوردى. وكأنه يعتنى بها عناية خاصة ، يشير بهما كالإيطاليين ليجسم كلامه المغلف بالصوت الرخيم ..

وإذا جلس معنا أبكم، يستطيع أن يفهم معظم حديث محمود. واتساع ثقافته أضفى الأهمية على أى موضوع يتناوله .مهما كان شأنه. وكان ذلك يجعلنا ننتبه له ، ونعجب بآرائه، ونوافقه بنسبة تسعين بالمائة. من أجل حماسته ومن يستمعون إليه ، يتسابقون فى موافقته ، باستمتاع !

وكان لديه المقدرة على- أن يوهمنا ، بأن ما يقولـه.هومـا نفكـر فيـه بـالفعل. وأنه يتفق معنا تماما ، فيما قلناه !

•••

- تعال أنت وأصحابك ..نتعارف..سأنتظركم مساء الخميس القادم ونرتب لقـاء كل خميـس ، لا تخشـوا مـن وجـود سـرحان عبدالعـال أو مـدام فتحيـة ، هـو صديقـى وهـى زوجتـى ، ونريـد أن نتغلـب عليهمـا ..أريدكـم جميعـا معـى لنحدد الطريق الصحيح ،حتى يتبعوننا بدون إرغام . . .

- تعال أنت وباقى الزملاء انتظروا على محطة ترام جليـم فـى تمـام السـاعة السادسة مساءاً سأحضر وأصحبكم إلىالبيت (الفيلا..؟) ياه يا صـلاح (أنـت واخد قلم جامد فـى الفيلا) .. قشـرة.تحتهـا نـاس عسـل، أبسـط كثيرا ممـا تتصور !!

اجتمعنا يوم الأربعـاء علـى مقهـى زهـرة اللوتـس ، طرحـت علـى الزمـلاء الدعوة ..وقلت (أنا ليس لى دعوة ..القرار لكم) كـان (علـى موسـى) قـد مر عليهم جميعا بالدراجة وجمعهم بعد ظهر نفس اليوم ، واندهش بعضهـم لأننى لم أفاتحهم فى هذا أثناء تواجدنا فى المصنع ..

قال السيد البرس : فى بيته فى جليم؟..وسرحان بيه سـيكون موجـوداً هنـاك . يانهار أغبر؟

وقال عماد : وفيها إيه يا أخى ..إنت فاكر سرحان عبدالعـال ..أنـزل مـن السـماء .. أنـه لم يـزل يسـكن فـى بـاكوس. وقـدام البيـت.. قد تجد عياله يلعبون استغماية..!

ثم بدأت استفسارات (خضر الفلاح) !

وقال علي موسى: أنا ليس لي في الكلام الكبير هل سأحضر معكم؟
حسمت الموضوع : كلكم مدعوون عند الأستاذ محمود على العشاء ،هو الذى دعاكم وأنا مجرد رسول ..!
صاح على موسى: ، لحمة وفراخ .. ياربى . !
وأسقط ذراعيه بجانبه ومال برأسه على كتفه.وكأنه قد أغمى عليه !

•••

فى محاولة لكسر حالة الدهشة.والعثور على الأسباب، وتشكك البعض فى هذه الدعوة وموعدها، ولماذا نحن بالذات ؟ وأين كان محمود بيه هذا ؟ وهل ننسى أن سرحان بيه أطاح بنا وعيّن سلامة البحطيطى فى المصنع؟ ومعروف أنه أسوأ من "المهندس كمال"، قال عبد المنعم:
يا جماعة لماذا نسبق الأحداث ، الماء يكذب الغطاس ، ياخبر بفلوس ..
وقال عماد: أنا رأيت مدام محمود هذا الاسبوع.رأيتها مرتين.تأتى إلى المصنع، وكانت على (سنجة عشرة) تايير سماوى محبوك على جسمها وزينتها كاملة.كأنها ذاهبةٌ إلى حفل، صدقونى لقد زارتنى فى المنام..!
السيد البرس نظر إليه بغضب واعترض على - نهش أعراض الناس - وتدخل خضر ليهدئ من ثائرة البرس ، موضحا أن (حبيبة) عماد (تحل من على المشنقة) لكزه عماد فى ذراعه وقال له : اسكت يا بتاع عايدة.
وأخرجنا البرس من حالة الهزل قائلا : محمود هذا.رجل شيوعى وليس وراءه سوى وجع الدماغ - إذا ذهبنا إلى بيته.يشبهنا معه ، ويمكن يشنقونا معه ذات يوم !
قال عبدالمنعم : كان زمان يابرس، الرئيس بقى سمن على عسل مع السوفييت ولا تنسوا أن هذه الدعوة ، هى من أصحاب المصنع مجتمعين ،

ربما نستطيع - بالعلاقات الطيبة رفع يد (الخولى) سلامة البحطيطى -الذى يتصرف فى المصنع وكأنه عزبة أهله .

قال على موسى: طبعا.عشاء ناس أكابر ..شوك.وسكاكين.ماذا ستفعلون. أمامهم يابقر ، هل نأكل أم نمثل أننا نأكل .؟

وكان هذا السؤال جديرا بالدراسة ..ونحن نتناول سندوتشات الفول والطعمية.وعندما طلب عبدالمنعم كوب سحلب ،نهره خضر ، بأن السحلب قد يصد نفسه عندما يتناول عشاوه غدا بإذن الله فى الفيلا ...!

' ونحن نعود إلى منازلنا ، قال أحمد موسى : رأيت فى فيلم عن الحرب ، نارا تشتعل فوق الماء ...

قلت: ما المناسبة يا أبو حميد ؟

- أرى أن الأستاذ محمود هو تلك النار. التى تشتعل فوق الماء .

- لا أفهم مقصدك يا أبو حميد ؟

-النار مؤقتة.ولن تستطيع حرق البحر ..

-فهمنى مقصدك وحياة والدك ؟

منذ أن وعيت.وأنا أنظر إلى أمثال محمود الرملى على أنهم (معابد) مغلقة على اسرارها، وكهنوتها، لهم عندى رهبة ولا رهبة الأساطير ، ما الذى يريده منا محمود ، هل يتقوى بنا أم نتقوى به ؟

-لم أفهم مقصدك - يا صاحبى ؟

-..هل محمود الرملى يبحث عن دور ؟

-وهل تعتقد يا أبو حميد أننا.. هذا الدور ؟

نحن نصلح للوقوف على الأرصفة والتصفيق ، ورغم قلتنا ، فنحن نزيد عن العدد خمسة ،الذى يعتبره الأمن في حالة الإجتماع - تجمهر - يجرمه القانون !

- لخص القضية يا أبو حميد وابتعد عن هذه الألغاز ؟

•••

يونس حسان المدير العام بشركة الحلويات المصرية، وعبدالحميد البهتيمى ، الناظر، وسلامة البحطيطى رئيس العمال بمصنع تعبئة المواد الغذائية صاروا أعضاء فى أمانة قسم الرمل بالإتحاد الإشتراكى، وتمكن يونس بيه حسان من النجاح بالتزكية فى منصب أمين القسم ، وعليه فقد قفز إلى أمانة المحافظة ، وسرحان بيه عبدالعال والفنط فرهود الصائت ، تم تصعيدهما إلى أمانة المحافظة بالتزكية واختير سرحان عبدالعال مقررا للجنة الرأسمالية الوطنية، وفرهود الصائت مقررا للعمال والفلاحين -

قال أحمد موسى: ، لماذا لانسارع بالإنضمام إلى منظمة الشباب ؟ أم أننا نكتفى بالتصفيق لمن يبحثون عن دور ، وأغلقت دونهم الدوائر ..؟

كان أحمد موسى يتحدث بانفعال ..

" ضايقنى تحليل ..أحمد موسى ..بت ليلة الذهاب إلى فيلا راجى فى نكد، تجمعنا عند محطة ترام جليم ، ارتدينا أفضل ما لدينا ، لمعنا الأحذية وبعضنا دعك أسنانه بتراب الفرن. ومع ذلك، كان كل منا يرى أن الأخرين فى صورة غير ملائمة ..وشكلهم يكسف ...!

•••

أعلم الكثير عن جغرافيا موائد الطعام والتى تعكس تاريخ الشعوب وعلاقاتهم الإجتماعية ، كما أن قواعد إلتهام الطعام المستمدة من تراث

التركيبات الطبقية وموروثاتها ، كانت قواعدها محددة فى كتب ،إذ أن تقديم أصناف الطعام. صار يخضع لحالة الطقس. وحركة الرياح. والموقع ومدى قربه من خط الإستواء أو بعده . . !

أين أنتم يا أهل باكوس من خط جرينتش ؟

ففى البلاد الشمالية. يفضل تقديم السوائل الساخنة والمشروبات الكحولية ، ولذلك طقوس وعادات متوارثة ، ثم تتوالى الأطباق ، طبق وراء طبق، وذلك طبقا لقواعد البروتوكول المتوارث منذ مئات السنين، ماهى الأدوات والأوانى والملاعق والشوك والسكاكين المستخدمة. وكيف ترص على المائدة وماذا سيكون على يمينك وماذا سيكون على يسارك ،

وكيف تتناول الملاحة، وكيف تطلبها إذاكانت بعيدة عنك بمسافة ليناولها لك جارك فلاتتام على المائدة لتحضرها بنفسك ،

كما أن كميات الطعام التى ستوضع أمام كل شخص يكون لها حد أدنى وحد أقصى ، حتى لا تجور على الأصناف التى تأتى بعدها أو قبلها ،

علم بحره واسع ، ففى الأماكن التى يكون الأرز فيها بديلا عن الخبز، لها تقاليدها فى تناول طعامهم ، وفى البلاد التى يفضل فيها أكل الخبز. عن المكرونة، لها عادات مختلفة . .

ونحن نأكل الأرز والخبز والمكرونة مع باقى الأطعمة الأخرى !

فى المجتمعات الغربية ، التى تدعو لحرية الفرد ، لكل شخص طبقه وملعقته وشوكته وسكينته ، فى تطور سريع لحق بالفرد الأوربى وشكل خصوصيات محددة له ، ظهر السندويتش - وهو يمثل أقصى فردية للشخص، تستطيع أن تأكله وأنت تجرى أو وأنت تجلس أو تنام. دون التقيد - بجماعة المطعم، ولا تشغل بالك بالمنزل أو العائلة !

كما أن السندوتش ، ضرب الطريقة الفرنسية فى تناول طعامهم على مدى ساعة أو أكثر ، فى مقتل .ومكن أصحاب المال.من كسب مزيد من الوقت الذى ينفقه العمال (جلوسا) مع بعضهم بحجة تناول طعامهم ..

وهذا التطور السندوتشى.كأشياء كثيرة. انحدرت من خبرات الغرب التكنولوجية يمنعونها من الوصول إلينا. حتى لا نستفيد بها فى طفرة اقتصادية تنافسهم فى سوق آسيا وأفريقيا -نحمد الله أننا لم نستقبلها كاملة!

فبقيت تقاليدنا العربية كما هى (للجميع طبق وحيد) يصغر حتى يتسع لمغرفتين ، ويتسع حتى يصير(أنجر)فتة تغطيه هبر اللحم ، والجميع الأسرة والأصدقاء.والزملاء - كل حسب عمله.فى الأنجر وبيده العارية.ولكل حسب سرعته.فى القبض على قطع اللحم بالأصابع المدربة.ذات الحساسية الخاصة .

هل نعيد الحديث ،بأن هذا الطبق - الذى يتجمع حوله الآكلون - يعبر عن فضيلة - من اختراع الشرق.أبو الفضائل،افتقدها الغرب ،

من هنا لا تزال الجماعة فى عالمنا، على جانب من الأهمية لدى الفرد والفرد يشعر بأنه جزء من كل ،ذلك الكل.الذى يجمعه الطبق الواحد ، أقصى ما يمكن أن يقع على الشخص الشاذمن عقاب ،أن يمنع من تناول طعامه من نفس طبق الجماعة ، يحرم من أن يقطع اللقمة وينتظر بها على حافة الطبق ،حتى تخرج الأيدى الأخرى ليغمسها فيه ،يحرم من ونس العائلة

وقد صار الطعام هو الوسيلة الفعالة لإبداء الإعزاز. والإحترام للآخرين

(تعال كلْ مَعنا)

يعنى لقد صرت واحدا منا.مثل أبى أو أخى .. !

الصديق الذى يأكل على (طبليتك) يرتفع إلى مرتبة الأخوة .

وعندما تغلب علينا الغرب ، شعرنا بقوته وهيمنته علينا ، الضعفاء المهزومون يقلدون المنتصر ، ذلك التقليد النفسى ، لغة وملبسا وعادات. من لم يشعر بالهزيمة يبقى محافظا على شخصيته .

الطبقة الدنيا.كانت دائما بعيدة عن الشعور بالضعف، ربما لأنها نشأت ضعيفة فلم يستهدفها الإستغلال أكثر مما هى فيه ...

فكانت مكافأتها على مدى عصور العابرين، التخلص من الشعور بالهوان ، فحافظت على التقاليد العربية ، ومنها أفضل طريقة لتناول الطعام بين الأهل ، عندما تقضم العروس لقمة ويقضم العريس لقمة من نفس المكان ، إنه الزواج والتوحد ، إنه القسم بالإخلاص، (العيش والملح) ..

ونحن قد دعينا إلى فئة عليا – تقلد الفائزين – كان من الطبيعى. لمن لم يتح له تعلم الإتيكيت وقواعد الطعام الغربى.أن يشعر بالحيرة أمام المائدة التى نسقت على نسق لم نألفه ، أطباق فوق أطباق.ولكل فرد أدواته، ثم يقوم الخادم الذى يتقيد بجدول محدد – وتوقيت معين ، بوضع أطباق السلطات المتنوعة ، يأتى بعيش(السرايا) بعضنا يأكله على أنه (جاتوه) ثم يجئ بأطباق الشوربة، ويقوم بإدخال مغرفته من بين رؤوسنا ويضع فى كل طبق ملعقة من سمك التونة.وقطعا من المخ المقلى.وقلوبا وكبدا وقوانص ، لم يقل لنا أحد إنها هى الدفعة الأولى من الطعام.وأن الطبق الرئيس، قادم فى الطريق ، وأن الإشتباك سيتم على شكل مناوشات لفتح الشهية !

محمود .. وسرحان وفتحية و عنايات هانم بدأوا فى التهام طعامهم ، استخدموا الشوكة والسكين .

الأمر لا يستأهل كل هذه الأدوات ، وكمية الطعام التى آمامنا يستطيع خضر أن يأكلها وحده ويقوم جوعانا.قلت فى بالى: إنه عشاء، وهم ناس أكابر، لا يملأون بطونهم ..لعلهم أكلوا فراخا ظهرا ،ويشعرون بالشبع .

فتت علىّ وخضر والسيد البرس فى الشوربة.وأكلوا أطباق السلطات وما قدم لهم من عينات ، وشربوا عددامن أكواب الماء ،

وتجشأ خضر وهو يقول : الحمد لله سفرة دائمة -

لم يرد عليه أحد - فقد كان االطبق الرئيسى قد أتى به الخادم، وبدأ فى رفع أطباق.ووضع غيرها ،وأخذ يغرف الأرز المخلوط بأشياء لم نعتدها ، ويسأل كل منا بعد أن يضع الكمية الأولى ، هل يزيد ؟

ثم وضع أمام كل منا براما من اليخنى: به قطع اللحم . عماد وأحمد موسى وعبدالمنعم كانوا يأكلون ببطء ،

كان فى بطونهم اتساعا للطبق الرئيسى .

خضر .وعلى موسى.كانوا قد كبسوها ، فظهر الغضب مع الدهشة على وجوههم - ولكن الجميع أخذوا يأكلون ما قدم.وبعضنا يتباطأ حتى لا يفاجأ من جديد ، وبالفعل جاء طبق الدواجن المخلية ، فأبتسم بعضنا لنباهته ، وصار "من أعرف أمانيهم الحقيقية" يعبثون باللحوم الحمراء.والبيضاء أمامهم. ولا يقدرون على ابتلاعها ". ياحسرة القلب ". ثم أتت الشطائر والفاكهة، تفاح وموز وكمثرى.وعرفنا لماذا توجد فى بيوت الأكابر الفاكهة على المناضد دون أن يلمسها أحد ،

ناس عيونهم شبعانة: وأين سيضعون الطعام ، ومهما كان الأمر، هى (معدة) لها اتساع محدود ،سامحك الله يا أبا حنفى ، كان يجب - وأنت فى

الأصل باكوسى، أن ترسينا على هذه التقاليد ، ما كانت أطباق العيش قد اختفت.وعاد الخادم باللحوم والفطائر المحشوة.إلى المطبخ .

•••

فى الصالون – جلسنا – بعضنا، كان يريد أن يتمدد راقدا ، دارت علينا فناجين القهوة والشاى ، من يريد مشروبا مثلجا ؟ كل شئ موجود ...

بعد العشاء بنصف ساعة ، جاء ضيوف الأستاذ محمود –السيد حسنى أبو رماد– والسيد فاروق السنديونى – كان بعضنا يسلك أسنانه وسناناً – عندما بدأ الحديث ساخنا عن أحوال البلد.وضرورة تصفية جيوب الإقطاع. .كنت أتخيل (الإقطاعيون) تمتد أمامهم الموائد التى غادرناها – وتزدحم بما يفوقها – وأقول فى نفسى – كيف يشعر بالفقراء من لم يعانون آلام الجوع .؟

وفى نهاية السهرة ، سأل أحمد موسى ببراعته التى أخشاها :

– هل السادة الإقطاعيون يأكلون يوميا مثلما أكلنا هذا المساء ؟

قالوا : هووه...هووه...هذه مائدة متواضعة جدا ، أنت لا يمكنك تصور ما يأكلون. ؟!

خبط أحمد موسى على ركبتيه ووقف ..ثم قال .

– اسمحوا لى أن أقول، إننا ننفخ فى قربة مقطوعة !

ضحكوا.ولكن أحمد موسى لم يضحك ..كما أن باقى (الشلة) لم تضحك

قال عماد : الإنسان ما يأكله !

ولم يعقب أحد ، إلا أن محمود الرملى .كان يرمقه مع ابتسامة ترف، ثم تنطفئ !!

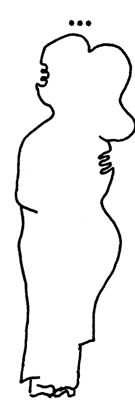
•••

عندما كنا نعود إلى باكوس ..أخذ السيد البرس، يسب الجميع.وعلى رأسهم محمود الرملى.الأفاق.وعندما حاولت وقفه ، سخط فى وجهى حانقا وغادرنا وهوما يزال يسب ويلعن أهالينا ، أذهلتنا المفاجأة.

عبدالمنعم قال : اتركوه ..مسكين لديه أسبابه الموضوعية !

أمه فى عزبة القرود مريضة ..مرض الموت ..وطبيب المستوصف يوصى بأنه من الضرورى أن تأكل .. دواجنا.ولحوما.يوميا.حتى تشفى من السل الرئوى ...!

•••



الفصل التاسع

باكوس وناس باكوس

الحياة فى باكوس لا تهمد ، ليلا أو نهارا ،تتحصر غالبا فى الحس العاطفى عالى الوقع ، سموا أو انحدارا ،عاطفة تجذبك من أجل تحسين المعيشة – دون عمل فعلى – للوصول بها إلى حالة الكفاية ·

ابن باكوس·أطلق شعار. الكفاية والعدل ، حلم.وجد صدى فى نفوسنا.حتى صار(غاية المراد من رب العباد) ،

تقابل العاطفة الساذجة، عاطفة من أجل إثبات الوجود · للمسحوقين أمانىموزعة على جسر الصدقات لهوا ، دون تخطيطات مسبقة ، (كله على الله) واتساع دائرة المعارف – بالبنى آدمين ضرورية – لإزجاء وقت الشغل· والفراغ القصير العميق – لذلك لعبت المقاهى فى باكوس· واللقاءات أمام الدكاكين.وخلف عربات اليد على الأرصفة ،دورها الفعال. ربما بدرجة تفوق التفاعل.وكان ذلك فى المصانع التى تتقاطر على ترعة المحمودية ، فيأتون بالمناقشات متهرئة ليلقون بها على المقاهى.

كما أن اختراق الزحام ، والتواجد بداخل السوق فى الشارع الرئيسى والحوارى الجانبية ،شارع المحطة ، وشارع أبى قير. حتى مزلقان سينما ليلى· وقيس ، ثم التفافا من أمام شركة توزيع البترول· سيرا على فلنكات السكة الحديد ،ثم العودة إلى الزحام الشديد بداخل قبو حلقة السمك· ومزلقان الترام ، ومقهى فرهود·ويونس·وزهرة اللوتس·كان ذلك جزءا لا يتجزأ من ناس باكوس· وتفاعلهم الساخن والبارد .

من منّا لم يستمتع بهذا الضجيج·وتلك الحركة الحيوية.التى يزداد رتمها فى الأعياد والمواسم ، مرة كل يوم ، أو مرة كل أسبوع .لابد وأن تزور

السوق.ليمكنك أن تتطهر من وحدتك الأليمة. فهناك حركة الحياة.صورة تنأى بك عن شواهد القبور.وصمتها العميق.فى مقابر أبى النور غربا.أومقابر سيدى بشر شرقا . .

فى المقابل كان الإحساس بالذات ، يتضخم .والأمور التافهة، ينفخ فيها البعض عن عمد.لتصبح كالبلونات ، تلفت الأنظار للسعى إلى التفرد والإرتفاع ، إلا أنهم فى الواقع. كانوا يتكتلون.ويتحركون بردود الأفعال . .

•••

لعل نقل ما يحدث فى الورش.والمصانع.والمتاجر.والبيوت.وإعادة عرضه على طاولات المقاهى.وفى اجتماعات الأصدقاء الدورية، شيئا مهما فى حياة الناس . مما جعل التفاعل وانتشار المعرفة ذات الحدود – تلعب الدور الثانى بعد قواشيط الطاولات ، محبوسة.أو يهودية.على المشروبات ، والدمينو وورق الكوتشينة والمراهنات الخفية والعلنية.تبدأ من تحميل الطلبات ،التى قد تتجاوز أجر اليوم بالكامل، اعترافا بالهزيمة فى اللعب.
(فماذا يدفع فى الهزيمة الفعلية ؟).

إلا أن بعض الأمور كانت تصطبغ بالجبر. والإثارة.فى مقتل(أبوزيد الصعيدى) . تاجر الفاكهة ،مشطورا بالسواطير، والأسباب لها ألف وجه – لكن رجلا آخر مات على أثر هزيمة نادى الإتحاد.ولم يعبأ أحد بالألمبى وكان مبتسماً منذ هزيمة نادى الترام و السواحل و النادى اليونانى ، الذى أدخل الهدف فى نادى الإتحادولم يقصد طعنة قلب المشجع!

الضيق واستعمال الألفاظ النابية.والأيدى فى إصدار الإشارات السوقية ،نوع من التسلية – وتراث شرق أوسطى . .

فيما بعد، أحل ابن باكوس الخطابات السياسية الطويلة مكان ما تشات الكرة وحفلات فرقة حسونة وحمامة العطار...

وبقى خميس أم كلثوم ورواج تجارة الحشيش على مزلقان سينما ليلى ومزلقان شارع العقصة ليتحدى مكتب المكافحة ..

وكانت رصاصات المنشية ، وكسر احتكار السلاح ، ورفض الأحلاف وخطاب الأزهر القتالى ،وتأميم القناة ومتابعة ما تبقى من بناء السد العالى ، تتساوى فى القبول مع أغانى عبدالحليم حافظ، وتتمازج الأمور الشخصية مع أحوال الوطن علوا أو انخفاضا فى حركة (مايسترو) واحد - تمكن - أن يعزف لحناً غير موزع على الأوركسترا !

إذ لا يمكن - فى هذا الزمن المشحون بالرجولة - أن نفصل بين عاطفة وعاطفة ،فقد تم نسج الأثواب من قماش واحد ، ولم يسأل أحد من الذى سيفصل منه ثوبا خاصاً به.!

وقد ينشب الشجار ، والشجار مثله ..مثل طبق المخلل الحريف على الطبلية لإتساع الرغبة فى الصنف الوحيد المكرر - وربما الإختلاف فى تفسير قراءة عنوان صحيفة أو بدايات نشرة الأخبار . يؤخذ منه سببا للمشاجرة العنيفة ، عندما كان الجهل يخفى جزءاً لا يسبب إلا أن المعنى ينعكس !

لم يكن فى باكوس إقطاعيون ولا حارة يهود - فقدوا ثرواتهم فنقموا للأبد..!

كان ثمة بعض المتعاطفين مع الإخوان المسلمين ، يصيبهم الهلع من أحكام الإعدام ..

الناس تنسى الأسباب ، ولا يتبقى فى الأذهان إلا صورة الموت وعشماوى بشاربه الأبوزيدى الذى لا يقف عليه الصقر رعباً ..

لكن بالمقارنات لدى المثقفين ، تبقى الثورة ناصعة البياض ويختلط الجديد مع القديم فى سوقنا ، ويصبح التآمر على اغتيال الزعماء ، صراعا بين ابو زيد الهلالى وخليفة الزناتى ، وعنترنا . يأتى بالنوق العصافير من تشيكوسلوفاكيا ،وينفجر دالاس فيملأ دخانه الفراغ.الموهوم فى الشرق الأوسط - ولا يستطيع أن يختفى فى زى امرأة عراقية ليسحله الشعب فى بغداد ، يحشدون ضده المغول فيصبح (الريس) هو بيبرس البند قدارى الذى يمد يده إلى الشام ، فيسلم عليه صلاح الدين ..!

أهل باكوس ، قد لا يفقهون من شغل الوحدة ، وشغل القومية العربية ، سوى الشغل هنا . أو هناك.وفتح مجالات عمل.والإرتزاق.والزواج من بنت شامية فى حلاوة (صباح) ودلالها.و يغمض على أذهانهم ، (التكامل الإقتصادى) ، إلا إذا كان ، الذهاب إلى الإقليم الشمالى بالبطاقة.فيذهب البعض إلى دمشق. فيشترى منهم تجار سوق الحميدية وسوق المنشية بالإسكندرية . ملابسهم.وساعات اليد.وأحذيتهم الدمياطى ، لا يضايقهم إلا أنهم لم يلمسوا ذات الشعر الأصفر.والثوب الحرير الدمسكى المزدان بصور الخيول التى حاربت الصليبيين وحررت القدس . . .

لقد جاء التاجر السورى يوقع الإتفاق مع ضابط الجيش الثانى الشمالى بأن يتركوا لهم فرصة فى سوق المصريين ، تمكنهم من جمع المصارى ، أفلس الضابط فأعلن التاجر الرحيل ، بعض المثقفين.كان لهم أحاديث غامضة تفسد أوقات العصارى.وتجعل الكومى يقش بللى أودو ، على أكثر تقدير ، ومع كل هذا ،كانت المقاهى تزخر باللعب الجاد ، والجد الملعوب، وأصحاب الكيف كانت لياليهم تحييها كوكب الشرق.تغنى. فتملأ جيوب (على

قفة وعصابته) ينقود الحشاشين وطلاب السلطنة مع النغمات ولقاء السحاب بالسحاب .! •

كنا نذهب إلى البحر ونعود عطاشى. من الطبيعى أن يحدث هذا مع أهل باكوس، فالبحر المتوسط مالح ، ولا يذهب إلى المحمودية.والماء عذب فيها سوى عمال الورادى"الكادحين ..!" •

قليل منهم كان يرتاد السوق - فقد كان أصحاب المال يعرفون كيف يستنفدون منهم آخر ما فيهم من طاقة.والقطاع العام (بفعل فاعل) صار منتجعاً للراحة، ووكالة يأخذون منها ولا يعطون ، ولم يدرك أحد من العمال أنهم يفسدون الحلم بطول الرقاد...!

•••

باكوس حى جدير بالإنغماس فيه ، طبع الشلة بطابعه ، خليط من قبلى وبحرى يتقاربون ولا يمتزجون منذ هبط جدنا (بطليموس) حزينا على موت الإسكندر ، وفشل فى إدخال الحضارة البحر أوسطية فى أذواقنا ، فترك الوصية ، للخواجات ، اليونان والطليان والمالطيين واليهود وغيرهم ، كل منهم سعى فى الثغر وفى طياته (تاريخه الخاص) كما يراه.وليس كما كان ، أو كما هو كائن ..يقاومون ، ومعهم جماعة من المصريين يساندهم الشوام ، ذلك الإكتساح الأنجلو فرنسى ، من الطبيعى أن يحتك اهالى باكوس فى سعيهم للرزق ، بكل ماهو معنوى ومادى ، يحملون آثاره إلى بيوتهم، ثم يأتون به إلى اجتماعاتهم فى السوق، يطرحونه عبر الطاولات ومع دخان اللفافات والمعسل ، ينتقون ماهو ملائم ، فى صراع السيادة بين الجاليات التى تتسلح بالعلم والمادة.وبقايا أحكام المحاكم المختلطة.و حتى

نشوب الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت طائرات هتلر وجيوشه تدق الباب الغربى ، هرب من لم يكن أبنا بارا للمدينة !

فأخذت المدينة تصطبغ بالطابع الذى يغلب عليه الذوق المصرى العربى فى نكهته المتفردة ، مغموسة فى ملح البحر وأساطيره ، وكان انسحاب الخواجات من الثغر - أثر عدوان ١٩٥٦ قد خلف وهناً فى أحياء مثل كليوباترا والابراهيمية وكامب شيزار والأزاريطة ، ليبرز دور، أحياء مثل الأنفوشى وكرموز فى القلب، والحضرة وباكوس فى الطرف ، ساعد على ذلك انتقال جزء كبير من (مال السوق) إلى جيوب المصريين ،" فاتمنجهوا " فى مدينتهم الأوربية ،بما فيها من مخلفات.!!

•••

" وارتفع المد الوطنى منذ قيام ثورة يوليو فى ١٩٥٤، (صاحبى أحمد موسى هو الذى يتمسك بأن ثورة يوليو قامت عام ١٩٥٤)وذلك منذ إعلان الجمهورية ، اقنعنى بذلك ،كما أننى اقتنعت بمنطق (عماد)

الذى كان يفرق بين اصطلاحى الشعب و الطبقة العاملة .

ولكننى لم أقتنع تماما بوجهة نظره بأن ثورة يوليو بدأت بالفعل عام ١٩١٩ وأن حركة الضباط المباركة. كانت تستكمل طموحات (الطبقة الوسطى) التى تسربت من بين أيديهم (مكاسب) ثورة ١٩١٩ا واستأثر بها كبار الملاك ، وأن جذوتها بقيت مشتعلة ، تبحث عن مردود لتضحياتها فى أشكال عديدة من التنظيمات الإخوانية والتقدمية والوطنية والفاشية ، حتى تحركت الدبابات وأسقطت أكبر الإقطاعيين فى ليل حار من ليالى القاهرة - خدش سن الدبوس البالون المنتفخ. فدوى معرقعا ..وكسر القيد ..

ربما عارض عبدالمنعم .أن الطبقة العاملة أصبحت ديكورا للوطنية وأن المتوسطين قد يستأثرون بحقوقهما ، وأن من يملك الفوز فى المستقبل على الطبقة الوسطى كثيرة الكلام بطيئة الفعل، ليست الطبقة الدنيا ... بل هى نفسها طبقة الملاك القدامى .."

أحمد موسى كان يهز رأسه إعجابا ، وكنت أعرف أن هذه أفكاره أو معظمها ، فقد حدد وضعه مسبقا، أما أنا فقد كنت لم أحدد طبقتى بعد ، وأرى أن للفرد دورا مهما فى الصعود والهبوط ،

وكنت أيضا شابا يمتلئ بالحماس والدفق الداخلى..!

•••

تعددت اللقاءات فى فيلا راجى ، كانت بمثابة القنطرة التى نلتقى فوقها ، قبل عبور أى من الأطراف إلى الشاطئ الآخر ، وطال جلوسنا فوق القنطرة ونحن نحاول تخليص وجهات النظر من دوائر وخطوط ومنحنيات أفكارنا المتوارثة.، سعيا ليقنع أحدنا نفسه بوجهات نظر الآخرين " يمسك بها ويتأملها. ثم يركنها على رصيف ذهنه. شارعا فى نسيانها .."

•••

السيد حسنى أبو رماد، كان ضابطا برتبة رائد أثناء قيام ثورة الجيش ثم صار مدنيا يعمل رئيساً لمجلس إدارة شركة ألواح الخشب المضغوط ، والسيد فاروق السنديونى كان برتبة نقيب عند قيام الثورة.وأمسى رئيسا لمجلس إدارة شركة استصلاح الأراضى ،

الإثنان أعضاء فى (أمانة الدعوة والفكر) يدعوان (الشلة) لتأسيس خلايا للدعاة فى المدن والقرى ، تدافع عن منجزات الثورة ..!!

فاروق السنديونى يمت بصلة قرابة إلى عنايات هانم - حماة محمود الرملى - دعته وعرفته بالأستاذ محمود الرملى ، وكانت السيدة العجوز برغم ثقل فى سمعها ، تجلس أثناء حوارنا وتحاول أن تتناقش فى السياسة ،
هل هو شوق لذكريات قديمة ..؟!

•••

اتفقنا ..أن نشترى ولا نبيع ...أن نسمع ولا نتحدث ..خاصة وأن تقديم السيدينْ لنا (بأنهما من الضباط الأحرار) أفسد جلساتنا الأولى بنوع من التحفظ والتحليق فوق العموميات " .!

السيد حسنى أبورماد ، كان من الواضح أنه يلاحق تطور الفكر السياسى وله قراءاته الخاصة.بدرجة مقبولة من ضابط ..!

إلا أن السيد فاروق السنديونى - وقد تأثر بالحياة فى الريف ومع الفلاحين فقد بدا لنا أنه "كبير مصطبة" وكان يحشر شعارات عبدالناصر قسرا فى أقواله.ويتصرف بشئ من ضعف فى منهج تحصيله ، إذ كان يمسك بالموضوع من رأسه، وإذا به يقلبه ليدخل من تحت ثوبه إلى الريف ، ويبدأ موضوعه الأثير تاريخ العائلات فى الريف.ومنها عائلته.وكيف كان يتصدى لأعمامه وأخواله ووالده وهم يحتقرون الفلاحين ...
ويدعوهم ليحسنوا من معاملتهم لهم !

يريدنا أن نرى منه . أنه كان ثائرا قبل التحاقه بالكلية الحربية.وقبل مبايعته للضباط الأحرار، وكشف لنا بأنه كان ثائرا من أجل تحسين المعاملة للفلاحين فقط.وليس للتغيير فى حياتهم لا

خشيت أن يستلمه (عماد) أو أحمد موسى - فكنت أتعمد أن أجلس بجانب عماد، وعبدالمنعم بجانب أحمد موسى ..نحن أصدقاء ونعرف ماذا سيقول كل منهما .

كنت وعبدالمنعم فى مأمورية غير متفق عليها علناً ،هى كبح جماح أحمد موسى.وعماد.أثناء مناقشاتنا. ونحن أبناء حى باكوس الشعبى ، قد تبدو بعض ألفاظنا فظة . وقد لا نعثر على العبارات الأدبية الملائمة لتغليف المعنى الجارح .

فتتلوث الألفاظ من مرارة الحلق ، ولا نعرف كيف نرسل كلام الصالون الفرنسى أو الإنجليزى ، فهذه مهارة تحتاج إلى تدريب طويل.وشياكة.حتى يعبر الكلام البائخ - فوق مائدة الطعام الفخمة.فى ذلك الجو المعطر ..دون أن يسقط روثا ....!

•••

للجدران المحلاة باللوحات.والأركان المزدانة بالتحف والفازات . والتماثيل الغالية.حديثا خاصاً ، كان المكان بكل هذا الثراء (بالنسبة لنا على الأقل) يتناقض معما نريد أن ننقله ويلح فى الخروج من أدمغتنا، يريد الإفلات. كما أننا نكون قد تناولنا طعاما جيداً.وقد اعتدنا السفرة الأرستقراطية ..بعد عدة عزومات - ستبقى ضمن ذكريات الشباب وعلامة مضيئة فى رحلة الشقاء ومغالبة أيام القحط القادمة ـ

كرم الضيافة فى فيلا راجى.ضرب فراخ منظمة الشباب الهزيلة على عينها . وبرغم ذلك، لم يلطف كل هذا.من اندفاعات أحمد موسى (أين نكاتك وقفشاتك يا أحمد. ولماذا تصر على الوقوف فى الجانب المظلم من قمرك يا أخى ..؟ أما عماد.فقد نسى أنه شاعر.ويستطيع أن يصنع لنا أمسية

مبهجة ،إنهما يصران على (كبس) الضابطين وتحديد موقفهما (الشخصى) تحديدا قاطعا.مانعاء،إنهما يحاولان إخراج أحشاء الماضى.والمعتقد. والموقف الشخصى من كل القضايا، حيلك أنت وهو، اتركوهما ، يتناقشان معنا... بعيدا عن أجواء القاهرة المفعمة بصراع السلطة والنفوذ ..!

"اعقل يا أحمد - اهدأ يا عماد ..."

•••

لكن احمد موسى وعماد على، دقت أوتادهما - رأسهما وألف سيف أن يحدد الضابطان (رؤساء مجالس الإدارة حاليا) موقفهما الطبقى، ومنه يرسلان النظر إلى كافة الإتجاهات ، ولا يعترفان لهما بالنوايا الحسنة ، لابد وأن يجعلوهما يقلعان عن استخدام شعار (تذويب الفوارق بين الطبقات) من جذوره.لعدم وجود الوسائل الواضحة للإذابة .كيميائيا.فى رأس أحمد موسى.وبالمقادير المحسوبة علميا ، ليتم التفاعل بطرق سبق تجريبها. وكان رأى عماد شطب الشعار من الساحة.والإعلان عن بناء طبقة وسطى وطنية.يكون لها حزبها.ويترك للعمال والفلاحين بناء حزبهم .والأقوى يتسلم الوزارة.ويبقى (الرئيس) رمزا للجمهورية .

والزميلان صارا يشتركان فى قول واحد.بأن عربة القطار التى فى المنتصف.لا يمكن أن تقود القطار بالعرض ،وعلى القائد أن يحدد بصرامة ،هل قيادة القطار من الأمام ، أم من الخلف " !

وفى ضوء المناقشات تفرعنا إلى تفريعات عديدة !

وأثناء أحد الإجتماعات .

سأل أحمد موسى - وكأن الضابطين - مسئولان شخصيا عن قرارات مجلس قيادة الثورة - متى سيكون لخريجى الكليات غير العسكرية ..دور فى

الحياة السياسية ؟ متى سيكون لأهل الخبرة دور في الحياة الاقتصادية ؟ كيف تطلقون حملة للإدخار بين العمال والفلاحين - بينما يقود هذه الحملة - من تنتفخ أوداجهم ويبك الدم من وجناتهم. وتضوى خواتم الماس في أصابعهم، وقد انتقلوا إلى سكنى قصور البكوات والباشوات ؟!!

•••

أحمد وعماد قد تدربا على تبادل الأدوار ،وتسلم عماد حبل الحديث وسأل :

- ماذا يفعل الدعاة ،أمام دولاب كامل للدولة ، جيش من الموظفين - تشبعوا بعبادة آمون رع ..حتى عصر الملك أحمد فؤاد الثاني !

ماذا بشأن النظم واللوائح ، حتى إنهم جعلوا من (الختم) إلها ..وحنطوه في قدس الأقداس. وقدموا له القرابين والصلوات ؟

وعاد أحمد موسى يقول :

- ماذا تفعل الماشطة في الوجه العكر ، مع افتراض أن الشاطرة لا تعرف أن تغزل برجل حمار ... !

انتفض السيد / فاروق السنديوني.وأفرغ ما في صدره من ضيق.في كلمات سريعة - وانتهى إلى القول:

- من المؤكد لأخ شيوعي ..؟!

وقبل أن نستوعب ملاحظته الواضحة ،أجابه أحمد موسى وهو يبتسم :

- ومن المؤكد حضرة الضابط رئيس مجلس الإدارة - (إقطاعي) لعائلته ألف ومائة تسعة وتسعون فدانا ..وحمل السلاح من أجل الفدان الباقي .؟!

طار الكرسي في أجواء السرادق ليحطم الكلوب ..وينقلب الحفل إلى ظلام وتخبط وعشوائية ، رحنا ندافع عن زملائنا، ونحيط بهما بساتر من الكلمات الطائشة ،حتى قام محمود الرملي وزوجته فتحية راجي. بإحضار

كلوبات أخرى نثروها في السرادق ،وعاد الضوء باهرا والضحكات العصبية أخذت طريقها . وصعد (عماد) إلى المسرح ..لتقديم فقرة كوميدية ..أو بعض الفكاهات ..قال :

"يا جماعة.كل ماعون ينضح بما فيه ، صاحبي أحمد موسى من شباب باكوس ، لا عمره آكل على سفرة.ولا آمسك بالشوكة والسكين، يبدو لكم أنه جلف.لكن في الواقع.له قلب رهيف كقلب العصفور .بالمناسبة ، نحن نتميز بأن ما في قلوبنا على ألسنتنا.وبصراحة ..نحن غير أصلاء.ولا يتمر فينا الخير ، بمعنى أن ناس بكوات مثلكم ، بكوات في العهد السابق ووزراء في العهد الجديد ، يتواضعون .ويتنازلون.ويتركون أوقات نعيمهم المقيم، ليجتمعوا بهذه الوجوه العكرة.التي عليها غضب الله ،

انظروا إلى الأخ السيد البرس.وبوزه المكلضم.أو إلى الأخ خضر.الذى لم ينطق بكلمة وقد حضر أربعة جلسات ، نحن نتكلم ونتحاور وهو يصب على كل سنتيمتر في الفيلا جام حسده ..!

ملأتم بطوننا بالطعام الجيد ، والمفروض أن نبقى صامتين.نسمع ولا نعلق – طبقا للديمقراطية الجديدة، لولا أنكم أردتم الدخول في رؤوسنا ، لإعدادنا كدعاة .رؤوسنا يا جماعة ولا مؤاخذة – تزدحم بعلامات الإستفهام والتعجب ، حتى أن عقولنالا تجد اتساعا لتكبر فيه وتفهم . إذا كنتم .أنتم. تنتقدون الفئات (الرجعية) بتلك المرارة.وأنتم جالسون في (صالوناتها).أو على أقل تقدير، في حدائق قصورهاء وبعض الضباط تزوجوا!. بنات الباشوات. ماذا يفعل من يقبع في ظلام خندق ناشع بالرطوبة.يكتظ بالحشرات، وكل أمنيته أن يكون من سكان (البدروم) !

..اضحكوا - وأنا في مراهقتي الفكرية ،كنت أتهم صاحبي أحمد موسى بأنه (شيوعى) وبعد ما توسعت مداركى.وجدت أن ذلك خسارة فيه ، إذ لايوجد شيوعى واحد فى العالم ، وما نسمع عنه فى روسيا.وشرق أوربا ماهى إلا محاولات للوصول إلى هذا المجتمع - الخيالى - قد تنجح أو تفشل ، وهى محاولات تختلف من روسيا إلى الصين.إلى الحزب الايطالى .. وكان على الأخ أحمد موسى.أن يشكر السيد فاروق السنديونى.لحسن الظن به. وأعتقد أن صاحبى إذا كان شيوعيا حقا - فهو يفعل ذلك بهدف أن يعيش كما يعيش السادة (الإقطاعيون) ومما لا مراء فيه ، أن الإقطاعيين والرجعيين لن يسمحوا له بذلك مطلقا ..!

فالثروة التى بين أيديهم . بالكاد تجعلهم اقطاعيين عليهم القيمة، فى بلدنا إذا وزعت الثروة بالتساوى ، سنتحول جميعا إلى فقراء متسولين، فمن باب المنجهة.والحفاظ على التراث.أن يبقى فى بلدنا (شوية) إقطاعيين.على رجعيين ، حتى يمكن أن نتباهى بهم أمام الأجانب. الذين يحافظون على لورداتهم وباروناتهم ، كما يمكن استخدام قصورهم فى التصوير السينمائى وإلا أصبحنا .أمام العالم .. دولة (قرديحى)

وضحك البعض من القلب .. !

وضحك البعض من الحلق .. !

•••

فى اللقاءات التالية كانت محاولاتى مع عبدالمنعم أن نتقابل مع السادة رؤساء مجالس الإدارة.فى نقاط الإتفاق.مهما كانت متناثرة أو متناهية فى الصغر ، فقد كان - الطرف الآخر - ينظر إلى (حياتنا) من فوق - لا ندرى بُعد المسافة - ولكنهم كانوا يتمتعون (بالإتصال المباشر). وكنا

نعيش فى خضم الأحداث.ونحاول بقدر الإمكان أن نلفت أنظارهم إلى حجم الكارثة.لتفاقم عصابة الفنط فرهود الإخطبوطية.التى مدت أذرعها فى كل اتجاه» . .

"يونس حسان ، المدير العام.فى القطاع العام.وأمين لجنة القسم ، جعل المال العام بقرة حلوبا لصالحه.يحلبها المقاولون.ومنهم مصنع سرحان عبدالعال. والوسيط. هو الفنط ،الذى حدد لنفسه نسبة العمولة ، وكل شئ يخضع لموافقة اللجان"

سلامة البحطيطى الذى ينفذ سياسة الفنط فى إدارة المصنع. متى تتعطل الآلات.ومتى يزيد الإنتاج ؟ حتى يتمكن الفنط من تقبيل يد العون. فى الوقت المناسب، ويتقدم بشروط المدين ، وأصبح شريكا ، وعندما تململ سرحان وباقى الشركاء.أقام مصنعه الجديد فى أرض (العوائد) ، وانتقل إليه. معظم العمال المهرة ، فسلموا له المصنع القديم حتى يمنحه بعض الطلبيات للمحافظة على ما تبقى منه ..!

وعبدالحميد البهتيمى : أستاذ التخطيط للفنط.والذى صار رئيسا لمصنع العوايد. شخصية حركية من شخصيات السياسية فى قسم الرمل.صار يشار إليه بالبنان ، ويعتبر الفنط.نصف إله.وهو. رسوله ..!

وسرحان عبدالعال : الذى كبله الفنط بالأحلام الوردية.وبعد أن حصل منه على ما يريد، دفع بنفسه إلى أن يكون نجما فى أمانة المحافظة. وأعلن أنه يرشح نفسه لمجلس الأمة.وجعل أهل باكوس يهتفون،و يطالبون(فرهود) بالترشيح.فى مظاهرات جابت الشوارع.وأخذت تهتف أمام باب المصنع ، فخرج سلامة البحطيطى والعمال يهتفون معهم باسم (فرهود).فى عبارات مسجوعة ، تم وضعها وتحفيظها لجماعته سلفا ، فاضطر سرحان عبدالعال

أن يلجأ (لـلروح الرياضيـة) ويذهب إلـى المقهى.الذى مـا أن رآه النـاس يدخل فيه، حتى أخذوا يهتفون (فرهود الأحق ...وسرحان لأ) اضطـر أن يبايعه.ويسلم ذقنه للجاهل، ويكبت حسرته». *

استمعوا إلى ما نقوله ..مبهورين وكأنهم يستمعون لحكايات من عالم آخر.
تحمسوا.حتى أن الضابطين نسيا مراكزهما الجديدة.وعادا ضباطين ثائرين ، وضربا المنضدة بقبضاتهما وطالبا :.

بتقارير وافية لرفعها إلى (الريس) شخصيا.لوقف هذا الزحف الأخطبوطـى الذى يسد المسالك.على الشرفاء والمناضلين"

و تحمسنا ..وعندما حاولنـا تحديد الأفعـال علـى الـورق ، استعصت علينـا وتعثرنا . .

مزقنا ما كتبناه ، عدة مرات..، كان من الصعوبـة تقديم الأدلـة الواضحـة على (انتهازيتهم) ، وقعنا فى تلك المنطقـة الرخـوة.نستطيع أن نجـزم بـأنهم يهيلون الـتراب فـى قنـوات (العـدل) ..ولكـن الواقـع ..أن الريـح.هـى التـى تتسبب فى هذا الإنهيار - كل ما فعلوه ..أنهم تركوا التراب الـذى خـرج مـن القنوات .ووضعوه على شفا الحفـرة ، وكـان السـؤال - هـل التقصـير مـن الذين حفروا بنشاط ،ولكنهم تقاعسوا عن إيعاد مخلفات الحفر ، أم من الذيـن نفخوا فى الريح.حتى تعاد القنوات مسدودة من جديد ؟

•••

لم أفهم بدقة تشبيهات أحمد موسى. وعجز عماد ..عن إثبـات واقعـة واحـدة ، يمكن المحاسبة عليها - أين المستندات والأدلة؟ الفنـط نفسـه صـار عضـوا بمجلس الأمة.محصنا، وأضفى حصانته على أعوانه.وأمسى فى نظـر معظـم أبناء الحى ، رجل البر والتقوى، ابـن البلـد المتفـانى فـى خدمـة أهـل الدائـرة

الكرام ،لقد أعلن بأن ربنا ينجيه ويوقف له أولاد الحلال .لأنه يحمل تحت إبطه (حجاب عم سنجق) ومن سيتحداه ، سيقابل من الناس بغضب شديد (كفاية حقد يا زغاليل -هاهم العيال الذى رباهم الفنط يعضون اليد التى قدمت لهم الإحسان· يريدون رفع رؤوسهم لتتساوى برأس سيد الحتة ، منظمة الشباب لم تعلمكم سوى كتابة التقارير ، عيب، من ليس له كبير يشترى له كبير يا أولاد الكلب...)

•••

وتوالت الإجتماعات مرة كل أسبوع فى فيللا راجى ، ربما مرت سنوات . حتى ..صرنا- كعواجيز الفرح - الناس تمضى وتتحرك وتشارك ، استمتاعا أو بحثا عن مصلحة ، ونحن لم يكن أمامنا إلا اجترار الماضى. حتى بعد أن ارتديت أنا . وأحمد موسى وعماد على.الملابس العسكرية ، جنودا فى جيش مصر ، كان لا يزال حديث فيلا راجى ممتدا - نحضره فى الأجازات .لا ينضب له معين ، ولا يبدل من الواقع شيئا ..!

وذات مساء من بداية شهر يونيو عام ١٩٦٧ خرجت من جوف البحر إحدى الطائرات تغير على المدينة، وعبرت فوق كازينو الفردوس الذى يعج بشاربى البيرة - والراقصين ، وأسقطت ثلاث قنابل . . .

قنبلة سقطت على كنيسة بميدان المنشية فهدمت جانبا منها ، وقتلت راهبا ، وقنبلة سقطت على مدرسة للأطفال ، دكت جانبا منها فقتلت عدداً من التلاميذ ومعهم مدرس التاريخ ..!

والقنبلة الثالثة دكت (فيللا راجى) فانهار الصالون على محمود الرملى ، ومات تحت الأنقاض . . . .

***

وبقينا فى الجيش ننتظر من ٦٧-إلى- ٧٣ - حتى كانت معركة العبور - وُعدت من الحرب، أُحمل بين جوانحى أحزانى. وذكرى الشهيدين. أحمد موسى. وعماد على.."

الفنط فرهود - وقد صار رجل الساعة. عمل على إطلاق اسميهما على حارتين فى باكوس ، كان قد ..رفع صورته القديمة من صدر (الديوان) ووضع بدلا منها صورة حديثة،. فيها. يسلم عليه قائد العبور - بيده .ويضع يده الأخرى فوق كتفه مشجعا ..!

وضع الفنط فرهود الصورة فى إطار من الخشب المذهب، وعلقها فى صدر الديوان بالمقهى .!

***

كانت (سلوى) تزورنى فى الشقة القديمة حتى فى إجازات الجيش ، تمنحنى حنانها دون أن تطالبنى بالزواج...

قالت - وهى ترتدى ملابسها -وتستعد للرحيل :

- أخشى أن أزعجك يا صلوحتى !

- خيرا يا سلوى ؟

- ... البورى لبط ..عاد يلح فى الزواج منى ..والصول قبارى وأمى....

فى المرة السابقة كنت قد استعنت(بالفنط) ، قبل أن يصبح نائبا وينشغل بالسياسة. عندما عرضت عليه المشكلة وأنا فى أشد حالات الخجل ، استمع إلىّ باهتمام زائد ، ثم سألنى بخبث :

- البنت تستاهل؟ ، هل ترغب فيها ؟، إذا كنت (غاويها) سأبذل قصارى جهدى لك- هززت رأسى بالموافقة ، قال (توكلنا على الله) .

لا أدرى ماذا فعل ، حتى جعل (البورى) يسوق عليه (طوب الأرض) لقد أوقف تجارته فى السوق تماما. ولم يعد أحد يورد له السمك ، حتى قال (البورى) الحق برقبتى ..ولم يرفع يده عنه ، إلا بعد أن سألنى ،إن كان يتعرض هو أو أخوه لصاحبتى سلوى.؟!

وبقيت سلوى ، تزورنى فى مواعيد نتفق عليها ، كنت قد أعطيتها نسخة من مفتاح البيت القديم منذ تم تجنيدى .

وكانت قد كفت عن التلميح بالزواج ، وعمقنا - صداقتنا - الوطيدة .. وبعد الحرب ، كانت أوضاع كثيرة قد تبدلت ،كنت قد فقدت أعز الأصدقاء ، وفقدت أيضا حماستى وتدفقى ،ولكنى لم أشك أنها تفعل ذلك ،عودة للإلحاح القديم بالزواج.إذ كان أمثال (البورى لبط) قد صار لهم شأن فى سوق باكوس .

كنت أشعر بأننى معلق فى فراغ ، لم يكن أمامى إلا أن أتخذ قرارا إيجابيا قلت لها - سلوى .. أنا قررت أن نعقد القران ..بعدها لن يقف فى طريقك أحد ..

لم تستقبل (قرارى) بالفرحة والدهشة التى كنت أتوقعها ،عدت أقول -

-الليلة إذا رغبت ..

توترت وارتبكت وهى تعيد زينتها أمام المرآة ..

-ماذا يا سلوى .أليس هذا ما كنت تتمنينه دائما، منذ أن تعارفنا ؟

لم تجب على الفور ..أخذت تواصل إعادة زينتها وتحبك ملابسها على جسمها.وعند الباب فتحت حقيبة يدها وقالت من بين ابتسامة مغتصبة :

-صلاح ، حبيبى صلاح ..فلنبق أصدقاء أفضل !!

- ماذا تعنين ؟

- .. حتى لو تزوجت من البورى ..

- ماذا تقولين يا سلوى ، البورى لبط ؟

هزت رأسها ، وهزت يدها مودعة ، وأغلقت خلفها الباب برفق. وإن كان قد دوت خبطته فى رأسى عنيفة. . . .

وعندما نظرت إلى طرف الكومدينو - وجدت المفتاح المعدنى الصغير ، ملقى على الرخامة الباردة ، اقتربت منه ببطء ، مددت إليه يدى ، كنت مضطربا ..وكأننى سألمس جثة مسجاة على رخام (المشرحة) ..ووقفت طويلا ..أتأمل المفتاح .!

••••••

الإسكندرية - سيدى بشر

عبد الفتاح مرسى

المؤلف: عبد الفتاح مرسى

- ليسانس اداب من جامعة الاسكندرية . دبلوم عام من كلية التربية.
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر.
- عضو عامل بهيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية.
- أحد مؤسسى سلسلة كتاب فاروس للآداب والفنون بالاسكندرية.
- مدير سابق بإحدى شركات قطـــاع الاعمـــال، ومقيـم بسـيدى بشـر الاسكندرية ت: ٥٤٨٨١٥٢.

كتب صدرت للمؤلف

- رواية - على حافة النهار - الثقافة الجديدة ١٩٩٣
- رواية - الدحديرة - على نفقة المؤلف ١٩٩٤
- رواية - المحسوس الملموس - المجلس الاعلىللثقافة١٩٩٥
- رواية - المقطوع والموصول - كتاب فاروس ١٩٩٨
- قصص - شهوة الموقف المتحرك - دار الوفاء لدنيا الطباعة١٩٩٨
- رواية - الفن فى موكب الوعى - دار الوفاء لدنيا الطباعة١٩٩٨
- رواية - المسخوط من سيرة على بلوظ - دار الوفاء لدنيا الطباعة١٩٩٩
- رواية - الليل وجبروته - دار الوفاء لدنيا الطباعة١٩٩٩